

حين نحيّا الله

Written by
Faisal Murjan

المؤمن يجعل حياته لله؛ في عبادته وفكره وعمله وعلاقته،
فتتحول كل ما يعيشه طريقاً للفوز برضوان الله.

يمضي الإنسان في الحياة وهو يظن أنه يعرف ما يريد، يخطط، ويحلم، ويتعلق بما يرجوه، ثم تأتي الأيام بما لم يكن في حسابه؛ بابٌ يُغلق، وأمنية تتأخر، وفقدٌ يوجع، ومسؤوليات تثقل، وفتورٌ يمر بالقلب حتى تتغير لذة العبادة.

عندها تبدأ الأسئلة الحقيقية: لماذا حدث هذا؟ وإلى أين أمضي؟ وكيف أعيش لله حين لا تأتي الحياة كما أريد؟

من هنا جاءت فكرة **«حين نحيا لله»**؛ كتاب لا يتحدث عن حياة بلا ألم، ولا يقدم تفسيرًا جاهزًا لكل ابتلاء، وإنما يبحث في معنى أن يعيش الإنسان لله، مستحضرًا مراقبته، راجيًا رضاه، مستعينًا به في اختياراته وعلاقاته وأيامه ومحنه. قال تعالى: ****﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**** [سورة الأنعام: ١٦٢].

يأخذ الكتاب القارئ في رحلة تبدأ من القلب، من معرفة الغاية، ثم تمتد إلى علاقته بالناس؛ كيف يحب، ويختلف، ويعفو، ويحفظ الحقوق. ثم إلى أيامه العادية، حيث تتحول الطاعات الصغيرة واستقامة النية إلى عبادة مستمرة، وصولًا إلى البلاء، حيث يتعلم الصبر وحسن الظن بالله، دون حاجة إلى فهم كل الحكمة.

وفي النهاية، يقف الإنسان أمام الحقيقة التي لا مفر منها: الرحيل. فكل ما في الدنيا مؤقت، وما يبقى هو العمل، ويصبح السؤال: ماذا أعددنا للقاء الله؟ فليس المقصود أن تحصل على كل ما تريد، وإنما أن تعيش لله مهما جاءت الحياة؛ في العطاء والمنع، والفرح والحزن، والقوة والضعف.

****قد لا تختار ما يحدث لك، لكنك تستطيع أن تختار كيف تعيشه. وحين يكون الله غايتك، تصبح الحياة كلها طريقًا إليه.****
وهذا هو معنى أن نحيا لله.



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى من اتبعه بإحسان
وسلم تسليماً كثيراً
وبعد

يمضي الإنسان في الحياة وهو يظن أنه يعرف ما يريد. يخطط لمستقبله، ويتعلق
بأمنيته، ثم تأتي الأيام بما لم يكن في حسابه: يُغلق باب كان يراه خلاصاً، وتتأخر
أمنية، ويأتي الفقد، وتثقل المسؤوليات، وتمر أيام لا يجد فيها من لذة العبادة ما كان
يجد.

عندها تبدأ أسئلة أعمق: لماذا حدث هذا؟ وإلى أين أمضي؟ وكيف أعيش لله حين لا
تسير الحياة كما أريد؟

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب؛ فـ«حين نحيا لله»** ليس حديثاً عن حياة مثالية
بلا ألم، ولا محاولة لتفسير كل ما يحدث بتفسير جاهز، وإنما رحلة في معنى العبودية:
كيف يعيش الإنسان مستحضراً مراقبة الله، مستعيناً به، راجياً رضاه؛ فيختار ويحب
ويصبر ويعمل على هدي الإيمان.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١.
تبدأ الرحلة من القلب؛ من معرفة الغاية التي خلق الإنسان لها، وأن تكون عبادة الله
وطلب رضاه هي المعنى الذي تنتظم حوله الحياة.

ثم تظهر العبودية في علاقتنا بالناس؛ في المحبة والاختلاف والأذى والخذلان: نحب
لله، ونختلف دون ظلم، ونعفو دون ضعف، ونحفظ الحقوق، ونصل الرحم، ونحسن
إلى من لا يستطيع رد الجميل.

ثم تأتي الأيام العادية؛ العمل والمسؤوليات والانشغال والفتور، وهناك تتشكل حقيقة
الاستقامة: في الصلاة التي نحافظ عليها، والطاعة التي تستمر وإن غاب الشعور،
والقليل الدائم، وتحويل المباحات إلى أبواب من الأجر حين تصح النية ويستقيم
العمل.

ثم تأتي مشقة البلاء؛ حين ينكسر ما اعتمدنا عليه، ويطول الانتظار، ونفقد شيئاً نحبه، ويصبح الألم أكبر من قدرتنا على تفسيره، لا نحتاج إلى تفسير كل بلاء، وإنما نتعلم الصبر، وحسن الظن بالله، والتعلق به، مع السعي في الأسباب المشروعة، حتى حين لا نفهم الحكمة.

وفي نهاية الرحلة يقف الإنسان أمام الحقيقة التي لا مفر منها: الرحيل، سترك ما جمعناه والمكانة التي سعينا إليها، ولن يبقى معنا إلا أعمالنا، وهنا يصبح السؤال أكثر صدقاً: ماذا أعدنا للقاء الله؟

إن الغاية من هذا الكتاب ليست أن يعلمك كيف تحصل على كل ما تريد، بل أن يعينك على أن تعيش لله مهما جاءت الحياة؛ في النعمة والمنع، والفرح والحزن، والقوة والضعف، والنشاط والفتور، تجدد التوبة، وتستعين بالله، وتجاهد نفسك، وتحسن العمل.

قد لا نستطيع اختيار كل ما يحدث لنا، لكننا نستطيع اختيار كيف نتعامل معه: نخطئ فنتوب، ونضعف فنعود، ونبتلى فنصبر، ونعطى فنشكر، ونؤذى فنضبط أنفسنا بما يرضي الله، ونفرح فلا ننسى المنعم.

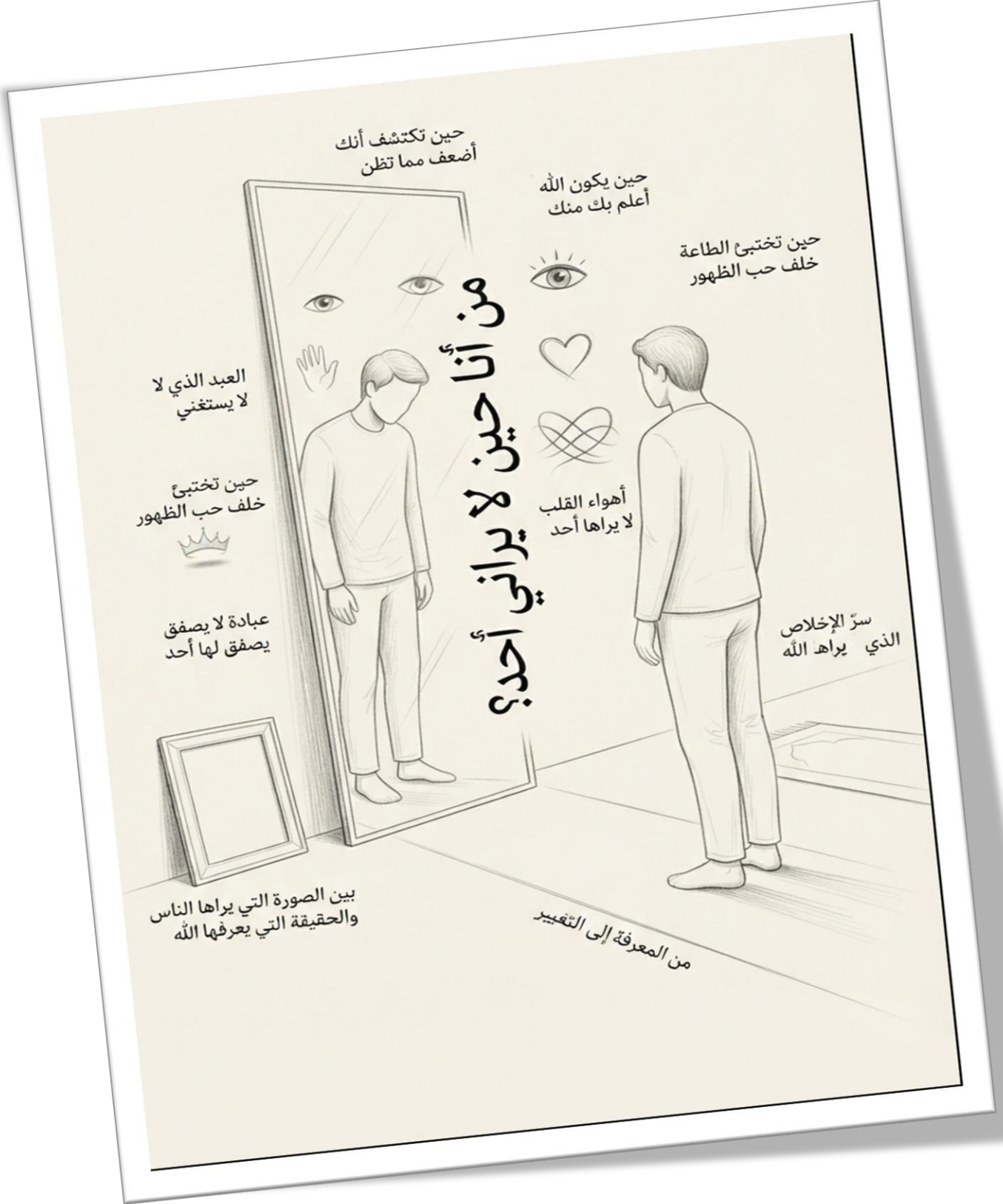
فـ«حين نحيا لله» ليست دعوة إلى ترك الدنيا، بل إلى أن تعيش فيها دون أن تصبح غايتك، تعمل، وتحب، وتسعى، وتبني، وتفرح، وتعطي، ويبقى قلبك يعرف أن الله هو الغاية وأن رضاه هو المقصد.

فإذا استقر هذا المعنى في القلب، تغيرت نظرنا إلى الحياة؛ فلا تعود الأبواب المغلقة نهاية، ولا الأيام العادية بلا قيمة، ولا المحن دليلاً على أن الله تركنا؛ بل تصبح الحياة كلها مجالاً للعبودية.

ليس المطلوب أن تأتي الحياة كما أردت، وإنما أن تعيشها بطاعة الله، صابراً، ساعياً في إصلاح ما تستطيع، راجياً فضله ورحمته؛ حتى ترحل وتلقاه وهو راضٍ عنك. وهذا هو معنى أن تحيا لله.

المؤلف.

حين ترى نفسك في مرآة الإيمان



حين ترى نفسك في مرآة الإيمان

ليس أصعب على الإنسان من أن ينظر إلى نفسه كما هي، بعيداً عن الصورة التي يحب أن يراها الناس عنه؛ فقد يعرف عيوب الآخرين بسهولة، لكنه يحتاج إلى صدق كبير حتى يكتشف ما يختبئ في قلبه من ضعف، وهوى، وغرور، وخوف.

والإيمان لا يعرف الإنسان بربه فحسب، بل يعرفه أيضاً بحقيقة نفسه؛ عبدٌ ضعيف؛ فقير إلى الله، لا يستغني عن ربه طرفة عين؛ وكلما عرف العبد قدر نفسه، عرف حاجته إلى مولاه، ولم يغتر بما عنده من قوة أو علم أو عمل.

وأمام هذه المرأة الإيمانية سنقترب من النفس، لا بقصد جلدتها أو احتقارها، وإنما بقصد إصلاحها وتهذيبها، وتحريرها من الأوهام التي تحجب عنها حقيقتها؛ وسنتوقف عند سؤال قد يهرب منه الإنسان طويلاً: من أنا حين لا يراني أحد؟

وستأمل معنى الإخلاص، وعبادة السر، ومجاهدة النفس، والفرق بين صورة الإنسان أمام الناس وحقيقته التي لا يعلمها إلا الله؛ وسننظر في تلك المسافة الخفية بين ما يظهر من أعمالنا وما يستقر في قلوبنا.

وسنرى كيف يمكن للطاعة أن تتحول إلى عادة إذا غاب عنها حضور القلب، وكيف قد يتسلل العجب إلى العمل الصالح من حيث لا يشعر صاحبه؛ فليس المهم أن يرى الإنسان عمله كثيراً، وإنما أن يراه متواضعاً محتاجاً إلى قبول الله.

وسنستكشف أن معرفة ضعفنا ليست دعوة إلى اليأس، وإنما باب إلى الاستعانة بالله؛ وأن الاعتراف بالفقر إليه ليس هزيمة، بل بداية للقوة الحقيقية التي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ١.

إن هذه الرحلة الإيمانية، رحلة لا تبحث عن إنسان كامل لا يخطئ، وإنما عن قلب صادق، يعرف ضعفه، ويجاهد نفسه، ويعرف ربه، ويظل مستعداً للإصلاح والرجوع.

من أنا حين لا يراني أحد؟

هناك صورة نحرص أن يرانا الناس بها: الإنسان الصالح، المتزن، الكريم، الناجح، المتماشك، وفي عصر المنصات الرقمية أصبحت صناعة هذه الصورة أسهل من أي وقت مضى، لكن يبقى سؤال لا تستطيع أي شاشة أن تجيب عنه: من أنا حين لا يراني أحد؟

حين تغلق هاتفك، وتنطفئ الشاشة، وينتهي التصفيق، وتغيب أعين الناس، ماذا يبقى منك؟ هل تحافظ على صلاتك حين لا يراك أحد كما تحرص عليها حين يراك الناس؟ هل تصون بصرك حين تستطيع أن تنظر ولا يراك بشر؟ وهل تترك المعصية حين تملك فرصة ألا يعرف بها أحد؟

هنا تبدأ معرفة النفس؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم ظاهرها وباطنها، ويعلم ما تضره النفوس وما تخفيه الصدور، ويوضحه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾؛ فهو سبحانه لا يخفى عليه عمل خفي، ولا طاعة لم يعلم بها الناس، ولا لحظة تراجع فيها العبد عن خطأ خشية منه.

ومن أخطر ما يصيب القلب أن تصبح صورتنا أمام الناس أهم من حقيقتنا عند الله؛ أن نخشى أن يكتشف الناس تقصيرنا، ولا نخشى أن نبقي مقصرين ونحن نعلم أن الله مطلع علينا، وفي زماننا قد تكون الخلوة شاشة صغيرة تحمل عالمًا كاملاً لا يراه أحد: حسابًا مجهولًا، أو نافذة خفية، أو محتوى يستحي صاحبه أن يراه أحد وهو يتابعه.

وهنا يظهر السؤال الحقيقي: هل يغيّر غياب الناس شيئاً من مراقبتك لله؟ إن الخلوة ليست مجرد مكان لا يراك فيه أحد، بل هي موطن يظهر فيه صدق العبد؛ حين يستحضر علم الله به؛ فيختار ما يرضيه ويجاهد نفسه عما يسخطه.

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: "لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا؛ فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا" قال ثوبان: يا رسول الله، صفهم

لنا، جَلَّهْمَ لنا؛ أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جَلَدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا؛ فليست القضية أن يراك الناس صالحًا، بل أن تسعى إلى الصلاح في السر كما في العلن، وأن يكون لك عمل خفي: ركعتان في الليل، أو صدقة لا يعلم بها أحد، أو دعاء لإنسان غائب، أو ترك معصية وأنت قادر عليها، أو معروف تفعله ولا تنتظر عليه شكرًا.

وتأمل يوسف عليه السلام؛ أغلقت عليه الأبواب، واجتمعت أسباب الفتنة، وغابت أعين الناس وتهيئة له زوجة الملك ولك أن تتخيل حجم الفتنة وإغرائها مقابل من يسقط أمام شهوة محرمة من خلال التلفون بينما سيدنا يوسف قاوم فتنة طاغية تمثل بزوجة الملك تعرض له جسدها وتدعوه للحرام فكان الجواب منه كما وصفه ربنا: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾^١؛ فكان خوفه من الله وإيمانه به أعظم من سلطان الموقف وإغراء اللحظة.

ومع ذلك، لا تجعل الحديث عن الخلوة بابًا لليأس؛ فالإنسان يضعف ويخطئ، ثم يتوب ويجاهد نفسه، وليس العيب أن تكتشف ضعفك، وإنما العيب أن تشغل بصناعة صورة ظاهرة عن نفسك أمام الناس، بدل أن تشغل بإصلاح حقيقتك في السر، حيث لا يراك إلا الله الذي: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^٢.

لذلك، راقب نفسك في التفاصيل الصغيرة: ماذا تفعل حين تستطيع أن تكذب ولا يكتشفك أحد؟ حين تستطيع أن تأخذ وليس هناك من يحاسبك؟ حين تستطيع أن تنتقم ولا يملك الآخر ردك؟ وحين تفعل خيرًا ولا يشكرك أحد؟ هناك تظهر مواضع الصدق التي تحتاج إلى تزكية وإصلاح.

ومن أجمل ما يعين القلب أن يجعل له أعمالًا لا يراها الناس، وقد قال رسول الله ﷺ في أويس القرني: «إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس لا يدع باليمن غير أم له قد كان به بياض فدعا الله فأذهب عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم فمن لقيه منكم فليستغفر لكم»^٣؛ فليست الشهرة دليل القبول، كما أن الخفاء ليس دليل الهوان.

١ صحيح ابن ماجه (٣٤٤٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، والطبراني في ((الأوسط)) (٤٦٣٢).

٢ سورة يوسف: ٢٣

٣ سورة غافر: ١٩

٤ أبو نعيم، حلية الأولياء (٩٥/٢) أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (٢١٢)، وأحمد في ((الزهد)) (٢٠٠٨).

فلا تجعل عدد متابعيك، ولا كثرة الإعجاب بك، ولا ثناء الناس عليك مقياساً لقيمتك؛ فالناس يرون ظاهراً من حياتك، والله سبحانه يعلم السر وأخفى؛ أصلح حقيقتك قبل صورتك، ولا تكشف ما ستره الله عليك، بل عالج ما تعلم أنه يحتاج إلى إصلاح.

واختر اليوم عملاً صالحاً لا يحتاج إلى تصفيق أحد، ثم اسأل نفسك بصدق: من أنا حين لا يراني أحد؟

وهنا ستبدأ راحة أعمق تتذوق حلاوة الإيمان وتشعر بسعادة قلبية لا يمكن وصفها إلا كما نشبهه بالراحة النفسية ولن تصلها إلا حين تتوقف عن مغالطة نفسك، وتبدأ في إصلاحها.

بين الصورة التي يراها الناس والحقيقة التي يعرفها الله

يستطيع الإنسان أن يقضي سنوات في بناء صورة معينة عن نفسه. ينتقي كلماته، ويختار مواقفه، ويخفي ضعفه، ويظهر نجاحه، ولا يسمح للناس أن يروا منه إلا الجانب الذي يريد لهم أن يعرفوه.

أما في عصرنا الحالي، ومع اتساع منصات التواصل الرقمي، أصبحت صناعة الصورة التي يُراد للناس أن يروها أسهل من أي وقت مضى؛ فصورة تُلَقط بعناية، وكلمات تُراجع قبل نشرها، ولحظات تُنتقى من بين عشرات اللحظات، حتى تبدو الحياة أحياناً أكثر ترتيباً وسعادةً ونجاحاً مما هي عليه في الحقيقة.

ومع تكرار هذا المشهد، قد يعتاد الإنسان هذا التجميل الذي يراه لدى مشاهير المحتوى الرقمي، حتى أصبح كثير من أبناء المسلمين، ذكوراً وإناثاً، ينساقون وراء هذه الظاهرة، التي قد تُستغل - مع الأسف - في تطبيع بعض السلوكيات المخالفة للأخلاق، والتقليل من شأن المحرمات، وإضعاف تماسك الأسرة المسلمة، وفي خضم هذا الانشغال بالصورة والشهرة، يغيب عن كثير من المغترين ببريق الشهرة الزائفة أن هذه المنابر التقنية يمكن أن تكون وسيلة عظيمة لنشر الخير، وبناء الوعي، ونفع الناشئة والمجتمع، بدل أن تتحول إلى ساحاتٍ لتكريس السطحية واستعراض الحياة.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال أعمق ينبغي لكل واحد منا أن يطرحه على نفسه: هل الحقيقة التي أعيشها في الخفاء تزداد صلاحاً، أم أنني أصبحت منشغلاً بالصورة التي يراها الناس؟ فالناس لا يرون إلا ظاهر الإنسان، وقد تخفى عنهم جوانب كثيرة من حياته، أما الله سبحانه وتعالى فلا يخفى عليه سرٌّ ولا علن، ولا ظاهرٌ ولا باطن؛ فهو سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^١.

قد يراك الناس مبتسماً ولا يعلمون ما في قلبك من حزن، وقد يرونك قوياً ولا يعلمون مقدار ما تجاهد، وقد يرونك صالحاً ولا يعلمون كم تتعثر ثم تعود، وليس في ستر العيوب عن الناس عيب؛ فالإنسان يخطئ ويتوب، ويضعف ويجاهد نفسه، وإنما

الخطر أن يصبح اهتمامه بالصورة أكبر من اهتمامه بالحقيقة؛ أن يخشى أن يكتشف الناس تقصيره، ولا يخشى أن يبقى مقصرًا وهو يعلم أن الله يراه.

وهنا يظهر معنى الإخلاص، وقد قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»؛ فالعمل قد يتشابه في ظاهره، لكن منزلته تختلف باختلاف القصد، وليس كل فرح بثناء الناس رياءً؛ فقد يفرح المؤمن بالثناء الحسن من غير أن يكون قد عمل لأجله، وإنما الخطر أن يكون نظر الناس باعثًا على العمل، أو يصبح مدحهم هو المقياس الذي يحدد قيمة العمل في قلب صاحبه.

لذلك اسأل نفسك من حين إلى آخر: لو لم يعلم أحد بهذا العمل، هل كنت سأفعله؟ لو لم يضع أحد إعجابًا على منشوري، هل كنت سأكتبه؟ لو لم يشكرني أحد على معروف، هل كنت سأفعله؟ ولو لم يعرف أحد عبادتي؛ فهل يبقى في قلبي شوق إليها؟ هذه الأسئلة ليست لإدانة نفسك، وإنما لكشف مواضع تحتاج إلى إصلاح، ومن أعظم ما يعين على ذلك أن يكون لك مع الله عمل لا يراه الناس: ركعة في الليل، أو صدقة خفية، أو دعاء، أو استغفار، أو ترك لمعصية كنت قادرًا عليها ولا يراك فيها أحد.

هناك يتعلم القلب أن العبادة لا تحتاج إلى جمهور، وأن العمل الصالح لا تزداد قيمته بكثرة من شاهده، بل بصدق من عمله وإخلاصه لله؛ فليس المهم أن تُحسن الصورة التي يراها الناس، وإنما أن تُصلح الحقيقة التي لا يراها إلا الله.

قد يرفع الله قدر عبد لا يعرفه الناس، كما أن شهرة الإنسان بينهم لا تعني وحدها علو منزلته عند الله؛ فالمعيار هو صدق العبد وصلاح عمله، لا مقدار ظهوره.

فلا تجعل عدد متابعيك، ولا مقدار الإعجاب بك، ولا كثرة الشناء عليك مقياسًا لقيمتك؛ فالمنصات تخبرك كم شخصًا رأى صورتك، لكنها لا تخبرك عن حقيقة قلبك، ويقول الله سبحانه: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»^١.

فليكن اهتمامك الأول بإصلاح ما لا تراه الكاميرات ولا تصل إليه أعين الناس، لا تجعل حرصك على أن يُقال عنك: «صالح» يسرق منك فرصة أن تكون صالحًا بالفعل.

١ صحيح البخاري (١) وأخرجه أبو داود (٢٢٠١)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) (٤٦٥٠) واللفظ لهم.

٢ سورة الملك: ١٣

🌱 **وقفت مع النفس:** ما الصورة التي أحاول المحافظة عليها أمام الناس؟ وما الجانب الذي أخشى أن يعرفوه عني، مع أن الله يعلمه؟ وهل عندي عمل صالح، لو غاب الناس جميعاً، لبقيت أفعله؟

ثم اختر جانباً يحتاج إلى إصلاح، وانشغل بعلاجه لا بإخفائه، واختر عملاً صالحاً لا يحتاج إلى تصفيق أحد، واجعله خفياً ما استطعت؛ فليس المطلوب أن تهدم صورتك أمام الناس، ولا أن تكشف ما ستره الله عليك، وإنما المطلوب أن تصلح الحقيقة التي لا يراها الناس، حتى تكون صورتك الحسنة ثمرةً لحقيقة حسنة، لا قناعاً يخفي قلباً مهملاً.

الخلاصة والنتيجة: الناس يرون بعض حياتك، والله يعلم سرّك وعلا نيتك؛ فلا تجعل همك أن تبدو صالحاً؛ اجعل همك أن تكون صادقاً، وحين يصبح ما بينك وبين الله أصلح مما يظهر للناس، تخف حاجتك إلى التمثيل، ويبدأ انشغالك الحقيقي بالإصلاح.

حين تكتشف أنك أضعف مما تظن

يمضي الإنسان في حياته وهو يظن أنه يعرف نفسه، ويحسب أنه قادر على التحكم في قراراته ومشاعره ومستقبله؛ ثم تأتي لحظة تكشف له أنه أضعف مما كان يظن. قد تكون أمام فتنة لم يتوقعها، أو شهوة ظن أنه تجاوزها، أو موقف عجز فيه عن الصبر، أو ابتلاء أسقط عنه أوهام القوة، ويزداد ثقل الاعتراف بالضعف في عصر يدفع الإنسان إلى إظهار قدرته الدائمة، بينما يرى في المنصات الرقمية بعض المشاهير الذين يشار إلى نجاحاتهم وهم في أوج افتخارهم بذلك؛ فيقارن حاله المتواضع بحالهم بلحظة نجاحهم والاشادة بهم ولأنه مفتون بوسائل التقنية الحديثة ويرى بلحظ غفلة عن الله لا يدرك حقيقة من هم المشهورون حقاً؛ إن المشهورين في السماء هم هل الصلاح والتقوى والقرب من الله في الأرض ورب مغمر في الدنيا هو عند الله خير من ملئ الأرض ممن لا إيمان في قلوبهم، ونستذكر حديث النبي ﷺ لعمر يخبره عن أويس القرني اليماني الفقير الذي لا يأبه له ولكنه عند الله من الصديقين ممن يستجيب لهم الله دعوتهم بمجرد رفع أكفهم وقولهم اللهم تفتح لهم أبواب السماوات بالاستجابة.

لكن الإيمان يعيد للإنسان ميزانه الحقيقي: أنت عبدٌ محتاج إلى ربك، وما عندك من قوة وثبات فمن فضله وتوفيقه، وافتقارك إليه لا يعني ترك الأسباب، بل الأخذ بها مع قلب مستعين بالله، عالم أن الأسباب لا تؤتي ثمرتها إلا بإذنه. ومن أعظم ما يذكر الإنسان بحقيقته قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾؛ فالضعف من طبيعة الإنسان، وليس عيباً يستوجب احتقار النفس أو اليأس منها، بل هو تذكير بحقيقة العبودية والافتقار إلى الله، ودافع إلى الاستعانة به وطلب العون منه.

قد تظن أنك لن تعود إلى ذنبٍ تركته، ثم تجد نفسك أمام أسبابه من جديد، وقد تظن أنك صبور حتى يأتي ابتلاءٌ يختبر صبرك، وقد تظن أنك قادر على ضبط قلبك، حتى تواجه ما يكشف لك مقدار حاجتك إلى ربك؛ فلا تجعل اكتشاف ضعفك سبباً

لليأس، بل اجعله بدايةً للصدق مع نفسك، ومعرفة أبواب ضعفك، ومجاهدة نفسك، والرجوع إلى الله.

وقد قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز»^١؛ تأمل هذا التوازن: احرص، واستعن، ولا تعجز؛ أبذل وسعك، وخذ بالأسباب، واستمد العون من الله، ولا تجعل عجزك ذريعة للاستسلام.

ومن الحكمة أن تعرف ما الذي يضعفك: ما الذي يفتن قلبك، أو يسرق وقتك، أو يفتح عليك أبواب الغفلة والشهوة والمقارنة؟ فإذا عرفت باب ضعفك؛ فلا تختبر نفسك بالدخول منه كل مرة؛ أغلقه، وابتعد عما يضعفك، وضع لنفسك حدودًا تحمي قلبك ودينك ووقتك؛ فأحيانًا تكون القوة في أن تبتعد قبل أن تبدأ المعركة.

تأمل موسى عليه السلام حين بلغ مدين، وقد ناله التعب والحاجة؛ فسقى للمراتين ثم تولى إلى الظل وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^٢ لقد كان دعاؤه إظهارًا صادقًا لافتقاره إلى فضل الله، ثم ساق الله إليه من فضله ما فتح له أبواب الخير، وأخرجه من حال الضعف والحاجة إلى حال الأمن والاستقرار، ولقد كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»^٣؛ رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ فإذا كان رسول الله ﷺ يكثر من سؤال الله الثبات؛ فكيف بنا ونحن نعرف ضعف نفوسنا وتقلب أحوالنا؟ لا يأمن العبد على نفسه، لكنه يسأل الله الثبات، ويجاهد نفسه، ويتعد عن أسباب الفتنة، ويعود إلى الله كلما زل.

 **إسأل نفسك:** ما أكثر ما يكشف ضعفي؟ أهو الغضب، أم الشهوة، أم حب المدح، أم التعلق بالناس، أم عادة أعود إليها حين أضعف؟ فإذا عرفت باب ضعفك؛ فلا تكتفِ بمعرفته؛ خذ خطوة تحميك: أغلق بابًا يفتنك، وقلّل ما يضعفك، وأكثر من الاستغفار والدعاء، واستعن بمن تثق بدينه وحكمته.

 **القوة الحقيقية:** ليست أن تقول لا أضعف، بل أن تعرف ضعفك، وتعرف إلى من تلجأ حين تضعف؛ إذا تعثرت؛ فلا تجعل التعثر نهاية الطريق؛ تب إلى الله، واستغفر،

١ صحيح ابن ماجه (٣٣٧٩) وأخرجه مسلم (٢٦٦٤).

٢ سورة القصص: ٢٤

٣ أخرجه الترمذي (٢١٤٠)

وأصلح ما استطعت، وابدأ من جديد؛ فالمؤمن يضعف ويخطئ، لكنه لا يستسلم لضعفه ولا يقيم على خطئه، بل يعود كلما ابتعد، ويستعين بالله كلما عجز. وهكذا تصبح معرفتك بضعفك باباً للاستعانة، وصدق الافتقار، وقوة بالله مع الأخذ بالأسباب، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا، وأعتنا على طاعتك، واحفظ قلوبنا من الفتن، وثبتنا على دينك، وردنا إليك كلما زلت أقدامنا.

العبد الذي لا يستغني

قد يملك الإنسان من أسباب القوة ما يجعله ينسى حاجته؛ مالا يكفيه، وعلمًا يرفع قدره، وعملاً يستقر به، وأشخاصًا يحبونه ويقفون إلى جانبه؛ ثم يتسلل إلى قلبه شعور خفي: «أستطيع تدبير حياتي بنفسي»، حتى يضعف فيه معنى الافتقار إلى الله.

قد يستغني الإنسان عن بعض الناس في حاجات، ويملك من الخبرة ما يعينه على تدبير شؤون دنياه، لكنه لا يستغني عن ربه لحظة؛ فهو محتاج إليه في وجوده وبقائه، وفي هدايته وعافيته، وفي صلاح قلبه وعمله، وفي كل نعمة تصله، ويصف الله سبحانه هذه الحالة بقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^١.

تأمل قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ فليس الفقر فقر المال وحده، بل هو افتقار العبد إلى ربه في كل أحواله؛ تحتاج إليه حين تنجح، حتى لا يغرك النجاح؛ وحين تفشل، حتى لا يحط بك الفشل؛ وحين يمدحك الناس، حتى يحفظك من العجب؛ وحين يذمونك، حتى يحفظك من اليأس.

وقد يعيش الإنسان سنوات وهو يطلب من الدنيا الأمان، ثم يكتشف أن المال قد ينقص، والصحة قد تتغير، والأصدقاء قد يبتعدون، والخطط قد تتعثر، والأبواب التي ظنها مفتوحة قد تُغلق فجأة، عندها يتعلم القلب أن الأسباب نافعة بإذن الله، لكنها لا تستقل بالنفع، وأن الاعتماد على الله لا ينافي الأخذ بها، بل يصحح وجهتها ويحرر القلب من التعلق بها، لهذا قال رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»^٢.

وهنا يظهر الفرق بين الانتفاع بالناس والتعلق بهم؛ تشكر من أحسن إليك، وتستعين بأهل الخبرة، وتقبل نصيح من تثق بدينه وعلمه، لكن لا تجعل قلبك أسيرًا لمخلوق،

١ سورة فاطر: الآية ١٥.

٢ صحيح الترمذي (٢٥١٦) وأخرجه أحمد (٢٦٦٩).

ولا تعلق رجاءك به على وجه ينسى معه فضل الله؛ فالمخلوق سبب، والله سبحانه رب الأسباب ومقدّرها.

ومن أجمل ما يربي القلب على هذا المعنى قول النبي ﷺ: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^١؛ فالمال والجاه والقوة أسباب، لكنها لا تستقل بجلب الخير أو دفع الضر؛ وإنما الأمر كله لله، يعطي بحكمة ويمنع بحكمة.

تأمل دعاء النبي ﷺ: «اللهم رحمتك أرجو؛ فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله»^٢؛ فهذا هو الافتقار الحقيقي إلى الله: أن يعلم العبد أنه لا يستغني عن ربه لحظة، وأن قوته وثباته وصلاحه شأنه كلها بيده سبحانه.

ومن أخطر ما يصيب القلب أن يعتاد النعمة حتى ينسى المنعم. يستيقظ على الصحة، والأهل، والبيت، والعمل، وكأنها أمور ثابتة لا فضل متجدد؛ ثم يكفي ألمّ عابر ليدرك قيمة العافية، أو ليلة من القلق ليدرك قيمة السكينة.

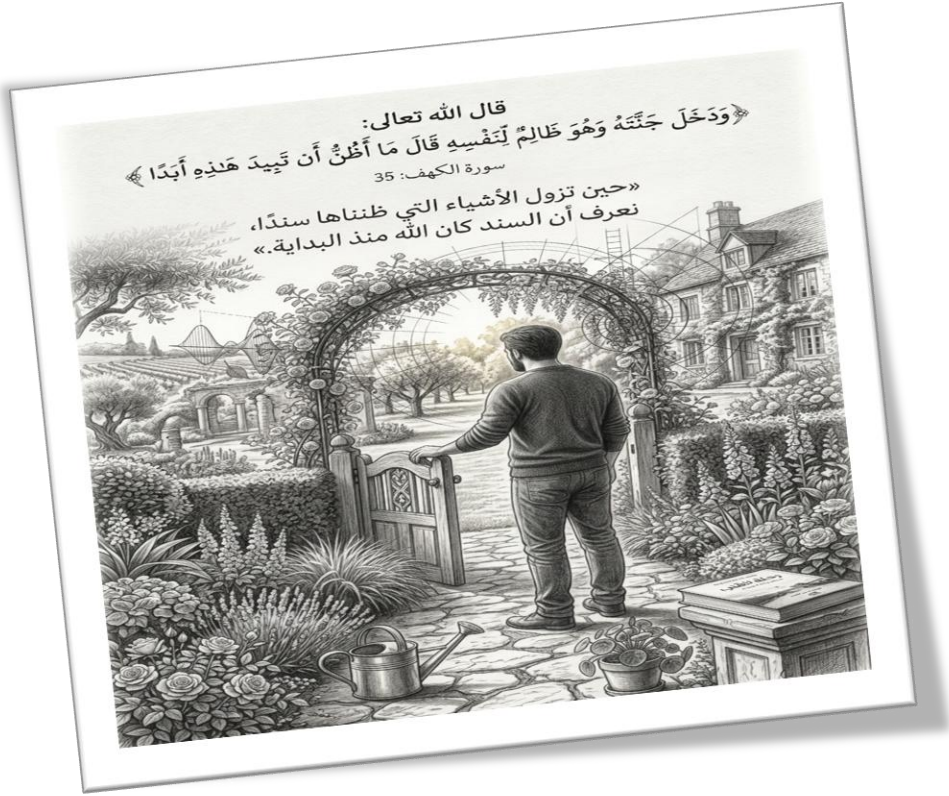
 **وقفت مع النفس:** ما الشيء الذي أخشى فقدته أكثر مما أخشى التقصير في حق الله؟ وما النعمة التي اعتدت وجودها حتى نسيت شكر الله عليها؟ وهل آخذ بالأسباب وقلبي معتمد على الله، أم أصبحت أطمئن إلى الأسباب نفسها؟

ثم قل بصدق: يا رب، أنت الغني عني، وأنا الفقير إليك؛ لا تجعل اعتيادي لنعمتك دون شكرك سبباً لغفلي، ولا تجعل قلبي متعلقاً بمخلوق تعلقاً ينسني فضلك، وارزقني قلباً يأخذ بالأسباب ولا يعتمد عليها، ويشكر النعمة ولا يغتر بها.

وتذكر: قد تفقد شيئاً ظننته سنده؛ فتكتشف أن الله هو المدبر قبل كل شيء، وقد يُغلق باب؛ فيفتح الله لك من فضله باباً آخر، وليس معنى الافتقار أن تعيش خائفاً من زوال النعم، بل أن تعرف أنها فضل من الله؛ فتشكره عليها، وتستعملها فيما يرضيه. وهنا يصبح الافتقار إلى الله من أجمل معاني العبودية: أن تعرف أنك محتاج إليه دائماً، وأن كل قوة وعافية وهداية وتوفيق فمن فضله.

١ صحيح البخاري (٦٣٣٠) أخرجه مسلم (٥٩٣).

٢ ابن حجر العسقلاني؛ فيض القدير (٥٢٦/٣) وأخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)).



يا رب، لا تكلنا إلى
أنفسنا طرفة عين،
وأغن قلوبنا بك،
وأعنا على طاعتك،
واجعل اعتمادنا
عليك مع أخذنا
بالأسباب، ولا تجعلنا
نغفل عنك في رخاء
ولا في شدة.

كيف تنجو من نفسك؟

أحيانًا لا يكون أصعب ما في الطريق عدوًّا يقف أمامك، بل نفسًا تعرف مواطن ضعفك؛ تعرف ما تحب، وما يغيريك، والأبواب التي إذا فُتحت أمامك ضعفت، ثم تزيّن لك ما تشتهييه حتى يبدو لك كأنه يجب أن تفعله.

لا يستطيع الإنسان أن يهرب من نفسه. يحملها معه في بيته وعمله، وفي خلوته، وحتى حين يضع هاتفه جانبًا وينطفئ كل ما حوله، ولهذا كانت تزكية النفس ومجاهدتها من أعظم ميادين التربية؛ فالمشكلة ليست في أن تكون لك رغبات ومشاعر، وإنما في أن تتحول الرغبة إلى قائد، والهوى إلى حاكم، والعادة إلى قوة تسوقك حيث لا تريد.

وفي عصرنا أصبحت هذه المجاهدة أكثر تعقيدًا؛ فقد يأتي ما يثير رغبتك في إشعار، أو مقطع قصير، أو إعلان، أو محتوى صُمم لجذب انتباهك، وقد تفتح هاتفك لدقائق، ثم تجد نفسك بعد ساعة في عالم من التششت والمقارنات، لذلك، قبل أن تحاول إصلاح نفسك، تعلّم أن تعرفها: ما الذي يضعفك؟ ما الذي يستفز غضبك؟ ما الذي يوقظ شهوتك؟ وما الأوقات التي تكون فيها أكثر قابلية للزلل؟ قال تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ٧ ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ٨ ﴿فَالْفَلَاحَ لَيْسَ فِي اتِّبَاعِ أَهْوَاءِ النَّفْسِ، وَإِنَّمَا فِي تَزْكِيَّتِهَا وَتَقْوِيمِهَا وَحَمْلِهَا عَلَى مَا يَرْضِي اللَّهَ.

ومن أعظم أبواب النجاة أن تتعلم الفرق بين ما تشتهييه نفسك وما يرضي الله؛ فقد يدعوك الغضب إلى الانتقام؛ فيدعوك الإيمان إلى ضبطه، وقد تدعوك الشهوة إلى النظر؛ فيذكرك إيمانك بغض البصر، وقد يدعوك الكسل إلى تأخير الصلاة؛ فينهض بك تعظيم الله إلى أدائها.



تأمل يوسف عليه السلام حين أغلقت الأبواب واجتمعت أسباب الفتنة؛ فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾^١، لم ينتظر أن يرى إلى أي مدى يستطيع مقاومة الفتنة، بل استعاذ بالله وسعى إلى النجاة منها؛ فليس من الحكمة أن تثق بنفسك أمام كل فتنة ثم تختبر قدرتك على مقاومتها؛ أحياناً تكون القوة في أن تبتعد قبل أن تبدأ المعركة.

ومن أخطر ما تفعله النفس أن تزيّن الخطأ بأعذار تبدو مقنعة: «مرة واحدة لن تضر»، «الجميع يفعلون ذلك»، «سأتوب بعد ذلك»، نعم، الله غفور رحيم، ورحمته تفتح

للعبد باب التوبة؛ فلا ينبغي أن يجعل سعة رحمته ذريعة للإقامة على الذنب.

ولهذا فمجاهدة النفس ليست في مواجهة كل فتنة، بل في معرفة الأبواب التي تضعفك وإغلاقها قبل أن تفتح عليك ما لا تستطيع مقاومته؛ فضع حدوداً لما يفسد قلبك، وابتعد عن البيئة التي تجرّك إلى ما لا يرضي الله، وأحسن إدارة هاتفك ووقتك وانتباهك؛ فليس كل ما تستطيع الوصول إليه يستحق أن تنظر إليه، ولا كل ما يثير فضولك يستحق أن تبحث عنه.

🌱 **وقف مع النفس:** اكتب ثلاثة من أبواب ضعفك، واسأل: ما الذي يسبقها؟ وما العلامة التي تخبرني أنك بدأت تضعف؟ وما الخطوة التي تستطيع اتخاذها قبل الوقوع؟ ثم أكثر من الدعاء أن يجعلك الله من عباده الذين وصفهم بقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾^٢.

فالنجاة ليست أن تصبح نفساً لا تخطئ، وإنما أن تصبح نفساً إذا أخطأت رجعت، وإذا اشتتت الحرام قاومت، وإذا غفلت تذكرت، وإذا ضعفت استعانت بالله،

١ سورة يوسف: الآية ٢٣

٢ سورة الحجرات: الآية ٧.

وسبحانه القائل يصف هذا المشهد من الصراع بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^١.

حين تصبح النفس هي المعركة

ليست كل المعارك التي يخوضها الإنسان مرئية؛ فبعضها لا يُسمع لها صوت، ولا يراها الناس، ولا تترك جرحًا على الجسد، ومع ذلك قد تستهلك من القلب والعمر أكثر مما تستهلكه المعارك الظاهرة؛ أنها المعركة التي تحدث داخلك حين تعرف ما ينبغي أن تفعله، ثم تجد نفسك تميل إلى غيره؛ حين تريد أن تتغير، لكن عادةً قديمة تشدك إلى الوراء؛ وحين تعرف أن شيئًا ما يضر قلبك، ثم تعود إليه مرة أخرى وبين لنا هذا الأمر رسول الله ﷺ بقوله "أفضل المؤمنين إسلامًا من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله، وأفضل المهاجرين من جاهد نفسه وهواه في ذات الله"¹ ومعناه أن: أفضل المهاجرين ليس من ترك دار الحرب إلى دار الأمن، بل هو من هجر كل ما نهى الله عنه، "وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل"، أي: أعظم وأنفع الجهاد هو مجاهدة النفس والإقبال بها على الله عز وجل في عمل الصالحات والكف عن السيئات"².

وقد يظن الإنسان أن مشكلته كلها في الظروف والناس وضغوط الحياة، ثم يكتشف أن جزءًا كبيرًا من معركته كان مع نفسه؛ فالنفس قد تكون طريقًا إلى الخير إذا زكّاها، وقد تكون سببًا في التعثر إذا استسلمت لهواها، والله يقول سبحانه: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾³؛ فالنفس قد تدعو صاحبها إلى السوء إذا اتبع هواها، بينما هي محتاجة إلى رحمة الله وتوفيقه وتركيتها؛ وليست المشكلة في وجود الرغبات، وإنما في أن تتحول الرغبة إلى قائد، والهوى إلى حاكم. خلق الله الإنسان وأودع فيه حبه للراحة، والشهوة، والغضب، وحاجته إلى التقدير؛ وهذه مشاعر ودوافع فطرية، لكن الامتحان في كيفية ضبطها: هل تقودك أم تقودها أنت في حدود شرع الله؟ هل تملك غضبك، أم يملكك؟ هل تستخدم النعم المالية والتقنية المتنوعة بطاعة الله وبتوازن، أم تستخدمك؟ وتصبح غاية قلبك؟

١ صحيح الجامع (١١٢٩) وأخرجه محمد بن نصر المروزي في ((تعظيم قدر الصلاة)) (٦٣٩)، والطبراني (٥٩٦/١٣) (١٤٥١٢) باختلاف يسير.

٢ الموسوعة الحديثية | <https://dorar.net/hadith/sharh/92286>

٣ سورة يوسف: ٥٣

وهنا تبدأ تزكية النفس؛ فالفلاح ليس في أن تحقق النفس كل ما تشتهي، بل في أن تهذب رغباتها حتى تنقاد للحق، والقوة ليست أن تفعل كل ما تريد، وإنما أن تستطيع ترك ما يضرّك حين تميل نفسك إليه، وأن تقول للهوى: لا، وللطاعة حين تثقل عليك: نعم.

وغالبًا لا تبدأ المعركة عند لحظة السقوط، بل قبلها؛ تبدأ بفكرة، ثم نظرة، ثم فضول، ثم تبرير، ثم خطوة، ثم عادة، ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^١؛ ففي النهي عن الاقتراب تربية على اجتناب الطرق المؤدية إلى المعصية قبل الوقوع فيها.

وهذا المعنى أشد حضورًا في عصر الشاشات؛ فقد تأتي الفتنة إلى هاتفك بدل أن تبحث عنها، وتتحول دقيقة من التصفح إلى ساعة من التشتت، ثم مراسلات محرمة... الخ؛ لذلك لا تنتظر حتى تبدأ الفتنة لتبحث عن القوة؛ أغلق الباب قبل أن تحتاج إلى مقاومته.

ومن أعظم الأمثلة على غضّ البصر والثبات أمام الفتنة موقف يوسف عليه السلام، حين راودته امرأة العزيز وأغلقت الأبواب؛ فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾^٢، ثم فرّ إلى الباب، مستعينًا بالله وأخذًا بأسباب النجاة، وفي ذلك درس لنا أن غضّ البصر لا يكون بمجرد قوة الإرادة، بل بالاستعانة بالله والابتعاد عن أسباب الفتنة وما يضعف الإنسان؛ فالصبر على غضّ البصر أيسر من الندم وعواقب النظر المحرم.

وقد تتعب من تكرار المجاهدة، وتتوب ثم تضعف، وتحاول ثم تتعثر؛ فلا تجعل ذلك سببًا لليأس، يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُلَاحِظْ أَسْفَاكُ الْمَاءِ عَلَىٰ مَنْ ظَلَمَ وَلَا يَحْسَبْ بِطُغْيَانِهِمُ عَذَابَ اللَّهِ فَيُنَادُوا عَالِياً أَلِ اللَّهِ عِزٌّ وَكَرَمٌ فَلَا يَمْلِكُونَ﴾^٣؛ فالطريق ليس طريق من لا يخطئ، بل طريق من إذا أخطأ رجع.

 **وقف مع النفس:** ما المعركة التي تتكرر داخلك؟ أهى شهوة، أم غضب، أم تسويف، أم تعلق بالهاتف، أم حب للظهور، أم طلب مستمر لرضا الناس؟ لا تكتفِ بتسمية المشكلة، بل ابحث عن بدايتها، ثم ضع حاجزًا بينها وبينك: احذف ما

١ سورة الإسراء: ٣٢

٢ سورة يوسف: ٢٣

٣ سورة آل عمران: ١٣٥

يفتنك، وغيّر عاداتك، وابتعد عن البيئة التي تضعفك، واجعل لك نصيبًا ثابتًا من القرآن والصلاة والذكر.

وتذكر أن النفس ليست عدوًّا تُهمل، ولا سيدًا تُطاع، وإنما هي أمانة تحتاج إلى تربية وتهذيب؛ فقد يتحول الغضب إلى شجاعة في موضعها، وحب التميز إلى دافع للإتقان، وحب التقدير إلى دافع للخير؛ إذا هُذبت النفس واستقام مقصدها.

وكان النبي ﷺ يكثر من قول: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك. فالنجاة ليست أن تصبح نفسًا لا تخطئ، وإنما أن تصبح نفسًا إذا أخطأت رجعت، وإذا اشتتت الحرام قاومت، وإذا غفلت تذكرت، وإذا ضعفت استعانت بالله.

وهنا تبدأ النجاة الحقيقية: لا حين تتخلص من نفسك، بل حين تتعلم كيف تزكيتها حتى تكون عونًا لك على طاعة الله؛ فكلما عرفت ضعفك، ازددت افتقارًا إلى ربك، وكلما ازددت افتقارًا إليه، وجدت في الاستعانة به قوة على مجاهدة نفسك.

أهواء القلب التي لا يراها أحد

هناك أشياء يفعلها الإنسان ولا يراها أحد، وأشياء أدق منها قد لا يفعلها أصلاً، لكنها تتحرك في قلبه بصمت: رغبة في أن يُمدح، أو ضيق من نجاح غيره، أو تعلق بصورة معينة عن نفسه، أو حب للظهور، أو رغبة في أن يكون دائماً على صواب.

هذه المشاعر لا تأتي غالباً بصوت مرتفع؛ قد تدخل بهدوء، وتختبئ خلف أعذار تبدو مقنعة، حتى يعتادها القلب من غير أن ينتبه، وفي عصر أصبحت فيه المقارنة في متناول اليد، يكفي أن تفتح هاتفك لترى نجاحات الآخرين وأسفارهم وأجمل لحظاتهم؛ فتبدأ النفس بالسؤال: لماذا هم وأنا لا؟ لماذا يسبقونني؟ لماذا لا يلتفت الناس إليّ كما يلتفتون إليهم؟

وقد لا تتحول هذه المشاعر إلى كلمة أو موقف، لكنها قد تترك أثراً في القلب، وهنا يأتي السؤال الأهم: ماذا يحدث في داخلك حين لا يراك أحد؟

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^١؛ فهو سبحانه يعلم السر وأخفى، ولا يخفى عليه شيء من أمر عباده.

إن هذا لا يعني أن يعيش المؤمن مذعوراً من كل خاطر يمر بقلبه؛ فالخواطر ليست سواء، وقد يمر بالقلب خاطر مكروه فيدفعه صاحبه ولا يعمل به، وإنما الخطر حين يسترسل الإنسان مع الخاطر، ويرضى به، ويغذيه حتى يتحول إلى ميل مستقر، ثم إلى إرادة وسلوك.

قد يخطر في قلبك أن تغبط غيرك على نعمة؛ فتدعوله وتسأل الله من فضله؛ فتكون قد جاهدت نفسك، وقد تشعر بالغرور بعد نجاح؛ فتتذكر فضل الله عليك، وتعلم أن ما عندك من نعمة فمنه سبحانه؛ فتستعيد توازنك، وقد تحب أن يثني الناس عليك؛ فتراجع نيتك حتى لا يصبح ثنائهم هو غايتك.

ويقول الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤١) ، وليس نهى النفس عن الهوى إلغاء للمشاعر والرغبات، وإنما تهذيب لها حتى لا تتقدم على أمر الله، ويوضح هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ومعنى قول النبي ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» وهذا الحديث لا يعني أن المؤمن يخلو من الميل إلى خلاف الشرع، كلا، فالبشر مفطورون على الشهوات، والمجاهدة واجبة، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، ومعناه أن المرجعية العليا في حسم الصراع النفسي هي للوحي لا للهوى؛ بحيث إذا تعارض ما تهواه النفس مع ما يحبه الله، كانت الغلبة لله، فيصير هوى العبد تابعا لما جاء به النبي ﷺ، لا متبوعا، كلما قوي الإيمان في القلب، قويت محبة النبي ﷺ، فكانت تلك المحبة هي المحرك الأقوى للجوارح، حتى يصير الامتثال أشبه بالغريزة الثانية.

أثناء الحوارات والنقاشات المتباينة، وكردة الفعل قد يتناول عليك أحدهم ويشتمك ويشتم أشخاصا تحبهم، وقد ترغب في الرد؛ ولكنك تختار الصمت حين يكون الصمت خيرا؛ وقد ترغب في الانتقام؛ فتختار العفو إذا كان أصلاح؛ وقد تريد الظهور؛ فتختار الإخفاء حين يكون أبعد عن الرياء؛ وقد ترى نعمة عند غيرك؛ فتدعو له وتقول: «اللهم بارك له»، وتسال الله من فضله.

وهنا تصبح العبادة أعمق من أفعال تراها العين؛ إنها قرارات هادئة يتخذها القلب حين لا يراه أحد.

وقد اشتهر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»، وهي كلمة تلخص معنى عظيما: أن يقف الإنسان مع نفسه قبل أن تتراكم عليه الغفلة؛ فيسأل: لماذا فعلت؟ ماذا أردت؟ وماذا ترك هذا الأمر في قلبي؟ وهذه المحاسبة أحوج ما يكون إليها الإنسان اليوم؛ لا أن يسأل فقط: كم أنجزت؟ وكم شخصا شاهد ما نشرت؟ بل يسأل: هل زادني ما رأيت شكرا أم مقارنة؟ هل جعلني

نجاح غيري أفرح له وأدعو له، أم أورثني ضيقًا؟ هل جعلني مدح الناس أكثر إخلاصًا، أم أكثر تعلقًا بنظرهم؟

وأخطر أهواء القلب أنها قد تتخفى وراء عبارات جميلة؛ قد تقول: «أنا أنصحه»، وفي داخلك شيء من التشفي، أو «أنا أدافع عن الحق»، وفي نفسك ألم لأنك ظهرت مخطئًا، أو «أريد الخير»، بينما تريد أن يكون الفضل لك وحدك.

لذلك يحتاج القلب إلى الصدق؛ أن تسأل نفسك: هل أريد الحق ولو ظهر على يد غيري؟ هل أفرح بنجاح أخي؟ هل أستطيع الاعتراف بخطئي؟ وهل أعمل لله لأنه سبحانه أهلٌ للعبادة، أم لأحافظ على صورة أحبها عن نفسي؟ ويوضح هذه الناحية رسول الله ﷺ بالقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^١.

 **وقفت مع النفس:** اختر اليوم شعورًا يتكرر في قلبك: مقارنة، غيرة، غضب، حب للمدح، أو خوف من نظرة الناس، ثم لا تكتفِ بملاحظته؛ اتخذ خطوة لإصلاحه، خفف ما يوقظ المقارنة، واجعل لك عملًا خفيًا إن كنت تحب الشناء، وادع لمن تغبطه، وتذكر نعم الله عليك إذا شعرت بالغرور.

ثم قل بصدق: يا رب، أنت أعلم بما في قلبي؛ فأصلحه وزكّه، ولا تكلني إلى نفسي. إن القلب لا يتغير بمجرد أن يعرف عيوبه، وإنما حين تتحول المعرفة إلى مجاهدة، والمجاهدة إلى إصلاح، وأهواء القلب قد لا يراها أحد، لكن تهذيبها من أصدق صور العبودية؛ لأنك حين تصالح ما لا يراه الناس، تتعلم أن يكون الله سبحانه وتعالى هو المقصود في سريرتك كما هو المقصود في علانيتك.

١ صحيح ابن ماجه (٣٢٣٤) أخرجه ابن ماجه (٣٩٨٤) واللفظ له.

العبادة خارج دائرة الضوء

قد يفعل الإنسان الخير، ثم يكتشف أن قلبه كان ينتظر، مع رضا الله، شيئاً آخر: كلمة إعجاب، أو نظرة تقدير، أو التفاتة من الناس، وهنا تبدأ واحدة من أدق معارك القلب؛ لأن العمل قد يبدو صالحاً في ظاهره، بينما تحتاج النية في باطنها إلى مراجعة وإصلاح.

وليس كل من أحب الثناء مرائياً، ولا كل عمل ظهر للناس مذموماً؛ فقد يُظهر المسلم طاعته لمصلحة شرعية، أو ليقنّدي به غيره، أو لأن بعض العبادات يُشرع إظهارها، وإنما الخطر حين يصبح نظر الناس غاية العمل، أو يدخل طلب مدحهم في أصل القصد.

وفي زمن المنصات الرقمية أصبح هذا الباب أدق؛ فقد يصور الإنسان صدقته، أو يتحدث عن قيامه، أو ينشر عملاً صالحاً بحجة التشجيع، ثم يجد قلبه ينتظر التعليقات، ويفرح بالثناء، ويحزن إذا لم يلتفت إليه أحد.

وهنا اسأل نفسك بصدق: لو لم يعلم أحد بهذا العمل، هل كنت سأفعله؟ ورسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^١؛ فالعمل قد تتشابه صورته أمام الناس، لكن منزلته عند الله تختلف باختلاف القصد، وقد يعمل الإنسان لله، ثم يجد في نفسه فرحاً بثناء الناس؛ وليس مجرد هذا الفرح دليلاً على فساد العمل، وإنما العبرة بأصل القصد، وبما يختاره القلب حين ينتبه إلى نفسه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»^٢؛ فالسمعة والرياء خطرهما أن يتحول العمل من طلب ما عند الله إلى طلب منزلة في قلوب الناس. ولهذا من أجمل ما يربي القلب أن يكون له نصيب من العمل الخفي: ركعتان لا يعلم بهما أحد، وصدقة لا يعرفها الناس، ودعاء في جوف الليل، أو إحسان إلى إنسان لا ينتظر صاحبه عليه شكراً، هذه الأعمال تربي القلب على أن بينه وبين الله عبادة لا تحتاج إلى جمهور.

١ صحيح البخاري (١) وأخرجه أبو داود (٢٢٠١)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) (٤٦٥٠) واللفظ لهم.

٢ صحيح البخاري (٦٤٩٩)

ومع ذلك، لا تجعل الخفاء غاية في ذاته؛ فالمعتبر هو الإخلاص، مع مراعاة المصلحة الشرعية وأخطر ما في حب الظهور أن يصبح الإنسان حريصًا على حماية صورته أمام الناس أكثر من إصلاح حقيقته عند الله. يخاف أن يكتشف الناس نقصه، ولا يخاف أن يبقى قلبه محتاجًا إلى الإصلاح.

لذلك لا تسأل فقط: كيف يراني الناس؟ بل اسأل: كيف أريد أن أكون عند الله؟ اختر اليوم عملاً صالحًا لا يعرفه أحد، وجدد نيتك في عمل آخر يراه الناس، ثم راقب قلبك دون قسوة ولا وسواس؛ فإن وجدت فيه حبًا للثناء؛ فلا تيأس، بل صحح قصدك وأكمل الخير.

ليس أعظم الانتصار أن تختفي عن أعين الناس، وإنما ألا تصبح أعين الناس هي التي تحدد قيمة طاعتك، وحين يكون رضا الله هو المقصود، تصبح الطاعة أصدق، ويصبح ما بينك وبين الله أعمق من الصورة التي يراها الناس.



العبادة خارج دائرة الضوء

في زمن الفضاء الرقمي صار فيه كل شيء قابلاً للتصوير والنشر، تسلل منطق «الجمهور» إلى أعماقنا؛ فنشط حين نرى، وفترت هممتنا حين نختفي، لكن هناك عبادة لا منصة تعرضها، ولا تصفيق ينتظرها؛ عبادة خالصة بين العبد وربّه، يفعلها لأنه يرجو ما عند الله، لا لأنه ينتظر أعين الناس.



فالإخلاص ليس أن تختفي عن الناس دائماً، وإنما أن يكون قصدك لله، سواء رآك الناس أم لم يروك؛ فقد تكون الصلاة أو الصدقة أو الذكر علانية لمصلحة شرعية، وقد تكون سرّاً؛ والعبرة بما في القلب من قصد وباعث قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^١.

وهناك أعمال عظيمة لا يشعر بها أحد: أم تدعو لأبنائها في جوف الليل، وأب يكتّم تبعه، ورجل يغلق باب المعصية خوفاً من الله، ومتصدق يخفي صدقته، وفي عصر

التقنية، قد تكون من تزكية النفس أن تحتفظ بشيء بينك وبين الله لا تحوله إلى منشور: ركعتان لا تصورهما، ودعاء لا تنشره، وقرآن لا تعلن عنه، أو حتى إغلاق هاتفك حين يسرق وقتك؛ فالقلب يحتاج إلى مساحة لا يبحث فيها عن تقدير الناس.

وقصة أصحاب الغار خير مثال؛ فقد توسل كل واحد منهم إلى الله بعمل صالح عمله ابتغاء وجهه؛ فلما دعوا الله به انفرجت عنهم الصخرة شيئاً فشيئاً حتى خرجوا؛ فلم يكن خفاء العمل هو الفضيلة وحده، وإنما صدق القصد لله؛ فلا تحتقر عملاً صالحاً لأن أحداً لم يره.

الخطر الأعظم الذي يصيب القلب: أن ينشط الإنسان حين يُرى عمله، ويفتر حين يغيب عنه الناس، وقد حذر النبي ﷺ من الرياء والسمعة فقال: " وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ به " لذلك اسأل نفسك بصدق: لو لم يعلم أحد بهذا العمل، هل كنت سأفعله؟ ليس السؤال اتهامًا للنفس، بل وسيلة لمراجعة النية وتجديدها.

وفي الوقت نفسه، لا تجعل مراقبة النية وسواسًا يعطلك عن الطاعة؛ فقد يكون إظهار العمل مشروعًا للاقتداء أو التعليم، وقد يكون إخفاؤه أصلح للقلب، والعبرة بالمصلحة الشرعية وصدق القصد، لا بالظهور أو الخفاء في ذاته.

وقد تصلي ولا تبكي، وتتصدق دون شعور استثنائي؛ فلا تجعل غياب المشاعر دليلًا على أن عبادتك بلا قيمة، قد تكون أعظم طاعتك أن تثبت على الخير وأنت تجاهد نفسك، ولا تجعل العبادة الخفية بابًا للعجب؛ فتحقر من أظهر طاعته، وتقع في داء آخر.



اصنع لنفسك اليوم عملًا خفيًا: ركعتين، أو صدقة، أو ترك معصية في خلوة، ثم لا تبحث عن شكر الناس، وإن جاءك خاطر: «ليت أحدًا يعرف ما فعلت»؛ فجدد نيتك وقل: يا رب، أنت تعلم، وهذا يكفيني.

إذا مدحك الناس؛ فاحمد الله واسأله أن يجعلك خيرًا مما يظنون، وإن لم يلتفتوا إليك؛ فلا تتوقف؛ فتذكر أن قيمة عملك لا يحددها عدد من رآه، وإنما يقبله الله ويثيب عليه.

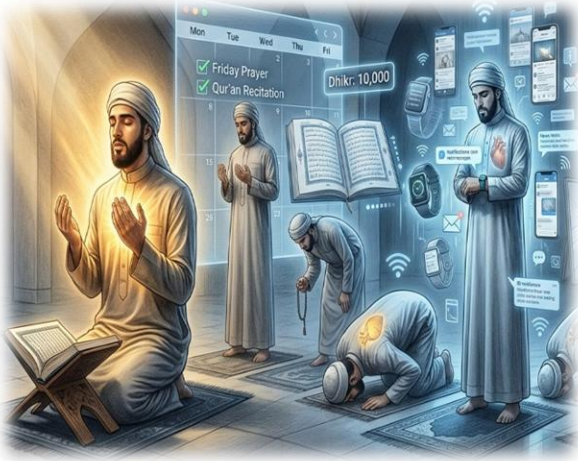
وحين يستقر هذا المعنى في القلب، تتحرر العبادة من حاجة الجمهور، ويصبح العبد أصدق في طاعته، وأهدأ في قلبه، وأشد تعلقًا برضا الله؛ لأن أعظم ما يرجوه ليس أن يمدحه له الناس، بل أن يرضى الله عنه.

قد لا يرى الناس سجودك، ولا يسمعون دعاءك، لكن الله يعلم سررك وعلاانيتك، ولا يضيع عنده عمل صالح بل يكفيك أن الله يعلم.

حين تصير الطاعة عادةً بلا روح

روي أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يحمر وجهه ويعتريه الاصفرار أو التغير الشديد عند الوضوء أو عند قيامه للصلاة، ف قيل له في ذلك فقال: «أَتَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ أَقِفُ؟»، وذلك استحضاراً لعظمة الله عز وجل وخشوعاً له^١.

أما في زماننا فكثير منا قد يبدأ طريقه إلى الله بقلبٍ حي؛ إذا سمع القرآن أنصت، وإذا دخل في الصلاة استحضر عظمة الوقوف بين يدي الله، وإذا رفع يديه بالدعاء أظهر فقره وحاجته، ثم تمضي الأيام، وتكرر العبادات؛ فيألف القلب ما كان يوقظه في البداية؛ فتصير الصلاة موعداً في الجدول، والقرآن صفحات تُنجز، والأذكار كلمات تتكرر، والاستغفار عادةً على اللسان.



ولا تكمن المشكلة في الاستمرار على الطاعة؛ فالاستمرار من أعظم أبواب الخير، وإنما في أن يستمر الجسد بينما يضعف حضور القلب؛ فلا يعود الإنسان يسأل نفسه: ماذا صنعت هذه العبادة في داخلي؟ وهل أصبحت أقرب إلى الله وأحسن خلقاً وأبعد عن المعصية؟

وهذا الصحابي الجليل عثمان بن أبي العاص الثقفي: يشكو حال صلاته للنبي ﷺ فقال "يا رسول الله إن الشيطان قد لبس عليّ صلاتي فقال ﷺ: ذاك شيطانٌ يقال له خنزبٌ، فإذا أحسستَ بذلك فأنفثْ عن يسارك ثلاثَ مراتٍ وتعوذ بالله من الشيطانِ ثلاثاً قال عثمانُ: ففعلتُ ذلك فأذهبَ الله عني ما أجدُ"^٢

أما في عصرنا الرقمي فيزداد التحدي؛ اتصالات متلاحقة وتنبيهات لا تنتهي، ومحتوى متدفق، ورسائل متلاحقة، وانتقال سريع من صورة إلى أخرى، حتى قد يدخل هذا الإيقاع في عبادتنا؛ نصلي وعقولنا مشغولة، ونقرأ القرآن ونحن نفكر فيما سنفعله بعد دقائق، ونذكر الله ولساننا يتحرك بينما الفكر في شأن آخر.

١ <https://www.masrawy.com/islamayat/fatawa-3badat/details>

٢ أخرجه مسلم (٢٢٠٣)، وأحمد (١٧٨٩٧)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٨٠) باختلاف يسير .

ثم نسأل: لماذا لا أشعر بأثر العبادة؟ ربما لأننا اعتدنا أداءها، ولم نتعلم دائماً كيف نحضر فيها.

بين صحة العبادة وحياة القلب

ليس المقصود أن كل عبادة لا يصاحبها شعور قوي تكون بلا قيمة؛ فقد يطيع المؤمن ربه وهو لا يجد لذة ظاهرة، وقد يكون في ثباته ومجاهدته لنفسه خير عظيم، كما أن حضور القلب درجات، والقلوب تتقلب بين الإقبال والفتور.

لكن المطلوب ألا يتحول الإنسان إلى مجرد مؤدٍ للعبادات، لا يتأمل معانيها ولا يسعى إلى أن يظهر أثرها في حياته، ويقول الله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾^١؛ فالخشوع يتضمن حضور القلب وتعظيم الله والسكون له، ويظهر أثره في سلوك العبد، وليس مجرد دمعة أو إحساس عابر.

وقد يكون الإنسان كثير العبادة، لكنه يحتاج إلى أن يسأل نفسه: هل جعلتني صلاتي أضبط لساني؟ هل جعلني القرآن ألين مع أهلي؟ هل جعلني الذكر أسرع إلى التوبة حين أخطئ؟ فهذه الآثار العملية من العلامات التي ينبغي أن نتأملها، دون أن نحكم على أنفسنا من خلال مشاعر لحظية.

حين تصبح الصلاة شيئاً نريد الانتهاء منه

قد يدخل الإنسان الصلاة وهو ينتظر نهايتها. يقرأ الفاتحة وقلبه يستعرض مهام اليوم، ويركع بجسده بينما ذهنه في عمل الغد، ويسجد وقلبه مشغول، وليس المطلوب أن تخلو الصلاة دائماً من الخواطر؛ فهذا مما يعرض للإنسان، وإنما المطلوب ألا يستسلم لها، بل يجاهد في إعادة قلبه إلى معنى الصلاة كلما شرد.

حين تقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، استحضر معنى الحمد وعظمة رب العالمين، وحين تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، تذكر عبوديتك وحاجتك إلى عون الله، وإذا سجدت فأكثر من الدعاء، مستشعراً ذل العبودية لله وحاجتك إليه.

فالصلاة ليست مجرد دقائق نؤديها ثم نعود إلى حياتنا، بل هي وقفة متكررة يعيد فيها العبد ترتيب قلبه، ويتذكر من هو، ولمن يعيش، وإلى أين يمضي.

القرآن الذي نقرؤه ولا يغيرنا

نقرأ كثيراً في كتاب الله، لكننا لا نتوقف طويلاً عند ما نقرأ، نقرأ عن الصبر، ثم نضيق سريعاً، ونقرأ عن العفو، ثم نحمل الخصومات في قلوبنا، ونقرأ عن حقيقة الدنيا، ثم نعيش وكأنها غايتنا.

وليست المشكلة في كثرة القراءة، وإنما في غياب التدبر والعمل، يقول الله سبحانه داعياً لنا لتدبره بقوله عز وجل: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^١.

فقد تقرأ آية واحدة بوعي، وتقف عند معناها، وتتأمل ما تدعوك إليه، حتى تغيّر فيك خُلُقاً أو قراراً؛ فتكون عظمة الأثر في حياتك.

لذلك، لا تجعل همّك دائماً أن تنتهي من السورة، بل اجعل من أسئلتك أحياناً: ما الذي تعلّمني إياه هذه الآية؟

وما الخُلُق الذي تدعوني إليه؟

وما الشيء الذي ينبغي أن أراجعه في حياتي بسببها؟

فالقرآن ليس كتاباً نقرأه لنتهي منه، وإنما كتابٌ نقرأه لنبداً أثره فينا.

كيف تستعيد روح الطاعة؟

لا تحتاج دائماً إلى تغيير عباداتك، بل قد تحتاج إلى تغيير طريقة حضورك فيها، قبل الصلاة بدقائق، أغلق الهاتف، وخفف ضجيج الدنيا، واستحضر عظمة الوقوف بين يدي الله، وفي القرآن، لا تجعل غايتك دائماً عدد الصفحات؛ اختر أحياناً آية تتدبرها وتساءل: ماذا تريد هذه الآية أن تغير فيني؟

وفي الذكر، لا تجعل السرعة غايتك؛ حين تقول: «سبحان الله»، استحضر تنزيه الله، وحين تقول: «الحمد لله»، تذكر نعمه، وحين تقول: «أستغفر الله»، استحضر تقصيرك وحاجتك إلى مغفرته.

لا تنتظر دائماً الشعور؛ لا تجعل البحث عن اللذة الروحية شرطاً لاستمرارك؛ فقد تصلي ولا تبكي، وتقرأ القرآن وأنت متعب، وتدعو الله وقلبك مثقل، ومع ذلك تكون صادقاً في طاعتك؛ فعن أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق الطاهرة المبرأة

قالت قال رسول الله ﷺ: **سَدُّوا وَقَارِيُوَا، وَعَلِّمُوا أَنْ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَذْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ^١.**

ونستشف من هذا النص النبوي أنه ليس المطلوب أن تعيش دائماً في ذروة وجدانية، وإنما أن تثبت على الطريق، وتجاهد قلبك، وتسعى إلى تحسين حضورك، وقد يكون من صدقك مع الله أن تواصل الطاعة في الأيام التي لا تجد فيها الشعور الذي اعتدته. **وقفة عملية:** اختر عبادة واحدة تعتني بحضورك فيها: صلاة تترك إليها وتترك أشغالك الدنيوية واترك الهاتف ومراسلاته، أتل دقائق مع القرآن ببطء وتدبر، أو ذكراً تردده بوحي؛ ثم اسأل نفسك: هل خرجت منها كما دخلت؟ هل زاد تعظيم الله في قلبي؟ هل أثرت في خلقي أو قراري أو مقاومتي للمعصية؟ وإذا لم تر الأثر سريعاً؛ فلا تيأس؛ فبعض آثار العبادة تنمو في القلب ببطء، وقد لا تلاحظها في يوم أو أسبوع، لكنها تظهر مع دوام الصدق والمجاهدة.

فليست المشكلة أن تؤدي على الصلاة في أوقاتها، بل إن هذا السلوك دليل على كمال الإسلام، وإنما أن تعتادها كروتين يومي بلا ثمرة عملية في السلوك والأخلاق حتى تنسى عظمة ما أنت فيه، وليست المشكلة أن تكثر من القرآن، وإنما أن يمر على لسانك ولا تسمح لمعانيه أن تبلغ حياتك.

كلما تكررت الطاعة؛ فليكن قلبك معها في ازدياد معرفة بالله، وافتقار إليه، واستقامة على أمره.

وحين يأتي وقت الصلاة، **ذكر نفسك:** لقد حان وقت أن أترك ضجيج الدنيا، وأقبل على ربي بقلبي.

عندها لن تعود العبادة شيئاً تريد أن تنتهي منه، بل تصبح باباً يتجدد به إيمانك كل يوم.

١ أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨)

أن تكون صادقاً مع الله

أحياناً لا تكون المشكلة في أننا لا نعرف الحق، بل في أننا نعرفه ثم نؤجل الاستجابة له؛ نعرف ما ينبغي أن نتركه، ثم نبحت عن مبرر للبقاء فيه، ونعرف ما ينبغي أن نفعله، ثم ننتظر وقتاً أفضل قد لا يأتي، وبين المعرفة والعمل مسافة تكشف مقدار صدق الإنسان مع نفسه وربه.

قد يتحدث الإنسان عن التوبة، لكنه يؤخرها، ويتحدث عن التوكل، ثم يطمئن إلى الأسباب حتى يغفل عن مسببها، ويتحدث عن الإخلاص، ثم يتألم إذا لم يره أحد، وليس الصدق مع الله أن تدّعي أنك لا تضعف، وإنما أن تعترف بضعفك، ولا تتخذ عذراً للإقامة في الخطأ، بل تستعين بالله على إصلاحه.

الصدق ليس صدق اللسان وحده، بل يشمل صدق النية، والتوبة، وصدق العزم على الإصلاح؛ قد يقول الإنسان: «أريد أن أغير»، ثم لا يغيّر شيئاً من الأسباب التي تعيده إلى ما يكره، وقد يقول: «أريد رضا الله»، ثم يختار هواه كلما تعارض مع ما يرضي الله. وهنا يحتاج القلب إلى سؤال صريح: هل أريد الله حقاً، أم أريد أن أقول إنني أريده دون أن أغيّر ما يحتاج إلى تغيير؟

وفي عصرنا قد تتسع المسافة بين المعرفة والعمل بسبب عالم رقمي يستهلك الانتباه؛ ساعات من التصفح، وإشعارات متتابعة، وانتقال مستمر من رغبة إلى أخرى، ثم نأتي إلى الصلاة والقرآن بما بقي من التركيز، والصدق أن نعتز بهذا الخلل، لا أن نجعل التقنية عدواً في ذاتها، بل أن نضعها في موضعها: وسيلة نستخدمها، لا شيئاً يستولي على أوقاتنا وقلوبنا ويصرفنا عن الفرائض والحقوق وما ينفعنا.

كعب بن مالك والصدق الذي كلف ثمنه

ومن أبلغ نماذج الصدق قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك من غير عذر؛ فلما رجع رسول الله ﷺ، كان يستطيع أن يعتذر بعذر يخرج منه الموقف، لكنه اختار الصدق، مع علمه بما قد يترتب عليه؛ فكانت مشقة البلاء شديدة؛ هُجر هو وصاحبه، وضائق عليهم الأرض بما رحبت، ومضت خمسون ليلة ثقيلة، حتى أنزل الله توبتهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^١.

تأمل قوله سبحانه: ﴿وَزَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾^٢؛ فحين يصدق العبد في توبته، لا يهرب من مواجهة خطئه، بل يلجأ إلى الله، ويطلب عفوه، ويأخذ بأسباب الإصلاح. يغفر الله ذنبه، ويبدل سيئاته حسنات، ويعينه على إصلاح نفسه والثبات على الخير. والصدق لا يعني أن تصل إلى حال لا تخطئ فيها؛ فالعبد يضعف ويزل، لكنه لا يحول الزلة إلى هوية، ولا المعصية إلى قدر محتوم، ولا التقصير إلى عذر دائم؛ الصدق أن تسقط ثم تعود، وتضعف ثم تستعين، وتقصر ثم تستغفر، وتعرف موضع الخل ثم تبدأ إصلاحه.

١ سورة التوبة: ١١٨

٢ سورة التوبة: ١١٨

اللَّهُ أَعْلَمُ بِكَ مِنْكَ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١

قد يظن الإنسان أنه يعرف نفسه جيداً. يعرف ما يحب، وما يكره، وما يرجو أن يصير إليه، ويضع تفسيراً لكل موقف يمر به، لكنه حين يواجه نفسه بصدق، يكتشف أن في داخله أشياء لم يكن يراها: نية تختلط بنية، وخوفاً يتخفى في صورة حكمة، وحباً للنفس يتوارى خلف طلب النجاح، وحاجةً إلى مدح الناس يسميها أحياناً تقديرًا. نحن نعرف شيئاً عن أنفسنا، أما الله سبحانه فيعلمنا علمًا محيطًا، ويعلم ظاهرينا وباطننا، وما تخفيه صدورنا، وما توسوس به نفوسنا. يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^٢.

فالله سبحانه خالق النفس، وأعلم بما يصلحها وما يفسدها، وقد تريد شيئاً بشدة ثم لا تناله، وتتعلق بباب فيُغلق، وتسعى إلى أمر تظنه خيرًا لك ثم لا يتيسر؛ فتسأل: لماذا لم أحصل على ما أريد؟ وربما كان السؤال الأعمق: هل كل ما أريده أعرف حقًا أنه خير لي؟ بينما يخبرنا الله بأنه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^٣، وهذه الآية تضع القلب أمام حقيقة عظيمة: علم الله أكمل من علمنا، والإنسان لا يحيط بعواقب الأمور؛ فقد يرى جانبًا من الأمر ولا يرى ما وراءه.

ومن هنا يظهر معنى التوكل: أن تدعو الله، وتأخذ بالأسباب، وتستخير وتستشير فيما يحتاج إلى ذلك، ثم تفوض ما خرج عن قدرتك إلى الله، وتحسن الظن به فيما يقدره ويقضيه؛ فالتوكل ليس ترك السعي، كما أن الأخذ بالأسباب ليس اعتمادًا عليها؛ بل يعمل القلب والجوارح معًا: سعيًا بالأسباب، واعتمادًا على الله.

وفي زمن التكنولوجيا الرقمية تمنحنا فيه التقنية شعورًا متزايدًا بالسيطرة، قد يظن الإنسان أنه قادر على الوصول إلى كل ما يريد، لكنه لا يملك الأقدار، ولا يعلم الغيب،

١ سورة البقرة: ٢١٦

٢ سورة ق: ١٦

٣ سورة البقرة: ٢١٦

ولا يحيط بعواقب اختياراته، ولا يملك قلوب الناس، وهنا يتعلم القلب أن يقول: يا رب، أنت أعلم بي مني، وأرحم بي من نفسي.

ومن أبلغ ما يبين محدودية علم الإنسان قصة موسى عليه السلام مع الخضر؛ فقد رأى أفعالاً لم يفهم حكمتها في بدايتها، ثم بين الخضر له بعض ما خفي عنه، قال سبحانه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^١، والقصة لا تعني أن نفس كل ما يقع لنا بحكمة نجهلها، ولا أن نزع معرفة مراد الله في كل حادثة؛ وإنما تذكرنا بأن علم الإنسان محدود، وأن الله سبحانه أحكم وأعلم.

ومع ذلك؛ فالإيمان بأن الله أعلم بنا لا يعني أن نتوقف عن السعي؛ ندعو، ونخطط، ونسعى، ونأخذ بالأسباب، ثم نسلّم ما خرج عن قدرتنا لله، ولا نجزم بحكمة كل ما يقع لنا، بل نحسن الظن بربنا، ونثق بحكمته ورحمته.

من المعرفة إلى التغيير

قد يعرف الإنسان كثيراً عن نفسه. يعرف مواضع ضعفه، ويقرأ في التزكية، ويسمع المواعظ، ويحفظ الآيات والأحاديث التي تتحدث عن إصلاح القلب، ثم يظل كما هو، يعرف أن الغضب يفسد علاقاته، ثم يغضب بالطريقة نفسها، ويعرف أن الهاتف يسرق وقته، ثم يعود إليه كلما شعر بالفراغ، ويعرف أن بعض العادات تضعف قلبه، ثم يكررها.

وهنا تظهر مسألة دقيقة: ليست كل معرفة تغييراً، ولا كل تأثير بدايةً حقيقية للإصلاح؛ فقد تدمع العين عند سماع موعظة، ثم يعود الإنسان إلى عاداته القديمة؛ لأن التأثير حرك المشاعر، لكنه لم يتحول إلى قرار وعمل.

ويقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^١؛ ففي الآيتين تحذير من انفصال القول عن العمل، وتربية للمؤمن على أن يصدق فعله ما يقوله من الخير.

الطريق إلى الله ليس طريق المعلومات وحدها؛ إنه طريق العلم والعمل، قد تعرف فضل قيام الليل، لكن أثره في قلبك لا يظهر حتى تقوم، وتعرف فضل الصدقة، لكن معنى البذل لا يظهر حتى تعطي، وتعرف خطر الغيبة، لكن مجاهدة اللسان تظهر حين تستطيع أن تتكلم عن غائب ثم تختار الصمت لله.

اسأل نفسك بعد كل معرفة نافعة: ما الذي سيتغير في حياتي بسبب ما تعلمت؟ في عصرنا تصل المعلومة في ثوانٍ؛ قد تستمع إلى درس عن التوبة، ثم تشاهد مقطعاً عن الصبر، ثم تقرأ عن قيام الليل، ثم تنتقل إلى حديث عن تزكية النفس، حتى تمتلئ الذاكرة بالمواعظ، بينما لا يتغير في جدول اليوم شيء، وليس المطلوب أن تتوقف عن التعلم، وإنما أن تجعل كل معرفة نافعة بدايةً لعمل.

إذا تعلمت عن حفظ اللسان؛ فاترك اليوم كلمة كنت ستقولها في غياب أخيك، وإذا قرأت عن بر الوالدين؛ فاتصل بوالديك وأحسن إليهما، وإذا تأثرت بحديث عن

الصلاة؛ فأعطِ الصلاة القادمة من حضورك وعنايتك ما لم تكن تعطيها، وإذا علمت أن ذنبًا يؤدي قلبك؛ فلا تكتفِ بالندم؛ اقطع أسبابه، واستغفر الله، وابدأ من جديد.

وقد رُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن، والمعنى الذي يعكسه هذا الأثر أن العلم النافع لا يقف عند الحفظ، بل يقود إلى الفهم والعمل.

وهذا هو الفرق بين أن تعرف الطريق وأن تمشي فيه: أن تعرف الصبر ثم تصبر حين يتأخر ما تريد، وأن تعرف العفو ثم تعفو حين تقدر على الانتقام، وأن تعرف التوكل ثم تبذل السبب وتفوض النتيجة إلى الله، وأن تعرف فناء الدنيا ثم لا تبيع آخرتك من أجل مكسب زائل.

والتغيير لا يعني أن تنقلب حياتك كلها في يوم واحد؛ إنما يبدأ بخطوات صادقة: عادة تتركها، وأخرى تبدأها، وحق ترده، واعتذار تقدمه، وصلاة تحسنها، ووقت تسترده، وقلب تجاهد فيه شهوة أو غضبًا أو تعلقًا.

فالتغيير يبدأ من الداخل، ثم يظهر أثره في الاختيارات والأعمال قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^١.

لا تسأل نفسك فقط: ماذا تعلمت اليوم؟ بل اسأل السؤال الأصدق: ماذا غير الله في بسبب ما تعلمت؟

الخلاصة: المعرفة تفتح لك الباب للتمييز بين الخير والشر، لكن العمل هو الذي يأخذ بيدك لتعيش كأنك في الجنة؛ جنة تقوى الله وخشيته؛ تلك الجنة التي من لم يدخلها في الدنيا يخشى عليه ألا يدخل جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

معارك القلب الخفية



معارك القلب الخفية

هناك معارك لا يسمع الناس أصواتها، ولا يرون آثارها في كثير من الأحيان، لكنها قد تكون من أعنف المعارك التي يخوضها الإنسان في حياته؛ إنها المعارك التي تدور في القلب.

فقد يعيش الإنسان هادئاً في ظاهره، بينما تدور في داخله معارك مع الحسد، والكبر، وحب الظهور، والخوف من الناس، والمقارنة، والقسوة، والندم، واليأس؛ وقد ينتصر الإنسان في أعين الناس، بينما يخسر شيئاً من قلبه لا يشعر به أحد.

ومن ثنايا هذه المعارك وجراحها وآلامها سنقترب من تلك المشاعر الخفية التي قد تسرق من القلب صفاءه، ومن العبادة لذتها، ومن الحياة طمأنينتها؛ وستحدث عن ذلك الصوت الداخلي الذي يدفع الإنسان إلى مقارنة نفسه بالآخرين، ويجعله أسيراً لنظراتهم وأحكامهم. وسنتأمل معنى التحرر من طلب رضا الناس، لا بمعنى ترك حسن الخلق أو عدم الاهتمام بحقوق الآخرين، وإنما بمعنى ألا يجعل المسلم رضا الخلق غايته التي يقدمها على رضا الله.

وسنتوقف عند الألم الذي يتركه الماضي حين يتحول من درس إلى سجن؛ وسنتحدث عن العفو، وكيف يستطيع المسلم أن يحرر قلبه من الحقد وآثار الإساءة، من غير أن ينكر الظلم أو يتنازل عن حق مشروع.

سنأمل تبدل الأحوال التي تضغط على النفس البشرية المسلمة من الفتور، والضعف، والشعور بعدم الكفاية، والوهم الذي قد يجعل الإنسان المسلم يظن أنه لا قيمة له بسبب عثراته؛ وسنتعلم أن رحمة الله ليست مكافأة للكاملين، وإنما فضل منه سبحانه على عباده، وأن باب الإصلاح مفتوح لمن صدق في الرجوع إليه.

تزكية القلب لا تعني أن يخلو القلب من المشاعر البشرية، وإنما أن يتعلم صاحبه كيف يضبطها بالشرع والعقل والإيمان؛ فيغضب دون ظلم، ويحزن دون اعتراض على الله، ويحب دون تعلق يفسد قلبه، ويعفو دون أن يضيع الحقوق. المعركة الحقيقية ليست دائماً مع العالم من حولنا؛ أحياناً تكون مع شيء يسكن في داخلنا، ولا ننتصر عليه بمجرد القوة، وإنما بالاستعانة بالله، وصدق المجاهدة، وطول الطريق.

حين يتسلل الغرور إلى القلب

لا يأتي الغرور إلى القلب دائماً في صورة واضحة؛ فقد لا يقول الإنسان: «أنا أفضل من غيري»، لكنه قد يشعر في داخله أنه أحق بالثناء، وأقرب إلى الصواب، وأجدر بالنجاح، ثم تتحول النعمة شيئاً فشيئاً من بابٍ لشكر الله إلى وسيلةٍ لتضخيم صورته عن نفسه. وفي عصر تُعرض فيه الإنجازات والمظاهر كل يوم، أصبح القلب أكثر تعرضاً لهذا الداء؛ فقد يدخل الغرور من باب المال، أو العلم، أو النجاح، أو العبادة، أو المكانة، بل قد يدخل من باب شعور الإنسان بأنه أكثر تواضعاً من الآخرين.

وهنا يقول الله سبحانه: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾^١ فلا يملك الإنسان أن يمنح نفسه شهادة التقوى، ولا أن يطمئن تماماً إلى صورته عن نفسه؛ فقد يعمل كثيراً ولا يعلم كيف قبل عمله، وقد يمدحه الناس وهم لا يعرفون خفايا نفسه، وقد يرى نقص غيره ولا يعلم ما بين ذلك الإنسان وبين ربه من صدق وخير.

ولهذا حذر النبي ﷺ من الكبر؛ فقال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر؛ فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؛ فقال رسول الله ﷺ: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس^٢؛ فليس الكبر أن يحب الإنسان النظافة والجمال، أو يفرح بنجاحه، وإنما الخطر أن يرد الحق إذا خالف هواه، أو يحتقر الناس ويستصغرهم.

وقد يتسلل العجب والغرور في صور أكثر خفاءً: أن تصعب عليك النصيحة لأنك لا تحتمل أن تكون مخطئاً، أو أن تشغل بعيوب من ينصحك بدل النظر في كلامه، أو أن يؤلمك نجاح غيرك لأنك تقارنه بمكانتك، أو أن تشعر أن علمك أو عبادتك تجعلك أفضل من الناس.

١ سورة النجم: ٣٢؛

٢ غاية المرام (١١٤) أخرجه مسلم (٩١) مطولاً.

قصة قارون تكشف كيف يمكن للنعمة أن تتحول إلى باب للغرور؛ فلما ذُكر بما آتاه الله قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^١؛ فنسب ما عنده إلى نفسه، وغاب عنه أن النعمة فضل من الله وابتلاء.

وهنا يتعلم القلب: ليست المشكلة فيما تملك، وإنما في نظرتك إلى ما تملك؛ فالعلم نعمة، والمال نعمة، والنجاح نعمة، والقدرة على الطاعة نعمة؛ وكلها تحتاج إلى شكر الله، لا إلى العجب بالنفس، يقول سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نُّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾^٢. ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك^٣؛ فحتى الطاعة نفسها تحتاج إلى توفيق الله وإعانتة.

فإذا رأيت من نفسك خيراً؛ فاحمد الله بدل أن تعجب بنفسك، وإذا رأيت من غيرك نقصاً؛ فلا تحتقره؛ فقد يكون عنده من الخير ما لا تعرفه، وقد يكون لك من العيوب ما لا تراه.

وقضت مع النفس

اسأل نفسك بصدق: هل يصعب عليّ أن أقول: «أخطأت»؟ هل أغضب من النقد؟ هل يضايقني نجاح غيري؟ هل أشعر أحياناً أن علمي أو عبادتي تجعلني أفضل من الناس؟ اجعل لك عملاً خفياً يذكرك بفقرك إلى الله، ودرّب نفسك على قبول الحق، والاعتذار عند الخطأ، والفرح بخير الآخرين، وحين يستقر هذا المعنى في القلب، يصبح النجاح سبباً للحمد، والعلم باباً للنفع، والتفوق وسيلة للإحسان؛ ويبدأ القلب في الانتصار على واحدة من أخفى المعارك وهي أن ترى فضل الله عليك، دون أن ترى نفسك فوق عباد الله.

١ سورة القصص: ٧٨

٢ سورة النحل: ٥٣

٣ أخرجه البزار (٢٠٧٥)، وأبو نعيم في ((تاريخ أصبهان)) (٢١١/٢).

كيف يولد الحسد؟

الحسد لا يولد في القلب دفعةً واحدة؛ قد يبدأ بشعور صغير لا ينتبه إليه الإنسان، يرى نعمة عند غيره؛ فيتمنى أن يكون له مثلها، وهذا في نفسه ليس حسداً، بل قد يكون غبطةً مشروعة إذا تمنى الخير لنفسه من غير أن يتمنى زواله عن غيره، لكن الخطر يبدأ حين تضيق النفس بنعمة أخيها، وتتمنى زوالها عنه، لا لحاجةٍ إليها، وإنما لأنها لا تحتمل أن تراها عنده.

الأمريبدأ بالمقارنة: عندما تنظر إلى نجاح شخص، ثم إلى حياتك؛ فتشعر أنك متأخر، ترى بيتاً أجمل، أو عملاً أفضل، أو زواجاً، أو مالاً، أو علماً، أو قبولاً بين الناس؛ فتبدأ النفس بالسؤال: لماذا هو؟ ولماذا ليس أنا؟ ومع تكرار هذه المقارنات، قد يتحول ما كان مجرد شعور عابر إلى ضيق مستقر في القلب.

وفي عصر المنصات الرقمية، أصبح باب المقارنة أوسع من أي وقت مضى؛ ترى صور السفر، والنجاحات، والإنجازات، والمناسبات السعيدة، وكأن الآخرين يعيشون حياة مكتملة لا نقص فيها، ثم تنظر إلى حياتك بما فيها من تعب وتأخر ومشكلات؛ فتقارن كواليس حياتك بصور الآخرين المنتقاة.

اعلم النعمة التي عند غيرك هي من فضل الله، ورزق غيرك ليس إعلاناً عن نقص رزقك، ونجاحه ليس دليلاً على فشلك، وفتح باب له لا يعني أن أبواب الخير قد أغلقت في وجهك؛ فخزائن الله واسعة، وعطاؤه لا تحكمه منافسة البشر.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن أسباب العداوة التي تنشأ من أمراض القلوب؛ فقال: رسول الله ﷺ لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً^١.

والحسد لا يؤذي المحسود وحده؛ بل يبدأ بإيذاء صاحبه قبل غيره؛ فالحاسد قد يرى نجاح أخيه فيشعر بالاختناق، ويسمع مدحه فيضيق، ويرى فرحه فيتمنى أن ينقطع، وقد يصل به الأمر إلى الانتقاص منه، أو البحث عن عيوبه، أو التشفي إذا تعثر، وهنا تصبح حياة الآخرين سجنًا لقلبه؛ لأن راحته أصبحت مرتبطة بانخفاضهم، وفرحه مرتبطاً بتقدمهم أو تأخرهم.

١ أخرجه البخاري (٦٠٦٥)، ومسلم (٢٥٥٩).

ولنتأمل قصة إخوة يوسف عليه السلام؛ بسبب الحسد يصف الله الحسد والحق الذي ملء قلوبهم بقوله عز وجل: ﴿لِيُؤْسِفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾^١.

بدأ الأمر بشعور بالمقارنة والغيرة، ثم تحول إلى اعتراض، ثم إلى قرار، ثم إلى فعل عظيم الأثر، وهكذا قد تبدأ أمراض القلب صغيرة، لكن تركها بلا مجاهدة يسمح لها بالنمو حتى تتحول إلى سلوك.

لذلك لا تنتظر حتى يتحول الحسد إلى أذى؛ عالجه وهو في بدايته.

إذا رأيت نعمة عند أخيك؛ فقل: اللهم بارك له، وارزقني من فضلك.

وإذا رأيت نجاحه؛ فذكر نفسك: نجاحه ليس إعلاناً لفشلي.

وإذا أثنى الناس عليه؛ فقل في قلبك: اللهم زده، وارزقني من فضلك، وأصلح قلبي.

وقد قال رسول الله ﷺ " لا حسد إلا في اثنتين: فذكر رجلاً آتاه الله مالاً فسلطه على

هلكته في الحق، ورجلاً آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها"^٢ والمقصود هنا

الغبطة، أي أن تتمنى مثل الخير الذي عند غيرك، من غير أن تتمنى زواله عنه.

وهنا اسأل نفسك سؤالاً صريحاً: هل أريد هذه النعمة لنفسي، أم أريد فقط ألا تكون

عنده؟

الفرق بين الأمرين يكشف شيئاً مهماً في القلب؛ قد تتمنى العلم لأنك تريد أن تنفع

الناس، أو المال لأنك تريد أن تستغني عن سؤال الناس وتنفق في الخير، أو النجاح

لأنك تريد أن تحقق نفعاً حقيقياً، هذه رغبات يمكن أن تكون محمودة إذا صلحت

النية؛ أما أن يكون همك أن يفقد الآخر ما عنده؛ فهذه معركة تحتاج إلى وقفة صادقة

مع النفس.؛ ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ وَاسْأَلُوا

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^٣.

أجمل توجيه: بدل أن تشغل بما في يد غيرك، اسأل الله من فضله؛ فالناس متفاوتون

في الأرزاق والمواهب والقدرات؛ أحدهم يُفتح له في العلم، وآخر في التجارة، وآخر في

١ سورة يوسف: ٨-٩ .

٢ أخرجه مسلم (٨١٦) .

٣ النساء: ٣٢ .

خدمة الناس، وآخر في الصبر، وآخر في تربية أبنائه، وآخر في باب من أبواب الخير لا يراه الناس أصلاً، ولا يلزم أن تكون نسختك من نجاح غيرك.

قد يكون من أعظم أسباب الحسد أنك لا تعرف نعمك؛ تنظر طويلاً إلى ما عند الآخرين حتى تنسى ما عندك، صحتك، وأهلك، وعافيتك، وإيمانك، ووقتك، وقدرتك على التعلم والعمل، وكل نعمة اعتدت وجودها حتى لم تعد تراها نعمة.

 **وقفتة مع النفس:** تذكر شخصاً تشعر بشيء من الضيق تجاه نجاحه، ثم اسأل نفسك بصدق: هل أستطيع أن أقول: اللهم بارك له دون أن أشعر أنني خسرت شيئاً؟ وهل أستطيع أن أفرح بخيره، ثم أعود إلى حياتي وأسعى في إصلاحها؟ وإذا وجدت في قلبك شيئاً من الحسد؛ فلا تيأس ولا تنكر؛ اعترف به، وجاهد نفسك، وادع لمن حسدته، واشكر الله على ما عندك، ثم انشغل ببناء حياتك بدل مراقبة حياة غيرك.

ومع الوقت ستتعلم أن نجاح الآخرين لا يلغي نجاحك، وأن تأخر نصيبك لا يعني حرمانك، وأن فضل الله أوسع من كل مقارنة.

فبدل أن يسأل القلب: لماذا أعطاه الله ولم يعطني؟ يتعلم أن يسأل: يا رب، ماذا تريد مني أن أفعل بما أعطيتني؟ وهنا يخرج القلب من سجن المقارنة، ويعود إلى عبوديته؛ شاكرًا لنعم الله، راجيًا فضله، داعيًا للناس بالخير، وساعيًا فيما يستطيع؛ فراحة القلب ليست في أن تزول نعم الآخرين، وإنما في أن يرضى العبد بربه، ويثق بقسمته، ويسأل الله من فضله.

اللهم طهر قلوبنا من الحسد، وارزقنا سلامة الصدر، وبارك لنا فيما أعطيتنا، وارزقنا من فضلك، واجعلنا نفرح بالخير حيث كان، ولا تجعل نعمك على غيرنا سبباً لضيق قلوبنا، بل اجعلها تذكيراً بسعة فضلك ورحمتك.

حين يسرقك رضا الناس

قد يبدأ الأمر برغبة طبيعية في أن يحبك الناس، وأن تكون حسن السيرة، طيب الذكر، محبوباً بينهم، وهذا في أصله ليس مذموماً؛ فالإسلام يدعو إلى حسن الخلق، والإحسان إلى الناس، ومراعاة مشاعرهم؛ لكن المشكلة تبدأ حين يتحول رضا الناس من رغبة طبيعية إلى غاية، ثم إلى سجن؛ حتى يصبح الإنسان مستعداً لأن يترك حقاً، أو يقول باطلاً، أو يفعل ما لا يرضي الله؛ فقط حتى لا يغضب عنه مسئول أو صديق أو شريك.

وفي زمننا أصبحت هذه المعركة أشد حضوراً؛ ومن أبرز صورها الردود والتعليقات الالكترونية بأحد وسائل التواصل الاجتماعي الذي فتح باباً دائماً إلى إبداء آراء الناس، وتفاعل الإعجابات الرقمية التي تمنح شعوراً سريعاً بالقبول، والتعليقات تستطيع أن ترفع المزاج أو تفسده في لحظات، وقد يجد الإنسان نفسه ينشر لا لأنه يريد أن ينفع، بل لأنه يريد أن يُرى، ويحذف كلامه لا لأنه خطأ، بل لأنه خاف ألا يعجب الآخرين. وهكذا قد يعيش الإنسان تحت نظر جمهور لا ينتهي، ويسأل نفسه باستمرار: ماذا سيقولون عني؟

لكن الناس مختلفون في أذواقهم، وأهوائهم، ونظرتهم إلى الأشياء؛ فإذا جعلت رضاهم ميزان حياتك؛ فلن تستقر، لأن الميزان نفسه يتغير كل يوم، ما يعجب شخصاً قد يزعج آخر، وما يمدحك عليه أحد قد ينتقدك عليه غيره، ولو جعلت قيمتك مرتبطة بأحكام الناس فلن تصل إلى لحظة تشعر فيها أنك كافٍ في أعين الجميع.

وقد جاء في الحديث: من التمس رضا الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس^١. والمعنى ليس أن يتعمد المؤمن إساءة الناس، أو يجرح مشاعرهم بحجة طلب رضا الله، وإنما أن يجعل رضا الله هو المقدم إذا تعارض الحق مع أهواء الخلق؛ فالمؤمن لا يبحث عن مخالفة الناس، لكنه لا يجعل خوفه من غضبهم سبباً لمخالفة أمر الله.

١ صحيح الترغيب (٢٢٥٠) وأخرجه الترمذي (٢٤١٤) بنحوه، وعبد بن حميد في ((المسند)) (١٥٢٢)، وابن حبان (٢٧٧)

وليس كل إرضاء للناس مذمومًا؛ فابتسامتك لوالديك، ولطفك مع أهلك، ومراعاتك لمشاعر صديقك، وتنازلك عن بعض حقلك طلبًا للإصلاح، وإدخالك السرور على من حولك، كل ذلك من حسن الخلق والإحسان، وإنما الخطر أن تكذب لتحظى بقبولهم، أو تترك واجبًا خوفًا من نقدهم، أو تجعل صورتك أمامهم أهم من صدقك مع الله.

وقد يعيش سنوات وهو يختار ما يرضي الناس بدل ما يراه صوابًا، حتى ينسى ماذا يريد هو أصلًا، وماذا يرضي الله، وما الحدود التي ينبغي أن يحفظها. لكن التحرر من رضا الناس لا يعني أن تصبح قاسيًا لا تبالي بمشاعرهم؛ فالمؤمن ثابت على الحق، لكنه حسن الخلق. يسمع النصيحة، ويقبل الحق ممن جاء به، ويعتذر إذا أخطأ، ويحفظ للناس حقوقهم، ولا يتخذ الدين ذريعة للفظاظة أو التعالي، ويقول الله سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي﴾^١.

فليس المقصود ألا يشعر الإنسان بخوف طبيعي من الناس، أو ألا يهتم بعواقب أفعاله الاجتماعية، وإنما ألا يحمل الخوف منهم على ترك ما أوجب الله، أو فعل ما حرم، أو السكوت عن الحق حين يجب عليه بيانه.

وقد يكون من أصعب صور طلب رضا الناس أن يعرف الإنسان الصواب، لكنه لا يجرؤ على اختياره؛ لأنه يخاف أن يخسر شخصًا، أو أن يُنتقد، أو أن يُتهم بأنه تغير، أو أن تتغير صورته التي اعتاد الناس عليها، وهنا يحتاج القلب إلى سؤال مهم: هل أنا أختار ما أفعله لأنني أراه حقًا، أم لأنني أخشى كيف سيبدو أمام الناس؟

وفي عالم التواصل الاجتماعي، يصبح هذا السؤال أكثر إلحاحًا، قبل أن تنشر، اسأل نفسك: هل أريد أن أنفع، أم أريد أن أرى؟ وقبل أن تتحدث: هل أقول هذا لأنه حق، أم طلبًا للإعجاب؟ وإذا قلّ التفاعل: هل كنت أطلب رضا الله، أم تصفيق الناس؟ وليس معنى ذلك أن كل من فرح بالإعجاب أو تأثر بالنقد قد وقع في مرض خطير؛ فالإنسان بطبيعته يتأثر بكلام الناس، وإنما المشكلة حين يصبح هذا التأثير هو الذي يقود اختياراته، ويحدد قيمته، ويجعله يغير ما يعتقد أو يترك ما ينفعه من أجل القبول.

تدرب أيضًا على قول «لا» حين تكون «نعم» ظلمًا لنفسك أو تقصيرًا في حق واجب، ولكن قلها بأدب، من غير قسوة ولا احتقار؛ لن تستطيع أن تجعل الجميع راضين عنك، لكنك تستطيع أن تجعل علاقتك بالله صادقة؛ أحسن إلى الناس، وراع مشاعرهم، واحفظ حقوقهم، واستمع إلى نصحتهم؛ فإذا تعارض رضاهم مع رضا الله؛ فاختر رضا الله بأدب وحكمة وثبات.

وتذكر أن قيمتك لا يصنعها عدد من يمدحونك، ولا عدد من يتابعونك، ولا مقدار التفاعل الذي تحصل عليه؛ الناس يرون جانبًا من حياتك، أما الله فيعلم ظاهرك وباطنك، ويعلم ما الذي حملك على الفعل، وما الذي أردته حين فعلته.

حين يتحرر القلب من عبودية نظرات الناس، لا يصبح باردًا تجاههم، بل يصبح أقدر على محبتهم محبةً صحيحة؛ لأنه لم يعد يحتاج إليهم ليمنحوه قيمته، ولا يجعل قبولهم شرطًا لطمأنينته.

فأحسن إلى الناس، ولا تعبد رضاهم؛ أحبهم، ولا تجعل قيمتك معلقةً بأعينهم؛ واسمع نصحتهم، ولا تجعل خوفك منهم يحملك على مخالفة ربك.

وحين يستقر رضا الله في القلب، يصغر في العين كثير من التصفيق الذي كان يُظن أنه حياة، ويكتشف الإنسان أن أعظم راحة ليست في أن يقول الناس عنه: ما أجمله، وما أنجح، وما أروع؛ وإنما في أن يستطيع أن يقول في خلوته: يا رب؛ إن كنت راضيًا عني؛ فلا يضرني بعد ذلك من رضي، ولا من سخط.

الخوف الذي لا ينبغي أن يسكن قلبك

الخوف فطرة تحمي الإنسان، وليس المطلوب أن يعيش المؤمن بلا خوف، بل ألا يتحول الخوف إلى قيد يمنعه من الطاعة، واتخاذ القرار، وقول الحق، وحسن التوكل على الله.

قد نخاف المستقبل والفشل والمرض والفقر وفقد من نحب وكلام الناس، بل قد نخاف أموراً لم تقع أصلاً؛ فنعيش ألمها قبل أوانها، وتزيد كثرة الأخبار هذا القلق؛ فتملاً القلب باحتمالات الحروب والأمراض والكوارث، وتجعله يعيش مستقبلاً لم يأت. أما خشية الله فليست خوفاً يقطع الرجاء، بل خوفٌ مع محبة وتَعْظِيم ورجاء؛ نخافه فنبتعد عن معصيته، ونرجوه فنتوب إليه، ونعظمه فلا نقدم رضا الناس على رضاه.

حين يخيفك المستقبل

يرهق القلب أن يعيش الغد قبل أن يأتي: ماذا لو مرضت؟ ماذا لو خسرت؟ ماذا لو فشلت؟ يبدأ الأمر باحتمال، ثم تتكاثر الاحتمالات حتى تبدو كأنها حقائق.

وهنا تذكر أن الغيب ليس بيدك، وأن المستقبل لم يأت بعد؛ فلا تدع احتمالاً يسرق منك يقينك وحاضرك. الله يعلم الغد، وأنت لا تعلم؛ فخذ بالأسباب، وتوكل عليه، ودع ما وراء قدرتك لله وهو القائل سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^١؛ أنت لا تعرف ماذا سيحدث غداً، لكنك تعلم أن الله يعلمه، وأن عليك أن تسعى فيما تستطيع، وتأخذ بالأسباب، ثم تفوض ما وراء قدرتك إليه؛ فالتوكل ليس ترك الأسباب، وإنما اعتماد القلب على الله مع بذل ما يستطيع من أسباب مشروعة وهو القائل سبحانه ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾^٢. ليس معنى ذلك أن كل بلية ستنتهي بمعجزة ظاهرة، بل إن البلاء لا يعني أن الله ترك عبده، على المؤمن أن يحسن الظن بربه، ويصبر، ويأخذ بالأسباب، ويستعين بالله،

١ الأنعام: ٥٩

٢ الرعد: ٢

قد لا تتغير الظروف سريعاً، لكن الله قد يرزقك من الصبر والثبات ما يعينك على عبورها، وقد يكون في تأخر ما تريد أو تغير طريقك خير لا تعلمه.

لا تجعل الخوف يسرق منك الحاضر: كم من إنسان أفسد يومه خوفاً من غدٍ لم يأتِ، وكم من فرصة ضاعت خوفاً من الفشل قبل أن يبدأ، وحين يتضخم الخوف، ينشغل الإنسان بالاحتمالات حتى يغفل عن نعم حاضرة.

وقد تزيد التقنية هذا الاستنزاف بمتابعة الأخبار والمخاطر ومقارنة النفس بالآخرين، وليس المطلوب أن تنعزل عن الواقع، بل أن تعرف متى تتحول المتابعة إلى استنزاف؛ فليس كل ما تستطيع معرفته تحتاج إلى معرفته، وأحياناً يكون إغلاق الشاشة عوناً للقلب على العودة إلى صلاته، وقرآنه، وأهله، وعمله.

 **وقف مع النفس:** اسأل نفسك اليوم: ما أكثر شيء أخافه؟ وهل خوفي يدفعني إلى سبب مشروع، أم يستهلكني دون فائدة؟ وهل أتابع ما يزيد قلقي ثم أشتكي من اضطراب قلبي؟

اكتب خوفاً يرهقك، ثم قسمه إلى: ما تستطيع فعله، وما لا تستطيع التحكم فيه. افعل ما تستطيع، وفوض ما عجزت عنه إلى الله.

وقل: يا رب، أنت تعلم ما لا أعلم، وتملك الغد وأنا لا أملكه؛ فأعني على فعل ما عليّ، وأحسن التوكل عليك، والرضا بما تقدر لي.

ثم خذ بالأسباب وامض؛ فالشجاعة ليست غياب الخوف، بل ألا يمنعك من الحق أو يقطعك عن الله. إذا خفت من الناس فتذكر أن الله يراك، وإذا خفت من المستقبل فتذكر أن الغيب بيده، وإذا ضاقت الأسباب فتذكر قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^١

قد يبقى الخوف، لكن الإيمان يعلمه أين يقف؛ فلا تجعله يسكن قلبك، بل خذ منه ما ينبهك، ثم امض إلى الله بقلب راجٍ، متوكلٍ، مطمئنٍ إلى رحمته وحسن تدبيره.

حين يصبح الماضي سجناً

هناك ماضٍ ينتهي بانتهاء أيامه، وماضٍ آخر يظل حاضراً في القلب. يعود في لحظات الصمت، ويستيقظ مع كلمة أو صورة أو موقف يشبه شيئاً حدث من قبل. قد يكون الماضي ذنباً ندمت عليه، أو قراراً تتمنى لو لم تتخذه، أو علاقة انتهت بألم، أو ظلماً تعرضت له، أو فرصة ضاعت، أو فشلاً ما زلت تفسر به كل محاولة جديدة، وفي كل مرة تحاول أن تتقدم، يعود الماضي ليقول لك: أنت الذي أخطأت، وأنت الذي فشلت، وأنت الذي ضيعت الفرصة؛ حتى يعيش الإنسان حاضره من خلال قصة قديمة يكررها على نفسه؛ فيتحول الماضي من درس يتعلم منه إلى سجن يقيم فيه.

وفي عصرنا، أصبحت العودة إلى الماضي أسهل؛ صورة قديمة، أو رسالة محفوظة، أو حساب شخص انتهت علاقتك به، أو محادثة يعيدها الهاتف أمامك فجأة، قد يغلق الإنسان باباً في الواقع، ثم يظل يفتحه في ذاكرته كل يوم. لكن هناك فرقاً بين أن تتذكر الماضي وبين أن تسكن فيه، وبين أن تتعلم من خطئك وبين أن تجعل الخطأ هويتك، وبين أن تندم وبين أن تستمر في معاقبة نفسك بعد أن تبت وأصلحت ما استطعت.

حين يكون الماضي ذنباً

قد يتحول الندم من باب للتوبة إلى باب لليأس: كيف أكون صالحاً وأنا فعلت كذا؟ وكيف أبدأ من جديد بعد كل هذا التقصير؟ وهنا يفتح الله لعباده باب الرجاء؛ فيقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾^١، ثم يقول: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾^٢

فإذا صدقت التوبة؛ فأقلع عن الذنب، واعزم على ألا تعود إليه، ورد الحقوق إلى أهلها إن تعلق بالعباد، ثم امض، لا تجعل الشيطان يحول الندم إلى قنوط، ولا تجعل خطأً قديماً يمنعك من طاعة جديدة.

١ سورة الزمر: ٥٣

٢ سورة الزمر: ٥٤

حين يكون الماضي ظلمًا

ليس كل ما يؤلمنا كان بسبب أخطائنا؛ فقد يكون الماضي ظلمًا أو خيانة أو فقدًا أو إساءة تركت أثرًا عميقًا، وتجاوز الألم لا يعني إنكار ما حدث، ولا التنازل عن حقك، ولا يلزم منه إعادة العلاقة إلى ما كانت عليه، تستطيع أن تطلب حقك بالطرق المشروعة، وتضع الحدود التي تحفظك، وفي الوقت نفسه تسعى إلى العفو والصفح متى كان ذلك خيرًا؛ قال الله سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^١.

قد لا تستطيع تغيير ما فعله الآخر، لكنك تستطيع ألا تسمح لما فعله أن يواصل استنزاف قلبك بقية عمرك.

لا تجعل الماضي يكتب مستقبلك

قد يقول لك الماضي: فشلت مرة؛ إذن ستفشل دائمًا؛ خذلك أحد؛ إذن لا تثق بأحد؛ قصرت في العبادة؛ إذن لا فائدة من المحاولة، لكن الماضي قد يفسر بعض جراحك، ولا يملك أن يقرر نهايتك، والمطلوب أن تتعلم مما مضى، ثم تنظر إلى ما تستطيع أن تقدمه اليوم. يقول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^٢.

وقفت مع النفس

حدد شيئًا من الماضي ما زال يستهلك قلبك، ثم اسأل: هل أحتاج إلى توبة؟ هل هناك حق يحتاج إلى إصلاح؟ أم أنني أحتاج إلى قبول أمر مضى لا أستطيع تغييره؟

ثم اسأل السؤال الأهم: ماذا يريد الله مني اليوم؟

قد تكون الإجابة توبة، أو رد حق، أو اعتذارًا، أو صلة رحم، أو صلاة تحسنها، أو عادة تؤذيكَ فتركها، لا تجعل الهاتف متحفًا لعلاقات انتهت، ولا تعد إلى ما يفتح جرحًا بلا فائدة، ولا تجعل الندم يمنعك من العمل.

فالماضي فصل من قصتك، وليس الكتاب كله، قد أخطأت، لكنك لست مطالبًا أن تظل الخطأ نفسه، وقد تألمت، لكن الألم ليس هويتك.

١ سورة النور: ٢٢

٢ سورة الحشر: ١٨

خذ من الماضي عبرته، وتب إلى الله من خطئه، وأصلح ما تستطيع، واترك ما لا تستطيع تغييره، ثم امض، ولعل أجمل ما تصل إليه يومًا أن تنظر إلى ماضيك فتحمد الله، لا لأنك لم تخطئ، بل لأنك لم تبقَ حيث كنت.

أسرى الندم

هناك ندمٌ يوقظ القلب، وندمٌ يستنزفه؛ ندمٌ يقول لك: أصلح ما أفسدت، وابدأ من جديد، وندمٌ آخر يظل يكرر: لو أنني لم أفعل، لو أنني اخترت غير ذلك، حتى يصبح الماضي غرفةً مغلقة يعيش الإنسان فيها، بينما تمضي الحياة من حوله.

قد يكون الندم على كلمة قيلت في غضب، أو قرار اتُّخذ على عجل، أو فرصة ضاعت، أو علاقة انتهت، أو ذنب تاب منه الإنسان، والمشكلة ليست في تذكر الماضي ولا في الحزن على ما فات، وإنما في أن يتحول ذلك إلى استسلام يستهلك الحاضر ويمنع الإنسان من العمل، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^١؛ فالمؤمن يحزن لما يؤلمه، لكنه لا يجعل الحزن حاكمًا على حياته، بل يصبر ويستعين بالله ويمضي.

ولهذا علّم النبي ﷺ أمته كيف تتعامل مع ما مضى؛ فقال لأبي هريرة رضي الله عنه: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»^٢ وليس في ذلك دعوة إلى إهمال مراجعة الأخطاء؛ بل نتعلم منها، ونصلح أسبابها، ثم لا نستسلم للتحسر على أمر خرج من قدرتنا.

وهناك فرق كبير بين أن تتذكر ذنبك فتستغفر الله، وتقلع عنه، وتعزم على ألا تعود إليه، وترد الحقوق إلى أهلها إن وجبت، وبين أن تتذكره لتقول: أنا لا أستحق المغفرة، ولن أغير؛ الأول توبة وإصلاح، والثاني يأس وقنوط، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾^٣، ثم قال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾^٤ وقد يكون الندم على فرصة ضائعة. يرى الإنسان نجاح غيره فيقول: لو بدأت قبل سنوات لكان حالي مختلفاً، لكن الزمن الذي مضى لا يعود، وما بقي من العمر هو الميدان الذي تستطيع أن تعمل

١ سورة الحديد: ٢٣

٢ الزرقاني، مختصر المقاصد (٨٢٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٤)

٣ سورة الزمر: ٥٣

٤ سورة الزمر: ٥٤

فيه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾^١؛ فلا تجعل ما فات سببًا لترك ما تستطيع فعله اليوم.

وفي قصة آدم عليه السلام معنى عظيم؛ فقد وقع في الخطأ، ثم بادر إلى الرجوع إلى الله، ولم يجعل زلته خاتمة قصته، قال سبحانه: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^٢

وليس كل ألم في الماضي ذنبًا ارتكبناه؛ فقد يكون ظلمًا أو خذلانًا أو فقدًا، ومن حق الإنسان أن يطلب الإنصاف ويحفظ حدوده، دون أن يسمح للأذى بأن يستولي على قلبه إلى الأبد، وفي عصرنا قد تعيد صورة أو رسالة أو محادثة قديمة فتح جرح ظننته التأم؛ لذلك قد يكون إغلاق بعض الأبواب الرقمية جزءًا من حماية القلب.

 **وقضة مع النفس:** اسأل نفسك: ما الشيء الذي ما زلت أعاقب نفسي عليه رغم أنني تعلمت منه؟ وهل يحتاج إلى توبة، أو اعتذار، أو رد حق، أم إلى قبول أمر خرج من قدرتي؟

ثم اكتب درسًا واحدًا تعلمته من أكثر ما تندم عليه، وخطوة عملية تمنعك من تكراره. لا تجعل الندم يأخذ منك اليوم بحجة أنه يعاقبك على الأمس؛ فالماضي لا تستطيع تغييره، لكنك تستطيع أن تغيّر ما يفعله الماضي بك.

قد لا تمحو الصفحة التي أخطأت فيها، لكنك تستطيع أن تكتب بعدها صفحات أجمل؛ وقد لا تسترد فرصة ضاعت، لكنك تستطيع أن تحفظ ما بقي. ضع الماضي في مكانه الصحيح: خلفك، لا فوقك؛ وامض إلى الله بقلبٍ تعلّم، لا بقلبٍ هُزم.

١ سورة النجم: ٣٩-٤٠

٢ سورة البقرة: ٣٧.

حين يعجز القلب عن المسامحة

هناك جراح لا يراها أحد؛ كلمة قيلت في لحظة غضب، أو خذلان جاء ممن وثقت به، أو ظلم بقي أثره في القلب بعد أن انتهى الموقف، أو علاقة انتهت بطريقة تركت وراءها أسئلة كثيرة، وقد يمضي الإنسان في حياته مبتسمًا، ويبدو للناس أنه تجاوز ما حدث، لكنه يحمل في داخله ألمًا لم يستطع أن يضعه في مكانه الصحيح؛ فكلما تذكر الموقف عاد الوجد، وكأن الجرح لم يغلق بعد.

المسامحة ليست كلمة سهلة دائمًا؛ فبعض الأذى عميق، وبعض الخيبات تأتي ممن كنا ننتظر منهم الأمان، وبعض الجراح تحتاج وقتًا حتى تهدأ، وليس المطلوب أن ينكر الإنسان ألمه، أو يبرر الظلم، أو يتظاهر بأن ما حدث لم يؤذ، أو يتنازل عن حق مشروع؛ وإنما أن يحذر من أن يتحول الألم إلى حقد يستولي على قلبه؛ فيبقى من آذاه حاضرًا في حياته كل يوم، حتى بعد أن يغيب عنه.

والعفو ليس ضعفًا؛ فقد يملك الإنسان القدرة على الرد، لكنه يختار أن يضبط نفسه وألا يجعل الإساءة تفسد أخلاقه، وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^١، فالقوة ليست في أن تنتصر لغضبك، وإنما في أن تملك نفسك حين تشتد مشاعرك، وأن تختار ما يرضي الله ولو كان الانتقام أسهل.

ومن أجمل ما يجسد معنى العفو موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع مسطح بن أثاثه، بعدما خاض مسطح في حادثة الإفك، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره وقربته؛ فلما حلف أبو بكر ألا ينفق عليه، أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^٢؛ فلما سمع أبو بكر رضي الله عنه ذلك قال إنه يحب أن يغفر الله له؛ فعاد إلى النفقة على مسطح، وهكذا كان عفو طاعة

١ صحيح البخاري (٦١١٤) •

٢ سورة النور: ٢٢

لله، لا إنكارًا لما وقع، ولا نسيانًا للأذى، وإنما تغليبًا لطلب مغفرة الله على رغبة النفس في المؤاخذه.

وهذا لا يعني أن العفو يلغي الحكمة؛ فقد تعفو وتضع حدودًا، وتترك الانتقام وتطلب حقك بالطرق المشروعة، وتسعى إلى الإصلاح دون أن تعيد ثقتك بمن لا يؤتمن؛ فالرحمة لا تعني السذاجة، والعفو لا يعني السماح بتكرار الظلم، والمسامحة لا تلزمك بإعادة العلاقة إلى ما كانت عليه، وقد يكون الابتعاد عن بعض الأشخاص أحيانًا هو التصرف الحكيم الذي يحفظ النفس ويمنع تكرار الأذى.

وفي عصرنا قد تجد الجراح ما يوقظها باستمرار؛ صورة قديمة، أو رسالة محفوظة، أو حساب شخص آذاك، أو متابعة أخباره كل يوم، وأحيانًا يكون إغلاق هذه النوافذ جزءًا من حماية القلب، لا هروبًا من الماضي؛ فلا تجعل هاتفك بابًا يعود منه الألم كل ليلة، ولا تجعل فضولك سببًا في إعادة فتح جرح تحاول مداواته.

وقضت مع النفس

فكر في شخص ما زال ذكره يثير في قلبك ألمًا، ثم اسأل نفسك: كيف أمنع ما فعله من أن يفسد قلبي؟ هل أحتاج إلى عفو، أم إلى وضع حدود، أم إلى استرداد حق، أم إلى مسافة تحفظني؟ وهل ما زلت أعيش الموقف لأنه يحتاج إلى معالجة، أم لأنني أعود إليه كلما ضاق صدري؟

وابدأ بالدعاء: يا رب، طهر قلبي من الحقد، واشفِ ألمي، وأعني على العدل، ولا تجعل ألمي سببًا في ظلم غيري، وارزقني من العفو ما يكون خيرًا لي. لا تسامح لأن كل من آذاك يستحق ثقتك، بل سامح حين يكون العفو خيرًا، وخذ حقك دون تجاوز، واترك ما لا تستطيع تغييره لله.

فليس المطلوب أن تنسى كل جرح، وإنما ألا تسمح للجرح أن يتحول إلى هوية؛ أن يخرج الأذى من قلبك، دون أن يخرج الخير منه.

القلوب التي أنهكها الانتظار

هناك انتظار يمر خفيفاً، وانتظار آخر يستهلك القلب شيئاً فشيئاً؛ انتظار خبر، أو شفاء، أو رزق، أو زواج، أو فرج، أو أمر ظل الإنسان يسأل الله إياه أياماً وشهوراً، وربما أعواماً. في بداية الانتظار يكون القلب ممتلئاً بالأمل، ثم تطول الأيام ولا يتغير شيء؛ فيتسلل السؤال: «متى يا رب؟»، وقد يتحول التعب إلى خوف من ألا يأتي الفرج أبداً، وهنا تظهر حقيقة التعلق: هل نحن متعلقون بالله، أم بما نرجوه منه؟ فقد يظن الإنسان أن راحته لا تكون إلا في حصول أمر بعينه؛ فإذا تأخر اضطرب قلبه، وكأن الخير كله قد حُصر في صورة واحدة.

لكن المؤمن يتعلم أن يسأل الله ما يريد، ثم يفوض إليه ما لا يعلم عاقبته، ويوقن أن اختيار الله لعبده خير من اختياره لنفسه. يقول سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

وتأخر ما نرجوه لا يعني أن الله غافل عنا، ولا أن الدعاء ذهب سدى؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي»،^٢، والاستعجال أن يملّ العبد من الدعاء بسبب تأخر ما سأل؛ فيترك الدعاء ويستحسر.

وقد يكون من أعظم آثار الدعاء أنه يربي في القلب الافتقار إلى الله، وحسن الرجاء به، والصبر على تقديره، قبل أن يرى العبد ما يسأل بأعينه، ولذلك كان الأنبياء يدعون ربهم في أشد الظروف، ولم يكن تأخر الفرج دليلاً على غياب عناية الله بهم.

تأمل يعقوب عليه السلام؛ طال فراق يوسف واشتد حزنه، حتى قال الله سبحانه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^٣، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^٤، لم ينكر حزنه، ولم يتظاهر بأن الفراق لا يؤلمه، لكنه عرف أين يضع ألمه: بين يدي ربه بالدعاء والرجاء.

١ سورة البقرة: ٢١٦

٢ صحيح البخاري (٦٣٤٠) أخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) .

٣ سورة يوسف: ٨٤

٤ سورة يوسف: الآية

وهذا ما يحتاجه القلب الذي أنهكه الانتظار؛ ليس مطلوبًا منك ألا تتألم، ولا ألا تبكي، بل أن يبقى ألمك مصحوبًا بحسن الظن بالله، قل: يا رب، طال انتظاري، ولا أعرف متى يأتي الفرج، لكنني لا أريد أن أفقد رجائي بك.

وفي زمن السرعة، صار الانتظار أشد وطأة؛ رسالة تصل في ثوانٍ، وطلب يصل إلى بابك، ومعلومة تظهر بضغطة زر، ثم تزيد وسائل التواصل الأمر قسوة حين ترى نجاح الآخرين وزواجهم وأرزاقهم وإنجازاتهم، بينما ما زلت تنتظر، لكنك لا ترى القصة كاملة، ولا ينبغي أن تجعل توقيت حياة غيرك مقياسًا لحياتك.

وقفت مع النفس

اسأل نفسك: ما الشيء الذي أنتظره حتى ظننت أن سعادتي لا تكتمل إلا به؟ وهل ما زلت أدعو وأسعى، أم علقت حياتي كلها على نتيجة لم تأت؟

استمر في الدعاء، وخذ بالأسباب، ثم عش يومك؛ إن كنت تنتظر وظيفة فاسع وتعلم، وإن كنت تنتظر الزواج فابذل أسبابه، وإن كنت تنتظر الشفاء فخذ بالأسباب الطبية واسأل الله العافية، وإن كنت تنتظر الفرج فلا تغفل عن النعم التي بين يديك، ومن أهمها الحفاظ على الصلوات والدعاء وملازمة الاستغفار.

فالصبر ليس أن تجلس أمام الباب المغلق طوال اليوم؛ بل أن تأخذ بالأسباب، وتدعو الله، ثم تمضي في حياتك وقلبك حسن الظن به.

وربما كان أعظم ما يثمره الانتظار فيك ليس حصول ما ترجوه فحسب، بل أن تنضج علاقتك بالله، ويزداد قلبك صبرًا وافتقارًا ورجاءً؛ فقل: يا رب؛ إن كان ما أرجوه خيرًا لي فأقدره لي ويسره، وإن كان شرًّا فاصرفه عني واصرمني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به؛ ثم امض؛ فقد يتأخر ما تنتظر، لكن رحمة الله وحكمته لا تغيبان عن عبده.

حين يطول الطريق

في بداية الطريق يكون كل شيء واضحًا؛ حماس يملأ القلب، وخطوات متتابعة، وأهداف تبدو قريبة، وشعور بأن الوصول ليس بعيدًا، ثم تمضي الأيام، وتتأخر النتائج، ويخفت الحماس، وتتعب النفس؛ فيسأل الإنسان: متى أصل؟ وهل يستحق الطريق كل هذا التعب؟

وهنا تبدأ مرحلة مختلفة من السير؛ مرحلة لا يعود فيها الحماس كافيًا، ولا تكفي الرغبة وحدها للاستمرار، قد يطول طريق التوبة، وطلب العلم، وإصلاح النفس، وبناء الأسرة، وطلب الرزق، والشفاء، وحتى البحث عن الطمأنينة، لكن بعض الطرق لا تُقاس فقط بسرعة الوصول، بل بما يتعلمه الإنسان ويصلحه في أثناء سيره، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾^١ وهذا معنى نحتاج إليه في عصر السرعة؛ فقد اعتدنا النتائج الفورية، وأصبحنا نقارن بداياتنا بنهايات الآخرين، نرى حافظًا للقرآن ولا نرى سنوات مجاهدته، ونرى ناجحًا في عمله ولا نرى ليالي تعب، ونرى ثمرة إصلاح إنسان ولا نرى مراحل تعثره، وفي وسائل التواصل تظهر النتيجة أكثر مما تظهر الرحلة.

فلا تجعل طريق غيرك معيارًا للحكم على طريقك، لكل إنسان ظروفه وأسبابه وابتلاءاته، والسؤال الأهم ليس: لماذا لم أصل مثلهم؟ بل: هل أنا اليوم أسعى إلى الخير أكثر مما كنت بالأمس؟

ومن المشاهد التي تعلّم القلب الصبر على طول الطريق قصة يوسف عليه السلام؛ فقد مر بالجب، والبيع، والسجن، ثم جاء الفرج والتمكين، وفي أثناء تلك المراحل كان تدبير الله يجري فيما لا يعلمه يوسف في حينه؛ فلا تجعل تأخر النتيجة دليلًا على فساد الطريق، ولا تظن أن ما لا ترى ثمرته اليوم لا قيمة له.

وحين يطول الطريق يظهر الفتور. يبدأ الإنسان قيام الليل، ثم تضعف همته، ويحفظ القرآن ثم يتعثر، ويجاهد عادة سيئة ثم يعود فيبدأ من جديد، والتعثر لا يعني نهاية

الطريق؛ المهم ألا يتحول التعب إلى استسلام؛ فالمطلوب ليس أن تعمل بأقصى طاقتك دائماً، وإنما أن تستمر بما تستطيع، وتثبت على الخير ولو كان قليلاً. اسأل نفسك: ما الطريق الذي بدا أطول مما توقعت؟ وهل تركته لأنني فشلت، أم لأنني استعجلت النتيجة؟ ثم لا تشغل بالمسافة كلها؛ اسأل: ما الخطوة التالية؟ إذا تعثرت فعد، وإذا ضعفت فاستعن بالله، وإذا تأخرت النتيجة فلا تستسلم؛ فقد تكتشف بعد سنوات أن الطريق نفسه ربّاك؛ فالصبر علّمك الثبات، والتعثر علّمك التواضع، ومجاهدة النفس قوّت إرادتك، والانتظار زاد افتقارك إلى الله. فلا تبحث عن حياة بلا تعب، بل عن قلب يعرف كيف يثبت على طاعة الله وسط التعب، ولا تجعل طول الطريق دليلاً على أنك لا تتقدم؛ فرب خطوة صغيرة صادقة تكون بداية تحول كبير.

سر في هدوء، واستعن بالله، وخذ بالأسباب، واثبت ما استطعت؛ فالمهم ألا تتوقف عن السير في طريق الخير، وألا تفقد رجاءك بالله، وربما كان أعظم ما تناله في نهاية الطريق ليس مجرد الوصول، بل القلب الذي نضج بالإيمان والصبر وأنت تمشي.

ماذا يفعل اليأس بالقلب؟

اليأس لا يأتي إلى القلب دائماً بصوت مرتفع؛ أحياناً يتسلل بهدوء؛ فيبدأ الإنسان بتقليل توقعاته، ثم يتوقف عن المحاولة، ويضعف دعاؤه، ويقنع نفسه أن شيئاً لن يتغير؛ لن أصلح، لن أتغير، لن يُعفر لي، لن يأتي الفرج، ومع الوقت قد تتحول هذه الأفكار إلى قناعة تثقل القلب وتمنعه من العودة.

قد يكون الإنسان قد أخطأ، وقد يطول بلاؤه، وقد تتعدد عليه الأسباب، لكن أخطر ما يفعله اليأس أن يقنع صاحبه بأنه لا فائدة من التوبة والمحاولة، ولهذا يفتح الله لعباده باب الرجاء؛ فيقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^١.

وهذا الرجاء لا يعني أن يتكل الإنسان على رحمة الله وهو مصرّ على المعصية؛ فالرجاء الصادق يدفع إلى التوبة والعمل، أما مجرد التمني فقد يبقى صاحبه في مكانه، لذلك يجمع المؤمن بين الخوف والرجاء. يخاف ذنبه فلا يستهين به، ويرجو رحمة ربه فلا يقنط منها، وقد قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾^٢؛ فإذا فتح الله لك باب التوبة؛ فلا تغلقه على نفسك.

وفي الحديث القدسي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا ابن آدم؛ إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك...»^٣؛ فمتى أخطأت؛ فلا تقل: انتهيت؛ بل قل: أحتاج إلى التوبة، وإذا تعثرت؛ فعد، وإذا ضعفت؛ فاستعن بالله.

ومن أخطر آثار اليأس أن يحول الذنب من فعل أخطأ فيه الإنسان إلى هوية يعرف بها نفسه: أنا عاصٍ، أنا فاشل، أنا لا أستحق الخير، لكنك قد تذب ولا تكون الذنب نفسه، وقد تفشل في تجربة ولا تكون إنساناً فاشلاً، وقد تتعثر مرات ثم تنهض.

١ سورة الزمر: ٥٣

٢ سورة الشورى: ٢٥

٣ أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، والبخاري (٦٧٦٠)، وابن شاهين في ((فضائل الأعمال)) (١٧٨) جميعهم بلفظه تامه .

ولهذا جاءت قصة الرجل الذي قتل مئة نفس لتفتح باباً عظيماً للرجاء؛ فلما سأل عن التوبة، دُلَّ على ترك بيئته السيئة والذهاب إلى أرض فيها قوم صالحون؛ فخرج تائباً، ومات في طريقه؛ فكان من أهل الرحمة؛ لأنه صدق في توبته وسعى إلى تغيير طريقه، والعبرة ليست أن الذنب هين، بل أن باب التوبة أوسع من أن يغلقه الإنسان على نفسه. وقد يأتي اليأس من المقارنة أيضاً؛ ترى نجاح الآخرين وأرزاقهم وإنجازاتهم؛ فتقول: أنا متأخر، لكنك ترى من حياتهم ما ظهر، ولا ترى ما خفي من تعبهم وتعثرهم؛ فلا تجعل شاشة صغيرة تحكم على قيمة حياتك.

اسأل نفسك: ما الجملة التي يكررها اليأس في داخلي؟ وهل هي حقيقة، أم شعور أثقلته الأيام؟ ثم خذ خطوة واحدة: إن كان ذنباً فتب، وإن كانت عبادة فابدأ بالقليل، وإن كان حقاً فاسع إلى إصلاحه، وإن كان أمراً لا تملك تغييره فارفعه إلى الله.

قد يتعب القلب ويبيكي ويضعف، وهذا من طبيعة البشر، لكن لا تجعل التعب يقنعك بأن الرحمة انتهت؛ أحياناً تبدأ العودة بركعتين، أو دعاء، أو استغفار، أو آية بتدبر، أو باب معصية تغلقه، أو عمل صالح تبدأ به من حيث أنت.

فلا تجعل ظلمة اللحظة تحكم على بقية الطريق؛ ما دمت حيّاً؛ فباب التوبة مفتوح، وقد يكون أول الفرغ أن يستعيد قلبك قدرته على الرجاء والدعاء، وأن تواصل السير إلى الله، حتى قبل أن تتغير الظروف.

حين تتعب من نفسك

هناك تعب لا يأتي من كثرة العمل، ولا من طول الطريق، ولا من ضجيج الناس؛ بل يأتي من الداخل، حين يسأم الإنسان من تكرار أخطائه، ويضيق بتقلبه، ويلوم نفسه على ما يفعل، ثم يعود إلى الشيء نفسه من جديد، قد يستيقظ بعزم صادق على التغيير، ثم يعود بعد أيام إلى الفتور، وقد يترك ذنبًا ثم يضعف أمامه، وقد يحاول أن يكون أفضل؛ فيكتشف أن في نفسه من الضعف ما لم يكن يعرفه.

ثم ينظر إلى بعض الصالحين؛ فيرى ثباتهم ونشاطهم؛ فيقارن نفسه بهم ويسأل: لماذا لا أستطيع أن أكون مثلهم؟ وهنا تبدأ معركة أخرى مع الصورة المثالية التي رسمها لنفسه. يريد أن يكون قويًا دائمًا، ثابتًا دائمًا، خاشعًا دائمًا؛ فإذا رأى من نفسه ضعفًا ظن أنه فشل، وإذا أخطأ ظن أن الطريق لم يعد له، وإذا فتر توهم أن قلبه قد مات. لكن الإنسان عبدٌ يعتريه الضعف والقوة، والنشاط والفتور، وهو محتاج في كل أحواله إلى الله، وقد قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^١، وليس معنى ذلك أن يستسلم الإنسان لضعفه، بل أن يعرف قدر طاقته، ويبدل وسعه، ويستعين بالله فيما عجز عنه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، واعلموا أنه لن يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله منه برحمة»^٢ وقال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^٣؛ فالمطلوب أن تسدد وتقارب وتستمر، لا أن تطلب من نفسك كمالًا لا تطيقه، ولا أن تجعل تعثرك سببًا لترك الطريق.

إن بعض الناس لا يتعبون من الطاعة بقدر ما يتعبون من الصورة المثالية التي يريدون بلوغها. يظن أنه إذا تاب فلن يعود إلى الذنب، وإذا بدأ قيام الليل فلن يفتر، وإذا أقبل على القرآن فلن ينقطع، ثم تأتي مسؤوليات الحياة وتعبها؛ فيضعف؛ فيبدأ جلد نفسه، ويتحول الندم إلى إحباط، ثم الإحباط إلى ترك.

١ سورة البقرة: ٢٨٦.

٢ صحيح • أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦) باختلاف يسير

٣ رواه البخاري ومسلم

وهنا ينبغي أن نفرق بين ندم يقود إلى الإصلاح، ويأس يقود إلى الاستسلام؛ الأول يقول: عد إلى الله وأصلح ما استطعت، والثاني يقول: لن تتغير؛ فلا تحاول، وقد وصف الله أهل الإيمان بأنهم إذا وقعوا في الذنب لم يستسلموا له؛ فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فتأمل: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾؛ لم يجعلوا الخطأ سبباً للابتعاد، بل عادوا إلى الله بالتوبة والاستغفار.

وتأمل حديث حنظلة الأسدي رضي الله عنه حين وجد تفاوتاً بين حاله عند النبي ﷺ وحاله مع أهله وشؤونه؛ فقال: «نافق حنظلة»؛ فبين له النبي ﷺ أن للإنسان أحوالاً متفاوتة؛ فقال: «يا حنظلة، ساعة وساعة» وليس في الحديث ترخيص في الغفلة أو ترك الطاعة، وإنما بيان لطبيعة الإنسان وتفاوت أحوال قلبه.

وهذا مهم في زمن المقارنة؛ فأنت ترى في هاتفك من يبدو أكثر عبادة ونجاحاً وإنجازاً؛ فتقارن لحظتك المتعبة بأجمل لحظة عرضها شخص آخر من حياته؛ فلا تجعل ما تراه سبباً لاحتقار نفسك أو القنوط من إصلاحها.

إذا أخطأت؛ فُتِبْ؛ وإذا ضعفت؛ فاستعن بالله؛ وإذا فاتتك طاعة؛ فاستأنف طريقك، وافعل ما شُرع لك بحسب حالك؛ وإذا انقطعت عن القرآن؛ فافتح المصحف من جديد؛ وإذا أثقلت الصلاة؛ فلا تتركها، بل جاهد نفسك وأدّها، واسأل الله الخشوع. ولا تجعل تعبك من نفسك سبباً في ترك نفسك؛ فأنت أحوج ما تكون إلى الله حين تدرك عجزك عن إصلاح نفسك وحدك، وقد أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»^٢؛ فحسن العبادة نفسه يحتاج إلى عون الله.

إذا شعرت أنك تعبت من نفسك؛ فلا تبدأ بجلدها، بل اسألها: ما الذي يتكرر مني وأحتاج إلى إصلاحه؟ وما الخطوة الصغيرة التي أستطيع أن أبدأ بها الآن؟ ثم اختر عملاً ثابتاً تستطيع المحافظة عليه؛ ركعتين، أو صفحة من القرآن، أو ذكراً، أو صدقة، أو ترك سبب من أسباب المعصية، أو دعاءً تكرر كل يوم.

١ سورة آل عمران: ١٣٥؛

٢ رواه أبو داود والنسائي

فليس النجاح ألا تتعب، وإنما أن تعرف إلى أين تذهب حين تتعب، وليس الثبات ألا تتعثر، وإنما ألا تجعل التعثر نهاية الطريق، وقد يكون أجمل ما تقوله في لحظة ضعف: يا رب، تعبت من ضعفي، لكنني لم أتعب من الرجوع إليك؛ فأعني على نفسي، ولا تكلني إليها، وثبتي على طاعتك.

فحين تتعب من نفسك، لا تبتعد عن الله؛ اقترب منه أكثر، لأنك في تلك اللحظة لا تحتاج إلى أن تثبت لنفسك أنك قوي، بل تحتاج أن تعرف أنك عبد، وأن قوتك الحقيقية تبدأ حين تستعين بربك وتقول بصدق: يا رب، لا أستطيع وحدي.

النجاة من وهم الكمال

قد يتعب الإنسان من نفسه لأنه يريد منها أن تكون كاملة. يريد أن ينجح دائماً، ويصيب دائماً، ويعبد الله بلا فتور، ويتعامل مع الناس بلا خطأ، ويظل قوياً في كل الظروف؛ فإذا رأى في نفسه نقصاً أو زلة أو ضعفاً، شعر أنه لم يعد كما ينبغي أن يكون، وهنا يتحول طلب الإصلاح إلى عبء؛ فبدل أن يسأل: كيف أصبح أفضل؟ يبدأ في سؤال نفسه: لماذا لست كاملاً؟

وفي عصرنا يزداد هذا الوهم قسوة؛ فالشاشات تعرض لنا لحظات منتقاة من حياة الآخرين؛ فنرى نجاحاتهم ولا نرى إخفاقاتهم، وابتساماتهم ولا نرى أحزانهم، وإنجازاتهم ولا نرى أيام العجز والتعب، ثم نقارن حياتنا بكل تفاصيلها بلحظاتهم المنتقاة؛ فنخرج من المقارنة شاعرين أننا أقل من الجميع.

وقد يمتد هذا الوهم إلى علاقتنا بالله؛ فيظن الإنسان أن عليه أن يبلغ حالاً لا يضعف فيها ولا يخطئ ولا يفتقر؛ فإذا وقع في ذنب أو قصّر في عبادة، لم يكتف بالندم، بل احتقر نفسه وقال: لن أغير أبداً، وهنا ينبغي أن نتذكر أن الضعف من طبيعة البشر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^١؛ فالضعف ليس عذراً للمعصية، لكنه ليس سبباً لليأس؛ والمطلوب أن يجاهد العبد نفسه، ويتوب إذا أخطأ، ويسعى إلى الإصلاح، لا أن يطلب من نفسه عصمة لا يملكها.

وقد قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه،^٢؛ فليس الخير في إنسان لا يخطئ، وإنما فيمن إذا أخطأ عرف طريق الرجوع، واعترف بذنبه، وسارع إلى التوبة والإصلاح.

ولهذا ليس السؤال دائماً: هل أخطأت؟ بل: ماذا فعلت بعد أن أخطأت؟ هل بررت خطأك وأصررت عليه، أم اعترفت وندمت وأصلحت ثم واصلت الطريق؟ وتأمل دعاء آدم وحواء عليهما السلام بعد وقوعهما في المخالفة؛ إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَا

١ سورة النساء: ٢٨

٢ رواه الترمذي وابن ماجه

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^١، لم يكن في موقفهما مكابرة ولا إصرار، بل اعتراف وافتقار إلى مغفرة الله ورحمته.

وهكذا تكون النجاة من وهم الكمال: أن تعرف نقصك دون أن تحتقر نفسك، وأن ترى عيوبك دون أن تفقد رجاءك، وأن تسعى إلى الإصلاح دون أن تطلب من نفسك ما لم يطلبه الله منك، وليس معنى ذلك أن نرضى بأخطائنا أو نتخذ الضعف ذريعة للمعصية؛ فهناك فرق بين أن تعرف أنك بشر تخطئ فتجاهد نفسك، وبين أن تستسلم للخطأ وتجعله عذراً.

وقد يقسو الإنسان على نفسه؛ فيطالبها بمستوى من العبادة لا يستطيع الاستمرار عليه، ثم إذا عجز ترك الكثير، والنبى ﷺ يقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»، عن عائشة رضي الله عنها،^٢؛ فطريق العبادة يحتاج إلى صدق واستمرار، لا إلى اندفاع ينطفئ سريعاً.

وفي زمن التطبيقات وقوائم الإنجاز، قد تتحول العبادة عند بعض الناس إلى أرقام: كم ختمت؟ وكم حفظت؟ وكم قياماً صليت؟ ولا حرج في تنظيم الطاعة ومحاسبة النفس، لكن الخطر أن تصبح الأرقام وحدها مقياساً للقرب من الله؛ فالعمل الصالح يحتاج إلى إخلاص وصدق، وينبغي أن يظهر أثره في القلب والسلوك؛ فلا تسأل نفسك فقط: كم فعلت؟ بل اسأل أيضاً: ماذا غير ما فعلته في قلبي؟ هل زادني خشيةً ورحمةً وصدقاً؟ وهل أبعدني عن المعصية؟

وقفة مع النفس

اكتب ثلاثة أشياء تظن أنك يجب أن تكون كاملاً فيها، ثم اسأل نفسك: هل كُلفت بالكمال، أم كُلفت ببذل الوسع والمجاهدة؟

ثم اختر عيباً واحداً تعرفه في نفسك، وضع له خطوة عملية واضحة؛ فإن كنت سريع الغضب؛ فتدرب على الصمت عند اشتداده، وإن كنت كثير التششت؛ فأغلق بعض أبواب التشتيت، وإن كنت تتأخر عن الصلاة؛ فابحث عن سبب تأخرك وعالجه، وإن كنت تعود إلى ذنب؛ فلا تكتفِ بالندم، بل اقطع أسبابه وتب إلى الله.

١ سورة الأعراف: ٢٣

٢ صحيح البخاري (٦٤٦٤)

وإذا تعثرت؛ فلا تهدم ما بنيته كله بسبب سقوط واحد؛ ارجع وأصلح واستأنف، ولا تجعل وهم الكمال يحرمك نعمة التقدم؛ فقد لا تصبح اليوم الإنسان الذي تتمنى أن تكونه، لكن يمكنك أن تكون اليوم أفضل من نفسك بالأمس. فالنجاة ليست في أن تصبح كاملاً، وإنما في أن تظل صادقاً في السير إلى الله؛ كلما عرفت نقصك، ازددت افتقاراً إليه، وكلما تعثرت، عدت إلى بابه.

حين تتعلم أن تبدأ من جديد

هناك لحظات يشعر فيها الإنسان أن ما مضى قد أثقل عليه، حتى لم يعد يعرف كيف يبدأ؛ ذنب طال، وعادة سيئة تكررت، وعلاقة أفسدها بيده، وعبادة انقطع عنها، ووعود كثيرة قطعها لنفسه ثم لم يف بها.

وقد لا يكون أصعب ما في السقوط هو السقوط نفسه، وإنما الفكرة التي تأتي بعده : لقد فات الأوان، يقول الإنسان لنفسه: حاولت كثيراً ولم أغير، تبت ثم عدت، بدأت ثم انقطعت؛ فماذا بقي لي؟

وهنا يحتاج القلب إلى أن يتعلم أن البداية الجديدة لا تحتاج إلى ماضٍ مثالي، وإنما تحتاج إلى صدق في الرجوع إلى الله؛ فباب التوبة مفتوح، ما دام العبد حياً، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^١.

تأمل نداء الله: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ مع وصفهم بالإسراف على أنفسهم؛ فالذنب لا ينبغي أن يتحول إلى هوية، والخطأ لا ينبغي أن يصبح حكماً أبدياً على الإنسان، قد تقول: عصيت، لكن لا تقل: لا أستطيع أن أغير، وقد تقول: قصرت، لكن لا تقل: لا فائدة من التوبة، وقد تسقط، لكن لا تجعل سقوطك تعريفاً نهائياً لنفسك.

والطريق إلى الله لا يحتاج دائماً إلى بداية صاخبة؛ أحياناً يحتاج إلى خطوة هادئة صادقة: ركعتين بعد انقطاع، وصفحة من القرآن بعد هجر، واستغفار بعد غفلة، واعتذار لمن ظلمته، وردّ حق إلى صاحبه، أو إغلاق باب معصية اعتدت دخوله.

ومن أعظم ما يعلمنا معنى البداية الجديدة قصة كعب بن مالك رضي الله عنه؛ فقد أخطأ حين تخلف عن غزوة تبوك من غير عذر، لكنه صدق مع النبي ﷺ ولم يخلق عذراً؛ فاشتدت عليه مشقة البلاء حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ثم تاب الله عليه، يقول سبحانه: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا

إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ^١، لم تكن قصته قصة إنسان لم يخطئ، بل قصة إنسان أخطأ ثم صدق في الرجوع والإصلاح.

فالتوبة ليست محوًا للماضي من الذاكرة، وإنما تغييرًا لطريقة التعامل معه؛ بدل أن يكون سجنًا تعيش فيه، يصبح درسًا تتعلم منه، وقد قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^٢، وهذا لا يعني سقوط حقوق الناس؛ فمن كان عليه حق للخلق؛ فعليه رده أو التحلل من صاحبه بحسب الحال.

وقد تكون البداية الجديدة أصعب لأنك تحمل ذاكرة بدايات فاشلة، لكن لا يلزم أن تعيد التجربة بالطريقة نفسها؛ غير أسباب التعثر، وابدأ بما تستطيع، واجعل خطوتك صغيرة قابلة للاستمرار.

وقفت مع النفس

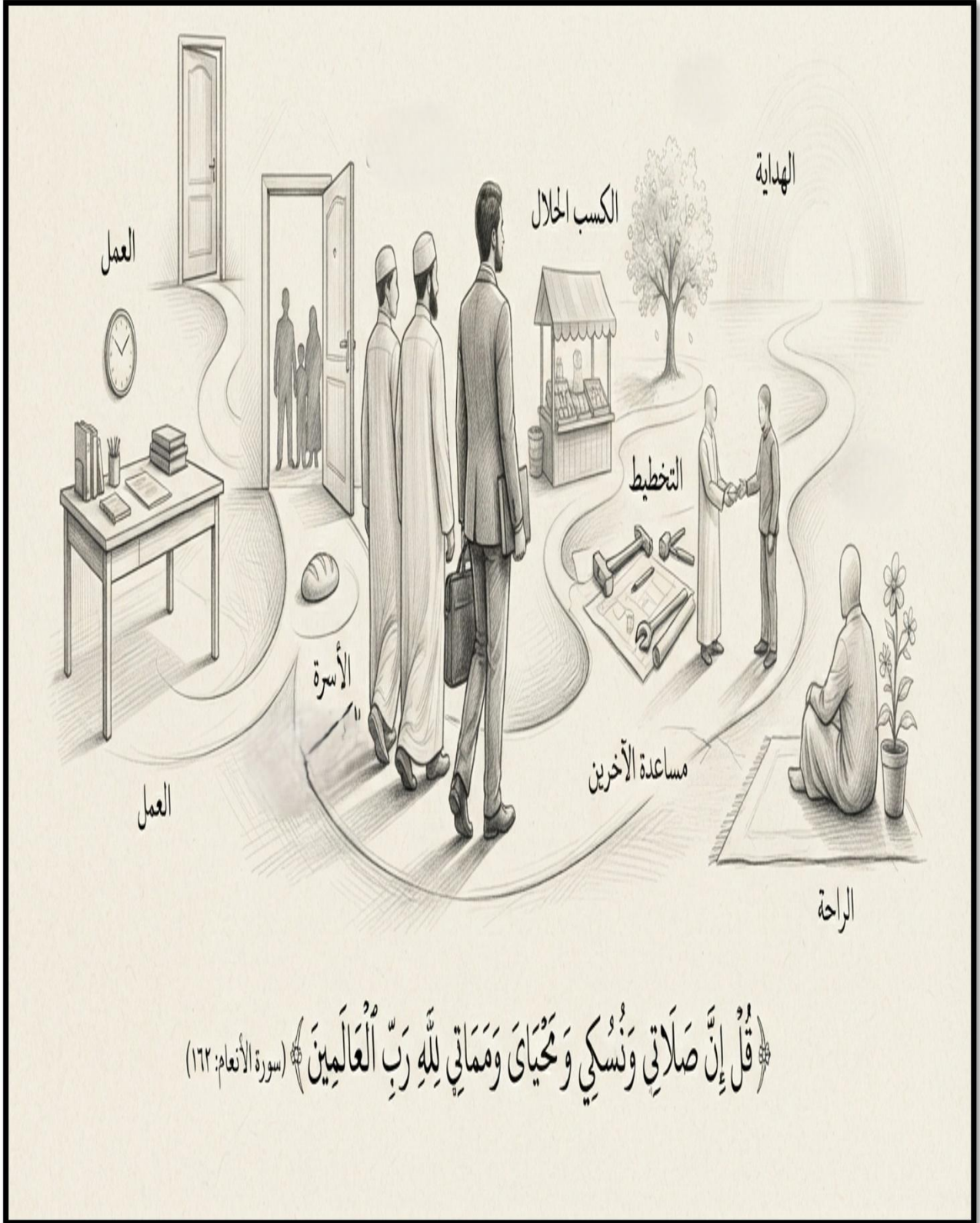
ما الشيء الذي تؤجل البداية فيه لأنك تظن أنك تأخرت؟ وما الذنب أو العادة التي جعلتك تعرف نفسك بها؟ وما الخطوة الصغيرة التي تستطيع أن تفعلها اليوم؟ لا تنتظر شعورًا مثاليًا حتى تبدأ؛ صلّ وإن شعرت بالفتور، وافتح القرآن وإن لم تجد الشوق، واستغفر وإن أثقلت الذنوب، وأصلح ما تستطيع وإن كان إصلاحك بطيئًا. وإذا تعثرت غدًا؛ فلا تقل: انتهى كل شيء؛ قل: سأبدأ من جديد.

يا من أثقلت أخطائك، لا تجعل الماضي يحرمك من المستقبل؛ ويا من طال انقطاعك، لا تجعل طول الغياب يمنعك من العودة؛ أبدأ من حيث أنت، وبما تستطيع، وتب إلى الله، وخذ بالأسباب، وامض؛ فليس المطلوب أن تعود بلا أثر من الماضي، وإنما أن تجعل ما مضى سببًا لصدق أكبر، وتوبة أعمق، وسير أثبت إلى الله.

١ سورة التوبة: ١١٨

٢ أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (١٠/١٥٠)، والقضاعي في ((مسند الشهاب)) (١٠٨)

حين تعيش لله في تفاصيل الحياة



حين تعيش لله في تفاصيل الحياة

سنحاول أن نفهم كيف نتعامل مع الحياة حين لا تأتى كما خططنا لها، وحين يتغير طريق كنا نظنه الطريق الوحيد؛ فالتسليم لله لا يعنى ترك الأسباب، والرضا بقضاء الله لا يعنى ترك السعى فى إصلاح الواقع، وسنتأمل كذلك تلك النعم التى قد لا نلتفت إليها لأنها جاءت فى صورة عادية؛ صحة، ووقت، وأهل، وعمل، وأمان، وفرص صغيرة تتكرر كل يوم دون أن نشعر بقيمتها.

وهنا نتعلم أن الإيمان الحقيقى لا يظهر فقط فى لحظات الخلوة، وإنما يظهر كذلك فى المكتب، والسوق، والأسرة، والقرارات، والانتظار، وفى الطريقة التى يتعامل بها الإنسان مع ما يملك وما يفقد فالله سبحانه لا يعبد فى أوقات محددة فقط؛ بل تكون حياة المؤمن كلها لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

القرب من الله ليس حالة يعيشها الإنسان فى المسجد ثم يتركها عند باب العمل والبيت والطريق، بل هو معنى من معاني العبودية يظهر أثره فى تفاصيل الحياة كلها.

فالمؤمن يجعل عمله وكسبه وعلاقاته وقراراته ومسؤولياته وراحته ميداناً للعبودية، ومن هنا ننتقل إلى سؤال عملي: كيف يعيش الإنسان لله وهو يعمل ويسعى ويخطط ويواجه مسؤولياته اليومية؟

وسنتأمل معنى البركة، وكيف تعظم الأعمال الصغيرة بالنية الصالحة والعمل الصحيح، ونتحدث عن الرزق والسعي، والفرق بين التوكل والتواكل، وبين الثقة بالله والأخذ بالأسباب.

وستتوقف عند الانتظار وتأخر النتائج، والأبواب التى تُغلق أمامنا، والأمور التى لا نفهم الحكمة منها؛ وسنتعلم أن عدم فهمنا لحكمة معينة لا يعنى غياب الحكمة، وأن على العبد أن يثق بعلم الله وحكمته، مع قيامه بما يستطيع من أسباب الإصلاح.

في زحام الدنيا لا تنسَ الله

تبدأ الحياة كل صباح قبل أن نلتفت إلى قلوبنا؛ هاتف يوقظك، ورسائل تنتظرك، وأخبار تتدفق، ومواعيد تتزاحم، وعمل يحتاج إلى إنجاز، وأسرة لها حقوق، ومهام لا تنتهي، ثم يمضي اليوم سريعاً، وقد أنجز الإنسان عشرات الأشياء، لكنه في آخره يكتشف أنه نسي أهم شيء: قلبه.

لم يعد زحام الدنيا مجرد شوارع وأسواق وأسفار؛ فقد أصبحت الدنيا تدخل إلى غرفتك وترافقك حتى فراشك، وتستطيع شاشة صغيرة أن تنقلك في ثوانٍ بين خبر وآخر، وصورة وأخرى، ومحادثة ومحتوى لا ينتهي.

وليست المشكلة في التقنية ذاتها؛ فهي وسيلة قد تُستعمل في الخير أو الشر، وإنما المشكلة حين تستولي الوسائل على الوقت والانتباه، حتى يصبح الإنسان حاضراً في كل مكان إلا مع نفسه، ومتابعاً لكل شيء إلا ما يصلح قلبه وعلاقته بالله.

ومن صور الغفلة أن ينشغل الإنسان بما بين يديه من نعم ومشاغل عن طاعة ربه وذكره، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^١؛ فتأمل قوله سبحانه: ﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾؛ فالأموال والأولاد نعم، وإنما الخطر أن يشغلك ما تحب عما هو أولى من حقوق الله وطاعته، وقد يكون الملهي اليوم هاتفاً لا تتركه، أو عملاً لا ينتهي، أو متابعة مستمرة لحياة الآخرين.

وقد لا يشعر الإنسان أنه ابتعد عن الله؛ فهو لا يزال يصلي ويقرأ القرآن أحياناً، لكن قلبه موزع بين أشياء كثيرة، حتى تصبح علاقته بالله مؤجلة إلى الوقت الذي لا يأتي.

والعبادة لا تحتاج دائماً إلى ساعات طويلة؛ فقد تذكّر الله في طريقك، وتستغفره، وتحسب عملك الحلال إذا صلحت نيتك، وتؤدي حق أهلك، وتغض بصرك عن الحرام، وتترك هاتفك حين يحين وقت الصلاة؛ فليست العبودية حالة منفصلة عن الحياة، وإنما هي أن تجعل ما تستطيع من حياتك موافقاً لطاعة الله ومرضاته.

أن تعيش لله لا يعني أن تهرب من الحياة، بل أن تعيشها وأنت تعرف حق الله عليك، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١؛ فحياة المسلم كلها ينبغي أن تكون لله من جهة قصده وعبوديته، وأن يسعى فيها إلى طاعة الله وطلب رضاه، وما كان من المباحات يمكن أن يؤدي عليه بالنية الصالحة إذا استعان به على الخير وأدى فيه حقوق الله وحقوق عباده.

وقد كان النبي ﷺ يعيش بين الناس، ويخالط أهله وأصحابه، ويقضي حوائج الناس، ويباشر شؤون الحياة، ومع ذلك كان كثير الذكر لله، وقال رسول الله ﷺ منبهاً من الوقوع الدائم في الغفلة: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»^٢ ومن أجمل الأمثلة حياة الصحابي والإمام الراشد ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فقد كان ذا مال وتجارة، ولم يكن المال غاية قلبه، بل جعله وسيلة إلى الخير؛ فبذل من ماله في وجوه البر، وأسهم في تجهيز جيش العسرة، واشترى بئر رومة وجعلها للمسلمين، لم يكن المطلوب منه أن يترك الدنيا، وإنما ألا تملك الدنيا قلبه، وأن تكون في يده وسيلة لا غايةً؛ فاسأل نفسك: هل أملك الأشياء، أم أصبحت الأشياء تملكني؟

وقفت مع النفس

اجعل في يومك مساحة لا تراحم فيها الدنيا عبادتك: صلّ دون استعجال، واجلس مع أهلك بحضور، وخصص وقتاً بلا شاشة، واجعل لك ورداً ثابتاً من القرآن والذكر. أترك هاتفك حين تحتاج أن تكون حاضراً في صلاتك ومع أهلك ومن حولك. الدنيا ليست عدواً؛ هي ميدان تعمل فيه وتتعلم وتتزوج وتربي وتستمتع بما أباح الله، لكن لا تجعلها تأخذ منك البوصلة.

فاذا ازدحمت مشاغلك؛ فلا تؤجل الصلاة، وإذا أخذتك الدنيا بعيداً فارجع، وإذا كثرت الأصوات فامنح قلبك لحظات يذكر فيها ربه فليست العبرة ألا تنشغل، بل ألا تُنسيك مشاغلك الله؛ فابن حياتك، واجعل قلبك معلق به.

١ سورة الأنعام: ١٦٢

٢ صحيح أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

حين يصبح العمل عبادة

يستيقظ الإنسان كل صباح على قائمة طويلة من المهام؛ عمل ينتظره، وفواتير، ورسائل، وأسرة لها حقوق، وطموحات يسعى إليها، وفي وسط هذا الزحام قد تبدو العبادة شيئاً منفصلاً عن الحياة؛ صلاة يؤديها، وقرآن يقرؤه، وذكر يقوله، ثم يعود إلى «حياته» وكأنها شيء آخر.

لكن الإيمان يعيد ترتيب هذه الصورة؛ فالعبودية لا تنتهي بخروجك من المسجد؛ فالعمل الدنيوي المباح قد يكون قرينةً يؤجر عليها المسلم إذا صلحت نيته، وكان عمله حلالاً، وأدى فيه الحقوق والأمانة.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^١

فقد لا تكون في مصلاك، لكنك تؤدي أمانةً في عملك؛ وقد لا ترفع يديك بالدعاء، لكنك تسعى في نفقة أهلِكَ؛ وقد تكتب تقريراً، أو تعالج مريضاً، أو تعلم طالباً، وأنت تستحضر أن الله مطلع عليك، وأن الصدق والأمانة والإحسان من أعظم ما يزين العمل. وهنا يأتي السؤال: هل تعمل لتعيش فقط، أم تستطيع أن تجعل مما تعيشه طريقاً إلى الله؟

ليس الخطأ أن تطمح، أو تطلب الرزق، أو تسعى للنجاح؛ وإنما الخطر أن يصبح النجاح غايةً تستعبد القلب؛ فيخسر الإنسان صلاته، أو يظلم غيره، أو يهمل أسرته، أو يدخل في الحرام بحجة المستقبل.

 **قصة تعلمك معنى العمل لله:** لما آخى النبي ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع رضي الله عنهما، عرض سعد على عبد الرحمن أن يقاسمه ماله؛ فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق فاختر عبد الرحمن أن يسعى ويعمل، ثم أصبح من أهل التجارة والإنفاق، كان المال في يده، ولم يكن غايةً تستولي على قلبه

وهنا الدرس: ليس المطلوب أن تهرب من الدنيا، وإنما ألا تجعل الدنيا هي التي تقودك؛ بل اجعل سعيك فيها منضبطاً بالحلال والأمانة والحقوق قال الله تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴿١﴾ فَإِذَا تَقَانُ الْأَمَانَةَ مِنْ صَمِيمِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لَا تَعْمَلْ جَيِّدًا طَلَبًا لِمَدْحِ النَّاسِ فَحَسَبَ، بَلْ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِإِدَاءِ الْحَقِّوْقِ وَالْإِحْسَانِ فِيمَا أُؤْتِمِنْتَ عَلَيْهِ.

🌱 وقفة مع النفس: قبل أن تبدأ عملك، اسأل نفسك: لماذا أعمل؟ وهل في عملي حق لله أو حق لعباده؟ وهل أؤدي ما أُؤْتِمِنْتُ عليه كما ينبغي؟ ثم أصلح نيتك، وأحسن عملك، واترك ما فيه ظلم أو حرام. ولا تجعل طموحك عدوًا لإيمانك؛ اعمل، واسع، وتعلّم، وابن، وأنجز، لكن لا تنسَ لمن تعمل؛ فالنجاح الحقيقي لا يقاس بما تجمعه وحده، وإنما بما تناله من خير مع حفظ دينك وحقوق من حولك. فقد تكون في مكتبك تسعى في رزق حلال، أو في سوقك تؤدي أمانة، أو بين الناس تنفعهم، وكل ذلك قد يصبح جزءًا من طريقك إلى الله. وحين تصلح النية، ويستقيم العمل، وتؤدي الحقوق، تصبح مهنة الإنسان أكثر من وسيلة للعيش؛ تصبح ميدانًا للعبادة والإحسان.

كيف تعيش لله وسط مشاغلك؟

ليست المشكلة دائماً أن الإنسان لا يريد أن يعبد الله؛ فقد يريد ذلك بصدق، لكنه يعيش في عالم لا يترك له كثيراً من الهدوء: هاتف، ورسائل، وعمل، ودراسة، وأسرة، والتزامات تتوالى، حتى ينتهي اليوم وهو يشعر أنه كان مشغولاً طوال الوقت ولا يدري أين ذهب يومه.

وفي عصر التقنية، لم تعد المشاغل محصورة في مكان معين؛ فالعمل والأخبار والمواعيد والتنبيهات تلاحق الإنسان أينما كان، حتى أصبح الهدوء نفسه نادراً. وهنا لا ينبغي أن يكون السؤال: كيف أجد وقتاً إضافياً لأعبد الله؟ بل: كيف أجعل حياتي كلها تسير في الاتجاه الذي يرضي الله؟

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١.

فالمؤمن لا يحتاج إلى الهروب من حياته حتى يعيش لله؛ بل يحتاج إلى تصحيح نيته، والاستقامة في عمله، وأداء ما أوجب الله عليه، وجعل المباح وسيلة إلى الخير، يذهب إلى عمله مستحضراً الأمانة، ويجلس مع أهله مؤدياً حقوقهم، ويتعلم وينفع، ويستريح ليستعين على الطاعة، ويستخدم التقنية فيما ينفع، ويتركها حين تتحول إلى استنزاف للوقت والانتباه.

وعندما آخى رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما؛ فزار سلمان أبا الدرداء، ورأى أن اجتهاده في العبادة قد جاء على حساب بعض حقوق نفسه وأهله؛ فلما علم النبي ﷺ بما جرى قال: «صدق سلمان».

وفي الرواية قال سلمان لأبي الدرداء: إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا؛ فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَاتِّبِا النَّبِيَّ ﷺ؛ فَذَكَرَا ذَلِكَ؛ فَقَالَ لَهُ: صَدَقَ سَلْمَانُ^٢.

١ سورة الأنعام: الآية ١٦٢

٢ صحيح الترمذي (٢٤١٣) أخرجه البخاري (١٩٦٨)

وهذه قاعدة عظيمة في بناء الحياة المتوازنة؛ فليس من العبادة أن يهمل الإنسان جسده أو يضيع حقوق أهله، كما لا يجوز أن يجعل طلب الرزق سببًا لتضييع الفرائض. الحكمة أن يعطي كل جانب حقه، وألا يستولي جانب من الحياة على سائر الجوانب.

🌱 حين تصبح التقنية بابًا للغلظة

قد تفتح هاتفك لدقيقة فتضيع ساعة، وتؤخر الصلاة لشاشة لا تشبع؛ فتوقف واسأل: من يملك وقتي؟ أنا أم الإشعارات؟

التقنية ليست عدوًا، بل أداة نافعة إن أحسنت استخدامها. اجعلها في يدك لا في قلبك، وسيلة للعلم والعمل لا لتشتيت العمر.

🌱 كيف تعيش لله وسط مشاغلك؟

- الصلوات الخمس محطات ثابتة لا تفاوض عليها.
 - ورد يومي من القرآن والذكر بعيدًا عن الهاتف.
 - أطفئ الإشعارات عند التركيز، واحضر مع أهلك.
 - خصص دقائق بلا شاشة للمراجعة والدعاء.
- لا تنتظر حياة خالية من المسؤوليات؛ المشاغل تتغير لا تنتهي؛ فتعلم طاعة الله وسط انشغالك.

قبل النوم، راجع يومك: ماذا قربك إلى الله؟ وماذا أضاع وقتك؟

🌱 اختر ثلاث عادات ثابتة: صلاة بحضور، وردًا قصيرًا، وفترة تركيز، واستبدل عادة رقمية مستنزفة. الثبات على القليل خير من حماسة تنطفئ.

وتذكر: لست مطالبًا بالخروج من الدنيا، بل بالألا تخرج من طاعة الله فيها. اعمل، وتعلم، وابن، وارتح، واستخدم التقنية، ولكن بنية صادقة وحقوق محفوظة. الحياة ليست خارج طريق الله؛ إنها ميدان عملك وابتلائك، وفيه تُبنى عاداتك وتُكتب أعمالك.

حين يصبح الوقت أمانة

من أعظم النعم التي يُغفل عنها الوقت. يمضي ولا يُدخر، ولا يُستعاد، يمر العمر بهدوء، حتى يلتفت الإنسان فيجد سنوات قد مضت.

وفي عصرنا ازدادت المشتتات؛ إشعار يقطع التركيز، ومقطع يقود لآخر، ورسالة تستدعي أخرى، حتى تمضي ساعات ولا تدري أين ذهبت؛ فالسؤال الأهم: فيم أستمعمل الوقت الذي أعطيت؟ ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾^١ فالنَّجاة ليست في كثرة الأيام، بل في ملئها بالإيمان والعمل. الوقت ليس فراغاً

لا تنتظر ظروفاً مثالية؛ فالمسؤوليات لا تنتهي. المشكلة ليست في قلة الوقت، بل في ترتيب الأولويات وحفظ الانتباه، ولا تتحول إلى آلة إنتاج؛ فالراحة والجلوس مع الأهل مباح، وقد يؤجر عليه بالنية.

حين يستهلك الهاتف انتباهك أوقف الإشعارات، وحدد أوقاتاً للتصفح، ولا تجعله أول وآخر ما تراه، ولا تدع كل إشعار يقطع عبادتك أو عملك.

ماذا لو تذكرت أن يومك لن يعود؟ قال ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه...» فالعمر نعمة ومسؤولية، لا ساعات بلا حساب.

وقفة عملية: سجّل يوماً أين يذهب وقتك، واقسمه إلى: واجب، نافع، ومستهلك، خفف عادة واحدة من المستهلك، وأضف عملاً صالحاً ثابتاً ولو دقائق؛ فلا تحتقر الصغير؛ فالعمر من اللحظات.

لا تقل: ماذا سأفعل عندما أجد وقتاً؟ بل: ماذا ينفعني أن أفعل بهذا الوقت الذي أعطاني الله؟ وحين تراه أمانة، لن يكون يومك مجرد ساعات، بل فرصة للإيمان والعمل؛ فتصبح الصفحة التالية خيراً من التي قبلها.

بركة الأشياء الصغيرة

يعيش الإنسان منتظرًا الأشياء الكبيرة ليشعر أن حياته تمضي في الاتجاه الصحيح: ترقية، بيت أوسع، مال أكثر؛ إنجاز يثبت تقدمه، وبينما يترقب ذلك، تمر أمامه نعم صغيرة كل يوم دون أن يتوقف عندها: صحة، والدين، أهل، طعام، ماء، صلاة، وقلب يعرف طريق العودة إلى الله.

وفي زمن اعتاد الصور الكبيرة، أصبح من السهل أن يظن أن ما لا يلفت الانتباه لا قيمة له؛ لكن العمل الصغير قد يعظم عند الله بالإخلاص وحسن القصد. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^١ فلا تحتقر قليل الخير؛ فإله لا يضيع أجر المحسنين.

حين يصبح القليل كثيرًا

قال رسول الله ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^٢؛ فليست العبرة بكثرة العمل ثم الانقطاع، بل بالمداومة على القليل: صفحات من القرآن، ركعتان، صدقة يسيرة، ذكر، صلة رحم، كلمة طيبة. المداومة تربي النفس، وتصنع عادة راسخة.

قصة النملة

قال تعالى عن نملة: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾^٣ ففي مخلوق صغير وموقف يبدو يسيرًا عبرة عظيمة؛ فلا تقل: «أنا شخص واحد، ماذا يمكن أن أفعل؟»؛ فكلمة طيبة قد تثبت إنسانًا، وصدقة يسيرة قد تفرج كربة.

 البركة ليست في الكثرة؛ قد يملك الإنسان الكثير ولا يجد الكفاية، وقد يملك القليل فيجد فيه بركة وطمأنينة، وفي عصر التقنية، قد تكون البركة في أشياء لا يراها أحد: تغلق هاتفك لتجلس مع والديك، تترك تعليقًا جاريًا، تتحقق من خبر، ترسل كلمة طيبة، ليست كل قيمة تحتاج إلى إعجاب.

 لا تنتظر الحياة المثالية؛ لا تقل: سأقرأ القرآن عندما أرتب وقتي، أو سأصدق عندما يزيد دخلي. ابدأ بما تستطيع: آيات بدل صفحات، صدقة قليلة بدل مبلغ كبير، ركعتان بدل قيام طويل، ولا تجعل عجزك عن الكثير سببًا لترك القليل.

١ سورة الزلزلة: الآية ٧.

٢ أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).

٣ سورة النمل، الآية ١٨.

وقفت مع النفس

اختر ثلاثة أعمال صغيرة لهذا الأسبوع: عملاً خفياً بينك وبين الله، وعملاً ينفع إنساناً من حولك، وعادة تصلح بها وقتك أو قلبك، واجعلها يسيرة لتداوم عليها، ولا تستعجل الثمرة؛ فبعض البذور تبقى تحت التراب قبل أن تظهر، والله لا يضيع أجر العمل الصالح.

النتيجة: ليست البركة أن تفعل أشياء عظيمة في يوم واحد، بل أن يوفقك الله إلى خير تداوم عليه، ويجعل في القليل أثراً يتجاوز حجمه؛ فلا تحتقر صغير الخير؛ فقد يكون صغيراً في عينك، عظيم الأثر بإخلاصك وبركة الله فيه.

الرزق الذي لا تراه

يعيش الإنسان كثيرًا وهو يحسب رزقه بما يستطيع أن يراه ويعده: راتب يدخل حسابه، وطعام على مائدته، وبیت يسكنه، ومال يدخره، وفرصة يحصل عليها؛ فإذا زاد شيء من ذلك قال: «لقد اتسع رزقي»، وإذا نقص قال: لقد ضاق رزقي.

لكن الرزق أوسع من المال، وأعمق من الأشياء التي تستطيع أن تضع لها رقمًا؛ فقد يكون في صحة لا تشعر بقيمتها لأنك لم تفقدها، وفي والدين وأهل، وصديق صادق، وعقل يفهم، وأمن تعيشه، وستر لا تشعر به، وشر صرفه الله عنك وأنت لا تعلم.

وقد يكون من أعظم النعم أن يوفقك الله إلى التوبة بعد ذنب، وأن يفتح لك بابًا من الخير لم يكن في حسابك، وأن يهديك إلى ما يصلح قلبك وعملك والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^١.

فالرزق بيد الله، لكن هذا لا يعني ترك السعي؛ بل يأخذ المؤمن بالأسباب، ويطلب الحلال، ويجتهد، وقلبه معلق بالله لا بالأسباب وحدها، يسعى بجوارحه، ويتوكل على ربه بقلبه، ويعلم أن الأسباب لا تعمل بنفسها، وإنما تقع النتائج بتقدير الله ومشيئته.

حين يصبح الراتب مقياسًا للرزق

في زمن تُقاس فيه أشياء كثيرة بالأرقام، قد يصبح الراتب عند بعض الناس مقياسًا وحيدًا للرزق، ثم تبدأ المقارنة: بيت أجمل، وسيارة أحدث، وسفر أكثر، ومشروع أكبر؛ فيتحول ما عند الإنسان من نعمة إلى مصدر قلق؛ لأنه لا ينظر إلى رزقه، بل إلى ما في أيدي الآخرين، بينما يحذرنا الله سبحانه وتعالى من هذا السلوك: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^٢.

والذي تراه على الشاشة ليس كل الحقيقة؛ ترى النتيجة ولا ترى الطريق، والصورة ولا ترى ما وراءها، والنعمة ولا تعرف تكلفتها؛ فلا تجعل حياتك الكاملة في مقارنة مع لحظات منتقاة من حياة الآخرين.

١ سورة هود: الآية ٦.

🌱 **حين يأتي الخير من حيث لا تحتسب:** خرج موسى عليه السلام من مصر خائفاً؛ فوصل مدين؛ فسقى للمراتين، ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ ومعناها أن العبد يفعل ما يستطيع من الخير، ويعترف بافتقاره لربه، ثم يمضي دون أن يعلم كيف تأتيه الأبواب، وقد جاءه بعد ذلك من فضل الله؛ فليست العبرة أن ينتظر بلا سعي، بل أن يعلم أن الأسباب ليست كل القصة، وفضل الله أوسع من حساباته.

🌱 **أحياناً يكون المنع باباً لا نعرف حكمته:** قد تمنى وظيفة فلا تحصل، أو مشروعاً فيتعطل، أو باباً يبقى مغلقاً، لا نجزم في كل حالة بأن المنع خير معين نعرفه؛ فالحكمة من الغيب، لكن المؤمن يأخذ بالأسباب، ويرضى بقضاء الله، ويبحث عن أبواب الخير المتاحة، قل: «لعل الله قدّر لي خيراً فيما لا أعلم»، ولا تجعل قلبك أسيراً لباب واحد.

🌱 **الرزق الذي لا يظهر في كشف الحساب:** أن تستطيع الصلاة، وتجد خشية تعينك على ترك المعصية، ويرزقك الله القناعة والتوبة؛ كل ذلك من النعم التي لا تدخل في كشف الحساب، وفي هذا النوع من الرزق يقول رسول الله ﷺ: «يا أيُّها النَّاسُ إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُؤْتِي عَبْدَهُ مَا كَتَبَ لَهُ مِنَ الرِّزْقِ فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حُرِّمَ»؛ فليس الغنى أن تحصل على كل ما تريد، بل أن يستغني قلبك عما في أيدي الناس، مع استمرارك في طلب الحلال.

وفي زمن المقارنة الرقمية؛ إذا ضاق قلبك بما عند غيرك وأنت تنظر إلى ما رزقهم الله؛ فاسأل نفسك: ما النعم التي أعيشها ولا أنتبه إليها؟ اكتب اليوم عشرة أرزاق لا علاقة لها بالمال: صحة، أهل؛ إيمان، أمن، علم، صديق، قدرة على العمل، ستر؛ فرصة للتوبة، ونعمة لم تنتبه إليها بعد، واحمد الله عليها.

لا تجعل الرزق يسرق منك الرضا؛ اسع واطلب الحلال، ولا تجعل قيمتك معلقة برقم، ولا سعادتك بما في أيدي الآخرين؛ فقد يأتي رزقك مالاً، أو عافية، أو علماً، أو إنساناً صالحاً، أو سترًا، أو هداية، أو صرفاً لشر، أو باباً لم تكن تراه؛ فلا تحصر رزق الله فيما تراه؛ فقد تكون محاطاً بنعم كثيرة، وما زلت تتعلم كيف تسميها: رزقاً.

١ أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١)، والترمذي (٢٣٧٣)، وابن ماجه (٤١٣٧)، وأحمد (٧٣١٦) مختصراً.

ما بين السعي والتسليم

قد يقف الإنسان حائرًا بين بذل الجهد والرضا بالقدر؛ فيتساءل: كيف أسعى دون تعلق؟ وكيف أتوكل دون تعطيل؟ وكيف أرضى وأنا أتمنى غير ما حدث؟ في زمن السرعة والمقارنة، نرى نتائج الآخرين دون مشقتهم؛ فنظن أن التأخير فشل، وننسى أن علينا السعي، لا امتلاك النتائج وقد قال رسول الله ﷺ: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز؛ فالمؤمن يأخذ بالأسباب، لكنه لا يعتمد عليها؛ فالتوفيق بيد الله.

قد تسعى لرزق، أو علم، أو زواج، أو مشروع، لكن لا تعلق قلبك بصورة واحدة للمستقبل. الأسباب تؤخذ، والقلب يتوكل.

تأمل مريم عليها السلام: أمرت بهز النخلة في ضعفها، ولم تُكَلِّف بالنتيجة، وكذلك أنت: قد لا تفتح الباب، لكنك تطرقه؛ قد لا تضمن الرزق، لكنك تطلبه بالحلال.

ثم تبقى مساحة الغيب والنتائج، وهي لله وحده.

وفي قصة أم موسى: أرضعت ثم ألقت في اليم بتفويض؛ فعلت ما عليها، وسلّمت ما وراء قدرتها.

التسليم ليس تهاونا، بل بذل الجهد، ثم عدم الانهيار إن خالفت النتيجة الهوى، تحزن، لكن لا تعترض، ولا تتوقف.

قل: اللهم إني بذلت ما أستطيع، وأنت أعلم بما يصلح لي؛ فما كان خيرًا فبارك لي فيه، وما كان غيره فاصرف قلبي عنه، وافتح لي خيرًا منه.

 **وقف مع النفس:** ليس التوكل ترك المجداف، ولا الاعتماد عليه نسيانًا لله؛ بل أن تجدف وتستعين، ثم ترضى بما يجري به القدر وحين يتوازن القلب، لا يغرّه نجاح، ولا يكسره فشل؛ لأنه يعلم أن مهمته السعي، وما وراء ذلك فإلى الله.

حين تتأخر النتائج

من أكثر ما يتعب الإنسان أن يبذل ثم لا يرى ثمرة ما بذل، وأن يدعو ثم لا تأتي الإجابة بالصورة التي يريدها، وأن يعمل طويلاً دون أن تظهر النتيجة التي انتظرها. وفي عصر السرعة، يزداد هذا الألم؛ فالشاشات تعرض لك نجاحات الآخرين، وترى من بدأ بعدك ثم سبقك، ومن وصل إلى ما كنت تتمنى؛ فتقارن بدايتك بنهاية غيرك، ثم يتحول تأخر النتيجة إلى شك في الطريق أو في النفس.

وهنا يحتاج المؤمن إلى أن يتعلم معنى عظيمًا: ليس كل تأخر شرًّا، ولا كل تعجيل خيرًا؛ فالله سبحانه أعلم بما يصلح لعبده، ومتى يكون الشيء خيرًا له، وما الذي يخفى عليه من عواقب الأمور.

ويقول سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

أنت ترى الباب المغلق، ولا ترى ما وراءه؛ وترى تأخر الأمر، ولا تعلم ما قد يكون فيه من خير أو دفع لشر؛ وترى طريقك متأخرًا عن غيرك، ولا تعلم ما قدر الله لك من مسار يختلف عن مساراتهم.

لكن هذا لا يعني أن نجزم بأن كل تأخير لحكمة معينة نعرفها؛ فحكم الله في أقداره أوسع من علمنا، وإنما يحسن المؤمن الظن بربه، ويأخذ بالأسباب، ويصبر، ويفوض ما غاب عنه إلى الله.

وقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك»؛ رواه الترمذي.

هذه الكلمات لا تدعوك إلى ترك السعي، بل تحررك من استنزاف القلب بعد بذل السبب؛ أفعَل ما تستطيع، ثم لا تعش أسيرًا لما لا تملك.

يقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١، وهذا درس لمن طال انتظاره: لا تجعل المرحلة الحالية تعريفاً نهائياً لحياتك؛ إذا كنت في بداية الطريق؛ فلا تحتقر البداية؛ وإذا تأخرت الثمرة؛ فلا تتوقف عن سقي الشجرة. قد لا ترى أثر تربيتك في أبنائك الآن؛ فاستمر في الإحسان؛ وقد لا ترى ثمرة إصلاح نفسك سريعاً؛ فلا تعد إلى ما تركته لله؛ وقد تعمل في الخير ولا ترى أثره، والله يعلم ما خفي عنك.

لا تجعل تأخر الإجابة سبباً لترك الدعاء؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي»^٢. اعمل، وادعُ، واستعن بالله، ثم اترك له ما لا تملكه؛ أن جاءت النتيجة كما تحب فاشكر الله، وإن جاءت على غير ما تحب فاسأله الهداية والرضا، وإن طال انتظارك فاستمر في السير.

فأنت لا تحتاج أن تعرف متى تأتي الثمرة حتى تواصل الزراعة. يكفي أن تعلم أن عليك أن تبذل وسعك، وأن الله سبحانه حكيم في قضائه، لطيف بعباده، وأن طريقك إليه لا يتوقف على نتيجة واحدة.

١ سورة يوسف: ٢١

٢ صحيح الترمذي (٣٣٨٧) أخرجه البخاري (٦٣٤٠) واللفظ له، ومسلم (٢٧٣٥)

ليس كل تأخير حرماناً

من أكثر ما يربك القلب أن يرى الشيء الذي يريده بعيداً عنه؛ فيظن أن تأخره يعني فقدانه، وأن الباب الذي لم يُفتح اليوم لن يُفتح أبداً؛ وينسى في لحظة الانتظار أن ما يراه حرماناً قد يكون وراءه خير لا يعلمه.

نحن نعيش في زمن تعودنا فيه على السرعة؛ بضغطة زر يصل الطعام، وبثوانٍ تصل الرسالة، وبنقرة نعرف أخبار العالم، حتى أصبحنا نريد من الحياة أن تعمل بالطريقة نفسها: نطلب فنريد الإجابة فوراً، ونسعى فنريد الثمرة سريعاً، وندعو فنريد أن نرى ما دعونا به أمام أعيننا.

وحين لا يحدث ذلك، يبدأ السؤال: لماذا تأخر ما أريد؟ ثم قد يتحول السؤال إلى حكم: ربما لن يكون لي.

وهنا يحتاج القلب إلى أن يتذكر أنه لا يرى إلا جانباً واحداً من الحكاية؛ قد ترى الباب المغلق، ولا ترى ما وراءه، وقد ترى الشيء الذي لم تحصل عليه، ولا تعلم ما الذي كان سيترتب عليه لو حصلت عليه ويقول الله سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

فالآية لا تعني أن كل ما يتأخر سيأتي لاحقاً، ولا أن كل ما نتمناه سيكون خيراً لنا؛ وإنما تربّي فينا معنى أعمق: أن علمنا محدود، وأن علم الله كامل، قد يكون الخير في أن يأتي الأمر بعد حين، وقد يكون في ألا يأتي، وقد يكون في أن يصرف الله عنك أمراً إلى ما هو أنفع لك، وقد تكون الحكمة مما لا نعلمه أصلاً.

وهنا تظهر حقيقة التسليم؛ ليس أن تتوقف عن التمني أو تتظاهر بأنك لا تحزن، وإنما أن تقول: يا رب، أنا أريد، وأنت أعلم؛ أسعى فيما أستطيع، وأدعوك فيما أعجز عنه، وأرضى بقضائك، وأستعين بك على ما تختاره لي.

وقد قصّ الله علينا قصة موسى عليه السلام مع الخضر، وفيها تذكير بحدود علم الإنسان؛ فقد رأى موسى أفعالاً لم يفهم حكماتها في البداية، ثم بيّن له الخضر ما خفي عليه من أسبابها، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^١. فليس كل ما لا نفهمه شرّاً، وليس كل ما يؤلمنا حرماناً، ولا يجوز لنا أن نجزم بسبب غيبي معين لكل تأخير من غير دليل وقد نعرف بعض الحكم، وقد تخفى علينا، والمؤمن لا يخترع تفسيراً للغيب، وإنما يثق بحكمة الله، ويأخذ بالأسباب، ويحسن الظن بربه.

وتأمل كم مرة ظننت أن أمراً معيناً هو الخير كله، ثم اكتشفت بعد زمن أنك كنت ستتعب لو حصلت عليه؛ وكم باباً بكيت لأنه أغلق، ثم حمدت الله أنه لم يفتح؛ وكم فرصة ظننت أنها ضاعت، ثم جاءك بعدها ما هو أنفع. لكن ليس معنى ذلك أن كل خسارة ستتحول في الدنيا إلى مكسب ظاهر، ولا أن كل ألم سنعرف حكمته؛ فبعض أقدار الله تبقى حكماتها غيباً عنا، والمؤمن يوقن بأن الله سبحانه حكيم، وأنه لا يظلم عباده.

وفي زمن المقارنات، لا تجعل توقيت الآخرين دليلاً على تأخرك؛ فهذا يتزوج قبلك، وذاك ينجح قبلك، وثالث يبدأ مشروعاً فينتشر سريعاً؛ لكل إنسان قدره وابتلاءاته وأوقاته، ولا يلزم أن يكون ما صلح لغيرك صالحاً لك في الوقت نفسه.

وقفت مع النفس

قد يأتيك ما طلبت، وقد يأتيك غيره، وقد لا يأتيك في الدنيا؛ لكن خسارتك الحقيقية ليست في أن يفوتك شيء من الدنيا، وإنما أن يشغلك الفئات عن طاعة الله والقرب منه.

فرب تأخير لا تعرف حكمته، ورب منع لا تدرك خيره، ورب انتظار كان ميداناً للصبر والدعاء وحسن التوكل، وحين تفهم ذلك، لا يصبح الانتظار فراغاً بين الطلب والإجابة؛ بل يصبح ميداناً جديداً من ميادين العبودية.

الأبواب التي أغلقت، وقد يكون فيها رحمة

من أكثر ما يؤلم الإنسان أن يقف أمام بابٍ ظن أن مستقبله كله وراءه، ثم يراه يُغلق: وظيفة انتظرها، أو مشروعًا تعب من أجله، أو زواجًا تمناه، أو فرصة خشي ألا تتكرر؛ فيأتي السؤال: لماذا أغلق هذا الباب وأنا فعلت ما أستطيع؟

وفي زمن المقارنات والغفلة، يزداد الألم؛ ترى أبواب الآخرين تُفتح، ونجاحاتهم تُعرض أمامك؛ فتظن أنك تأخرت أو أنك أقل من غيرك، بينما أنت لا ترى إلا جانبًا صغيرًا من الصورة.

لكن الإيمان يعلم القلب أن إغلاق الباب ليس بالضرورة إعلانًا عن الفشل، كما لا يصح أن نجزم بأن كل باب أغلق كان رحمةً لسبب معين لا نعلمه؛ فنحن لا نحيط بحكم الأقدار، لكننا نوقن أن الله حكيم عليم، وأن ما يقدره سبحانه واقع بعلمه وحكمته.

وحين تتعلق النفس بما تريد، قد يصعب عليها أن ترى أبعد من رغبتها؛ ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١.

نحن نرى الباب، ولا نرى ما وراءه؛ نرى الفرصة، ولا نعلم تبعاتها؛ نرى ما نتمناه، ولا نعرف عواقبه، لذلك ليس المطلوب من المؤمن ألا يحزن؛ فالحزن على الفقد طبيعة بشرية، وإنما المطلوب ألا يتحول الحزن إلى اعتراض على الله، أو إلى قنوط من رحمته.

قد تبكي لأنك فقدت ما أحببت، ثم تقول: يا رب، لا أفهم، لكنني أثق بحكمتك؛ وقد تتألم من الرفض، ثم تراجع خطتك وتطرق بابًا آخر؛ فالقلب المؤمن لا يقف طويلًا عند سؤال: لماذا لم يحدث ما أريد؟ بل ينتقل إلى سؤال أنفع: ماذا ينبغي لي الآن؟ فكرر في باب أغلق في حياتك، واسأل: ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ ثم افعل ما تستطيع، واترك ما لا تملكه لله، وادعه بما تحب من الخير، كأن تقول: اللهم إن كان

في هذا الأمر خيرٌ لي فيسره لي، وإن كان شرًّا فاصرفه عني، واختر لي برحمتك وحكمتك.

ولا تجعل حياتك وقوفًا أمام باب مغلق؛ فقد يُغلق باب من الدنيا، ويبقى باب التوبة مفتوحًا، وقد تفوتك فرصة، ولا تفوتك قدرة على التعلم والإصلاح، وقد ينتهي طريق، ولا تنتهي أبواب الخير؛ فليس كل باب مغلق عقوبة، ولا كل باب مفتوح إكرامًا؛ وإنما العبرة أن يكون طريقك مرضيًا لله، وربما كان أعظم ما تتعلمه من باب لم يُفتح لك أن الطمأنينة لا تأتي من ضمان المستقبل، وإنما من الثقة بالله، وحسن العبودية له في المستقبل الذي لا تعلمه.

في الطريق الذي لم تختره

أحياناً لا تكون المشكلة في الطريق الذي نمشي فيه، بل في أننا كنا نريد طريقاً آخر؛ كنا نرسم في أذهاننا شكلاً معيناً للحياة، ونضع لها مواعيد محددة، ونظن أن السعادة ستكون في وظيفة بعينها، أو مدينة بعينها، أو علاقة، أو نجاح انتظرناه طويلاً.

ثم يحدث ما لم نحسب له حساباً. يتغير المسار، ويُغلق باب، وتتأخر أمنية، وتنتهي علاقة، أو نجد أنفسنا في مكان لم نختره أصلاً؛ فيسأل القلب: لماذا أنا هنا؟ ولماذا لم تسر الأمور كما أردت؟

وهنا يظهر معنى عميق من العبودية؛ فالإيمان لا يعني أن تسير الحياة دائماً وفق خطتك، وإنما أن تحسن التعامل مع ما يقع؛ فتأخذ بالأسباب، وتستعين بالله، وترضى بقضائه، وتبحث عن الخير فيما تستطيع فعله.

ويقول سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١، وتأمل ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ نحن نرى جزءاً صغيراً من الصورة، أما علم الله فأوسع وأكمل، ولذلك لا يصح أن نجزم بأن كل ما نكرهه خير لنا بعينه، أو أن كل فقد سيعقبه عوض دنيوي مماثل؛ لكن المؤمن يثق بحكمة الله، ويحسن الظن به، ويعلم أن جهله بالحكمة لا يعني غيابها. وحين يتغير الطريق، لا يكن السؤال الوحيد: ماذا خسرت؟ بل أضف إليه: ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟

قد لا تستطيع تغيير ما وقع، لكنك تستطيع أن تختار استجابتك له؛ تصلح ما يمكن إصلاحه، وتتعلم، وتستشير، وتبدأ من جديد، وتترك ما خرج عن قدرتك لله.

وفي قصة أم سلمة رضي الله عنها درس بليغ؛ فقد توفي زوجها أبو سلمة رضي الله عنه؛ فذكرت ما علمها النبي ﷺ عند المصيبة؛ فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة؛ فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في

مصيبي، وأخلف لي خيرًا منها؛ إلا أخلف الله له خيرًا منها»، ثم قالت بعد وفاة أبي سلمة: فأخلف الله لي خيرًا منه، رسول الله ﷺ^١.

وليس معنى ذلك أن كل من فقد شيئًا سيحصل على بديل مماثل في الدنيا؛ فقد يكون العوض سكينه، أو هداية، أو قوة في القلب، أو أجرًا مدخرًا عند الله، أو صرفًا لشر لا نعلمه، وأحيانًا يكون أعظم العوض أن تتغير أنت؛ أن تخرج من التجربة بقلب أهدأ، وتعلق بالله أقوى، ونظرة إلى الحياة أعمق.

وفي عصر المقارنات، تزداد حاجتنا إلى هذا المعنى؛ ترى شخصًا حصل على الوظيفة التي تمنيتها، وآخر تزوج قبلك، وثالثًا بدأ مشروعًا؛ فتقول: أنا متأخر، وحياتي لم تسر كما ينبغي، لكنك ترى نتائج الناس، ولا ترى تفاصيل أقدارهم؛ ترى الوصول، ولا ترى الطريق، وتقارن بدايتك بخاتمة غيرك.

لذلك اسع، وخطط، واستشر، واستخر، وابذل الأسباب، ثم إذا جاءت النتيجة على غير ما أردت؛ فلا تقل: انتهت حياتي؛ قل: انتهى طريق كنت أظنه حياتي كلها، أما أبواب الخير فلم تنته.

إن الرضا لا يعني أن تقول إن ما حدث كان سهلاً، ولا أن تتظاهر بأنك لم تتألم؛ بل أن تؤمن أن الله ربك في الطريق الذي أحببته، وربك كذلك في الطريق الذي لم تختره؛ فتعبده في الحالين، وتسأله العون والهداية.

فليس المهم دائمًا أن تصل إلى الطريق الذي رسمته لنفسك؛ المهم أن تسير في كل طريق بما يرضي الله، وألا تجعل طريقًا فاتك يحجب عنك الطريق الذي ما زال بين يديك.

حين تتغير خطتك

عندما يضع الإنسان لحياته خطة دقيقة؛ متى يتخرج، وأين يعمل، ومن يتزوج، وأين يسكن، ومتى يبدأ مشروعه، ثم يمضي وهو يظن أن حسن التخطيط كافٍ للوصول. لكن الحياة لا تسير دائماً وفق الخرائط التي نرسمها؛ قد تضيق فرصة، أو يتعثر مشروع، أو يلغى زواج، أو يتأخر سفر، أو يُغلق باب كنت تراه مفتوحاً؛ فتسأل: لماذا لم تسر الأمور كما أردت؟ والأدق أن تسأل: ماذا ينبغي لي أن أفعل الآن؟ وهنا يظهر معنى من معاني العبودية: أن تخطط، لكن لا تجعل قلبك أسيراً لخطتك؛ وأن تسعى، لكن لا تجعل سعادتك معلقة بنتيجة واحدة؛ وأن تتمنى، مع يقينك بأن الله سبحانه أعلم بما يصلح لك.

وتذكر قوله سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١؛ فالآية لا تعني أن كل ما نكرهه خير لنا بعينه، ولا أن كل فقد سيعقبه عوض دنيوي مماثل؛ وإنما تربي القلب على أن علمنا محدود، وأن الله سبحانه محيط بما نجهله، وأن المؤمن يحسن الظن بربه، ويأخذ بالأسباب، ثم يرضى بما يقع بعد بذل وسعه.

وقد قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، ..»^٢؛ وتأمل الترتيب: احرص، واستعن بالله، ولا تعجز؛ فالإيمان لا يعني أن تجلس وتقول: كل شيء مقدر؛ بل تعمل، وتخطط، وتستشير، وتتعلم، ثم إذا جاءت النتيجة على غير ما أردت، لا تجعل «لو» سجنًا تعيش فيه.

ومن أعظم المواقف التي تعلّمنا هذا المعنى صلح الحديبية؛ عندما خرج النبي ﷺ وأصحابه يريدون العمرة، ثم صدّتهم قريش، وانتهى الأمر إلى صلح شقّ على بعض الصحابة، وعادوا دون أن يعتمروا في ذلك العام، ثم سمّى الله سبحانه هذا الصلح فتحاً فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^٣، كان صلح الحديبية من أسباب الخير والفتح الذي

١ سورة البقرة: ٢١٦

٢ أخرجه ابن ماجه (٧٩)، وأحمد (٨٨٢٩)، وأبو يعلى (٦٢٥١) جميعهم بلفظه.

٣ سورة الفتح: ١

ترتب بعده، لكن العبرة ليست أن نجزم بحكمة تفصيلية في كل حادثة، بل أن نعلم أن ظاهر الأمر قد لا يكون الصورة الكاملة للعاقبة.

خطط، واسع، واستشر، واستخر، وابذل الأسباب؛ فإذا تغيّر المسار؛ فلا تجعل أول رد فعل الحسرة، بل اسأل: ما الذي أستطيع إصلاحه؟ وما الذي ينبغي أن أتركه لله؟ وما الدرس الذي أحمله معي؟

ثم امضي؛ فأنت لا تُطالب بعلم الغيب، وإنما تُطالب بحسن العبودية في الحاضر.

حين تتغيّر خطتك، لا يعني ذلك أن الطريق انتهى؛ ربما انتهت صورة رسمتها أنت للمستقبل، لكن أبواب الخير لم تنته، يكفيك أن تعرف ربك، وتستعين به، وتسير فيما تستطيع، ثم ترضى بما قدره لك؛ فطمأنينة القلب ليست في أن تجري الحياة كما خططت، وإنما في أن تثق بالله وأنت تسير فيما لم تخطط له.



الخير الذي جاء في ثوب لم تحبه

ليس كل خير يأتيك في الصورة التي تمنيتها؛ فقد يأتي في هيئة لا يفتح لها قلبك من أول وهلة: فرصة لم تطلبها، أو تأخير أزعجك، أو انتقال لم تخطط له، أو تجربة أرهقتك، أو باب أغلق بعدما علقت عليه آمالك.

لكن هنا معنى دقيق ينبغي أن ننتبه إليه: ليس كل ما نكرهه خيرًا لنا بالضرورة، ولا كل ما نحبه شرًّا علينا، وإنما المؤمن يعلم أن علم الله أوسع من علمه، وأن بعض ما يقدره الله قد تترتب عليه وجوه من الخير لا يدركها العبد حين وقوعها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾^١.

ليست الآية دعوة إلى إنكار الحزن، ولا إلى التظاهر بحب الألم، وإنما إلى ألا يجعل الإنسان مشاعره المحدودة ميزانًا وحيدًا للحكم على ما يقع له؛ فقد ترى جانبًا من المشهد، ويخفى عليك ما وراءه من العواقب والحكم.

ومن أكثر ما يرهق النفس أنها تريد أن تفهم كل شيء قبل أن تطمئن: لماذا تأخر الأمر؟ لماذا لم يستجب الدعاء بالطريقة التي أردتها؟ لماذا ذهب شخص أحبه؟ لماذا فشل مشروع كنت أرجوه؟ أسئلة قد لا نجد جوابها في لحظتها، لكن الإيمان لا يعني أن نعرف جواب كل سؤال، بل أن نعرف ربنا، ونثق بعلمه وحكمته، ونسأله العون واللطف.

ويقول رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لَأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^٢.
فالحديث لا يعني أن الضرر خير في ذاته، وإنما يبين أن المؤمن يجعل ما يقع له بابًا إلى الخير بالشكر عند النعمة، والصبر عند الشدة، والاحتساب، والرجوع إلى الله، والعمل بما يستطيع.

وتأمل قصة أم سلمة رضي الله عنها؛ فقد مات زوجها أبو سلمة رضي الله عنه؛ فحزنت لفقده، ثم تذكرت ما علمها النبي ﷺ عند المصيبة؛ فقالت: سمعت رسول الله ﷺ

١ سورة البقرة: ٢١٦

٢ تهذيب السنن (٢٩٩٩) من أفراد مسلم على البخاري

يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة؛ فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى، وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها^١؛ فلما توفي أبو سلمة قالت في نفسها: من خير من أبي سلمة؟ ثم قالت الدعاء؛ فأخلف الله لها خيراً منه؛ فتزوجت رسول الله ﷺ .

وهكذا قد يعيش الإنسان فصلاً مؤلماً من قصته؛ فيظن أنه أدرك نهايتها، وما يدري أن وراءه من الأقدار ما لم يطلع عليه.

لذلك، حين يقع لك ما لا تحب، لا تقل سريعاً: هذا شر كله، ولا تدّع أنك عرفت الحكمة كاملة؛ بل قل: يا رب، قد جرى تقديرك بما حدث، ولا أعلم وجوهه، وأثق بعلمك وحكمتك؛ فاجعل لي فيه خيراً، وأعني على أن أتعامل معه بما يرضيك " إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى، وأخلف لي خيراً منها^٢ .

ثم اعمل بما تستطيع، وأصلح ما يمكنك، واسع إلى ما ينفعك، وأدّ الحقوق، واصبر فيما لا تملك تغييره، واستعن بالله؛ فالرضا لا يعني ترك السعي، والصبر لا يعني الاستسلام، وحسن الظن بالله لا ينافي الحزن ولا يمنع الأخذ بالأسباب.

ولا تحكم على عطايا الله من ظاهرها؛ فقد يأتي الخير في تأخير أو تغيير لم تختره، ولا تدرك حكمته كاملة. أنت ترى اللحظة، والله يعلم العاقبة؛ فثق بحكمته، واسع فيما تستطيع، واصبر، وواصل السير.

١ أخرجه مسلم (٩١٨)، وأحمد (١٦٣٤٤)، والطبراني (١٤٤٦) بلفظه تاماً .

٢ المرجع السابق .

حين لا تأتي الحياة كما أردت

من حَقِّكَ أن تتمنى وتخطط وتسعى، لكن ليس من حق قلبك أن يظن أن الخير لا يكون إلا في الصورة التي رسمها لك الله سبحانه وتعالى؛ فإله سبحانه وتعالى يعلم ما لا نعلم، ويقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١ فأنت تعرف ما تريد، لكنك لا تعرف عواقبه، وقد تحسب سعادتك في الوصول إلى أمر، بينما يكون صرفه عنك خيرًا لك، ومع ذلك، لا يعني الإيمان بالقدر ترك الأسباب؛ فالمؤمن يسعى ويخطط ويستشير ويستخير، ثم إذا جاءت الأمور على غير ما أراد، تعامل مع الواقع بما يستطيع، وصبر على ما لا يستطيع دفعه، ولم يجعل الحسرة على الماضي تفسد حاضره.

والرضا لا يعني أن تحب كل ما وقع؛ فقد تحزن وتبكي وتتألم، وهذا لا ينافي الإيمان، ولا يعني أن تبرر الظلم أو الخطأ باسم القدر، بل أن تقول: حدث ما لم أرد، لكن ربي حكيم، ولن أجعل ما حدث سببًا لانقطاعي عنه، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا التوازن فقال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» عن أبي هريرة رضي الله عنه، رواه مسلم.

وتعلمنا قصة موسى والخضر عليهما السلام درسًا عظيمًا في محدودية علم الإنسان؛ فقد خفيت على موسى حكمة أفعال رآها في ظاهرها شديدة، ثم بُين له وجه الحكمة، وقال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾^٢، وليس في القصة أن وراء كل حدث حكمة نعرفها، بل أن علمنا محدود، وأن ما لا نفهمه اليوم لا يلزم أن يكون بلا حكمة، مع بقاء أفعال الخضر خاصة بما أطلعه الله عليه؛ فلا يجوز لأحد أن يدعي علم الغيب لتبرير أفعاله.

لذلك، لا تجعل حلمًا واحدًا شرطًا لسعادتك: «لن أكون بخير إلا إذا حصل هذا»، تمنى، واسع، لكن اجعل طمأنينتك بالله، وثقتك بحكمته، ورجاءك فيما عنده؛ فقد يعطيك ما طلبت، أو يؤخره، أو يصرفه عنك، ولا تعلم أين يكون الخير.

١ سورة البقرة: ٢١٦.

٢ سورة الكهف: ٨٢.

وحين لا تأتي الحياة كما أردت، لا تسأل فقط: ماذا أخذت مني؟ بل اسأل: ماذا بقي لي؟ بقي إيمانك، وبقي باب التوبة، وبقيت قدرتك على السعي، وبقيت نعم لم تلتفت إليها، وبقيت فرصة أن تبدأ من جديد.

خذ اليوم أمرًا يؤلمك، واسأل نفسك: ما الذي لا أستطيع تغييره؟ وما الذي أستطيع إصلاحه؟ وما النعمة التي ما زالت بين يدي؟ وما الخطوة التي أستطيع أن أبدأ بها الآن؟ ثم ابدأ بخطوة واحدة.

فربما لا تستطيع اختيار كل تفاصيل حياتك، لكنك تستطيع أن تختار كيف تعيش لله فيها؛ أعمل، وأحب، وابن، وتعلم، واحلم، وخطط، ولكن لا تجعل شيئاً من ذلك غايتك الأخيرة؛ فإذا لم تأت الحياة كما أردت؛ فلا تجعلها سبباً للابتعاد عن الله، بل اجعلها ميداناً للسعي والصبر والرجاء.

وربما تنظر يوماً إلى الوراء؛ فلا تقول: حصلت على كل ما أردت، بل تقول: لم تأت حياتي كما أردت، لكنها قربتني إلى الله؛ وذلك فضل عظيم لا يُستهان به.

حين تحب الناس لله



حين تحب الناس لله

قد يسهل على الإنسان أن يحب العبادة في خلوته، لكن الامتحان يظهر حين يدخل الناس إلى حياته؛ فيختلفون معه، أو يؤذونه، أو يقصرون في حقه، هناك تظهر حقيقة الأخلاق وأثر الإيمان في الكلام والغضب والعفو وحفظ الحقوق. في هذا الباب سننظر إلى العلاقات من زاوية العبودية لله؛ فنتحدث عن المحبة لله، والعفو دون ضعف، والصمت حين يكون حكمة، والكلمة التي قد ترفع إنساناً أو تكسره، وعن الاختلاف دون ظلم أو إساءة، مع حفظ حق الآخر وكرامته. ونتأمل صلة الرحم حين تثقل، والإحسان إلى من لا يرد الجميل، وإخفاء المعروف؛ فبعض أجمل الأعمال ما لا يعلمه إلا الله، كما نتعلم حسن الظن والرفق، مع إدراك أن الرحمة لا تلغي الحدود، والعفو لا يعني ترك الحقوق، وحسن الظن لا يعني تجاهل الخطأ؛ بل يجمع المؤمن بين الرحمة والحكمة، والعفو والعدل.

العبودية لا تظهر في الخلوة وحدها، بل في أمان الناس من لساننا وأيدينا، وحفظ حقوقهم، والرحمة بمن حولنا؛ وغاية ذلك أن يكون الإنسان رحمة في حياة الآخرين، لا عبثاً على قلوبهم.



ليس كل حب في حياة الإنسان سواء؛ فمنه ما تحركه المصلحة، ومنه ما يقوم على الإعجاب، ومنه ما يضعف حين تتغير الظروف، وهناك محبة أعمق وأبقى: أن تحب

إنساناً لله، لا لأنه يحقق لك منفعة، ولا لأنه يوافقك دائماً، بل لأنك ترجو له الخير، وتحب له ما يحبه الله له من الإيمان والطاعة والصلاح.

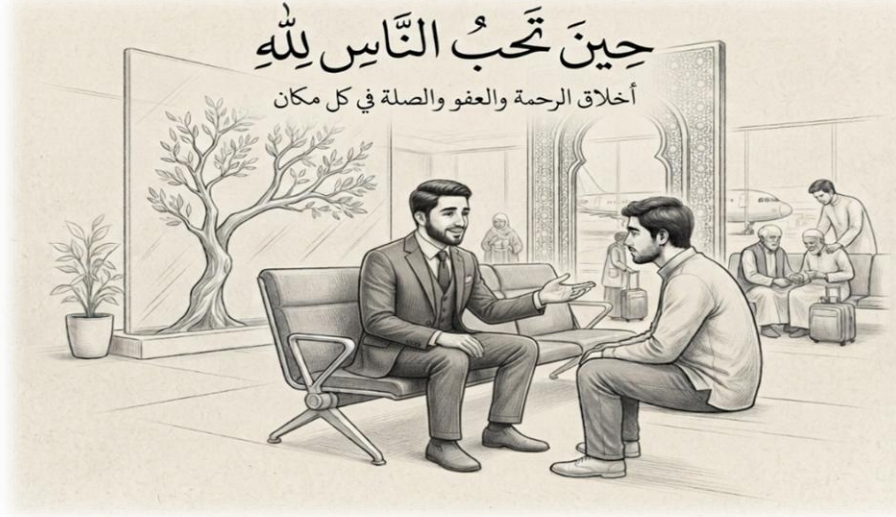
أن تحب الناس لله يعني أن تراهم عباداً لله قبل أن تراهم وسائل إلى راحتك؛ فتفرح بخيرهم، وتعينهم على البر، وتحفظ حقوقهم، وتنصحهم إذا أخطئوا، وتدعو لهم في غيابهم، ولا تجعل محبتك معلقة بما يقدمونه لك؛ فالمحبة التي تُبنى على الطاعة لا تزول لمجرد تغير المصلحة، ولا تتحول إلى عداوة عند أول اختلاف، وقد عدّ النبي ﷺ الحب في الله من أوثق عرى الإيمان؛ فقال: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله» رواه الطبراني وحسنه الألباني.

وفي زمن تُقاس فيه العلاقات بالمصلحة المتبادلة، يحتاج القلب إلى أن يراجع ميزانه؛ فالمحبة الصادقة تظهر حين تفرح لخير أخيك، وتبارك نجاحه، وتدعو له دون أن يعلم، وتنصحه إذا أخطأ، لا لتثبت تفوقك، ولكن لأنك تريد له الهداية والصلاح.

ومن أصعب امتحانات القلب أن ترى عند غيرك ما تتمنى لنفسك؛ فيتسلل الحسد خفية، ويضيق الصدر بنعمة ساقها الله بفضله، لكن المؤمن يعلم أن الأرزاق ليست خصماً من رزقه، وأن نجاح غيره لا يعني فشله، وأن من سعة الإيمان أن يسأل الله الخير لنفسه ولغيره، بدل أن يتمنى زوال النعمة عن أخيه.

وقد ضرب الصحابة مثلاً بديعاً؛ إذ آخى النبي ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع؛ فعرض سعد أن يناصفه ماله وأهله؛ فقال له: "انظر شطر مالي فخذ، ولي امرأتان فاختر أيتهما شئت"؛ فقال عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق»؛ جمع الموقف بين سخاء المعطي وعفة الآخذ، وكرامة السائل، وبركة العمل، وهذا الميزان نفسه ينطبق على الزوجة والأولاد والأقارب؛ فمحبتهم لله تجعلها صبراً ورحمة لا هوىً ونزوة.

ومحبة الإنسان لله لا تعني أن توافقه في كل شيء؛ فقد تحبه وتنصحه، وترحم من أساء إليك وتضع حداً لأذاه، وتعفو عن زلته دون أن تفتح باباً متكرراً للظلم؛ فالمحبة لا تلغي الحكمة، والرحمة لا تعني الاستسلام للأذى، والنصيحة الصادقة أصدق علامات المحبة حين تُقصد بها الإصلاح لا الإذلال، كما أن المحبة لله تقتضي البغض في الله: كراهية المعصية والظلم والكفر، لا كراهية الشخص بذاته؛ فالمؤمن يبغض الفعل السيئ ويحب لصاحبه الهداية.



وفي زمن التواصل السريع، لا تجعل منشوراً عابراً سبباً للحكم على قلب إنسان؛ فقد ترى موقفاً دون قصته، وكلمة دون سياقها؛ وهذا يدعونا

إلى الثبوت وحسن الظن في موضعه، مع أن سوء الظن قد يجب في الشهادة والقضاء، لكن الأصل اجتنابه؛ قال الله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^١. وتظهر المحبة الصادقة في الغيبة: حفظاً للسر، وفرحاً بالخير، ودعاءً في الخفاء، وذكرًا للفضائل، وسترًا للعيوب التي لا تتعلق بحقوق الناس.

واسأل نفسك: من تحبه لمنفعته، ومن تحبه لله؟ ثم اختر إنساناً واصنع له خيراً لا تنتظر عليه مكافأة: دعاءً، أو كلمة طيبة، أو نصحاً صادقاً، أو عفواً عن زلة، واجعل قصدك الله وحده.

أن تحب الناس لله لا يعني أن تجعلهم محور قلبك، بل أن تجعل محبتهم من آثار عبوديتك؛ فتكون رحمة وسترًا ونصحًا ودعاءً، وحسبك أن الله يعلم ما تخفيه من خير، وما عنده خير وأبقى.

حين تؤذيك كلمة

قد تكون الكلمة عابرة في فم قائلها، ولكنها ثقيلة في وجدان سامعها؛ تنغرز في الروح كالسهم، ويمضي الرامي غافلاً، ويبقى الجرح يسأل: لماذا أنا؟ وفي زمن تطايرت فيه الكلمات كالغبار، لا يكون الامتحان في النطق وحده، بل في كيفية تعاملك مع ما يُلقى إليك: هل تجعله سجنًا يضيق بك، أم محطة تعبر منها ولا تقيم؟

وقد عظم الله شأن الكلمة؛ فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^١ وأكد نبينا ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت^٢؛ فالكلمة ليست هباءً، بل بناء أو هدم، وجبر أو كسر، والعبد عنها مسؤول.

ولكن حين تكون أنت المصاب؛ فاعلم أن ألمك ليس ضعفاً، ولا يُكلفك أن تتجمد كالتمثال. احزن، واغضب، وابعد قليلاً حتى تسكن، لكن الخطر أن تُؤثث الكلمة بيت قلبك، وتجعلها مرآة تنظر فيها كل يوم.

ولا تجعل جرحك يقودك إلى الجور، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^٣ فالألم لا يبيح الظلم، ومن حفظ عدله عند الألم حفظ جوهر إيمانه.

ورُبَّ كلمةٍ كانت زلة جهل أو لحظة غضب؛ فلا تجعلها حكماً مؤبداً على صاحبها، لكن لا تجعل العفو باباً مفتوحاً للإهانة المتكررة؛ فلك أن تضع حدوداً، وتطلب التوقف، وتحفظ كرامتك دون أن تتجاوز.

ومن أروع دروس التحرر قول يوسف الصديق لإخوته في لحظة القوة: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾^٤؛ فهذا ليس نسياناً للألم، بل تحرر من أسر الماضي، وعدم السماح للإساءة بأن ترسم بقية العمر.

١ سورة البقرة، الآية ٨٣

٢ صحيح البخاري (٦٤٧٥)

٣ سورة المائدة، الآية ٨

٤ سورة يوسف، الآية ٩٢

والله يقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^١ فالدين يشرع العدل، ويفتح العفو لمن رآه أقرب إلى التقوى، ويترك لك الخيار بحسب حالك وحال من أمامك.

فتوقف اليوم واسأل قلبك: هل ما زلت أسير كلمة مات زمنها؟ اختر ما يليق بحالك: تجاوز لله، أو توضيح بهدوء، أو حدود حازمة، أو صمت حكيم. اعلم أن كرامتك ليست في ألسنة الخلق، وقيمتك ليست في انطباعاتهم؛ فإذا آذتك الكلمة؛ فلا تسمح لها أن تغير خُلقك، بل امضِ بقلب يعرف حقه، ويقدر على العفو، ويستعين بالله أن يبقى مستقيماً، مهما قست الكلمات.

حين تختلف ولا تظلم

ليس الاختلاف هو المشكلة؛ فالناس طباع وتجارب وفهم شتى، لكن الامتحان يبدأ حين لا يعجبك رأي أحد، أو يخالفك في أمر تراه واضحًا: هل تستطيع أن تختلف مع إنسان دون أن تظلمه؟

في زمن طارت فيه الآراء على المنصات، وصار الخلاف يصل إلى الآلاف، تحول الحوار أحيانًا إلى خصومة، والنقد إلى طعن، والبحث عن الحق إلى نزاع انتصار، وخلف الشاشة، يقول الإنسان ما لا يقول وجهًا لوجه.

وهنا يحتاج القلب إلى تذكّر أن اختلافك مع إنسان لا يسقط حقه عليك، قال الله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^١؛ فالعدل ليس مع من نحب فقط، بل يظهر حين يغضب القلب وحين تستطيع الجرح وتختار ألا تفعل، وقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^٢ فترية القلب في الاختلاف أن تفرق بين خطأ الرأي وسوء الإنسان؛ تنتقد الموقف دون هدم الكرامة، وترفض الفكرة دون سخرية، وتختلف بشدة دون كذب أو تحريف، وهذه المسافة بين نقد الفكرة وظلم الشخص هي جوهر خلق المؤمنين.

وليس كل خلاف يحتاج إلى معركة؛ فالحوار نافع أحيانًا، والصمت أحكم أحيانًا، وقولك: «أحترمك ولا أوافقك ليس ضعفًا، بل نضج، وقد ضرب القرآن المثل الأسمى حين قال لموسى وهارون في مخاطبة فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾»^٣؛ فإذا كان هذا بفرعون؛ فكيف بمن يختلف معنا؟ فاللين ليس تنازلًا عن الحق، بل حفظ للأخلاق في أثناء الدفاع عنه.

ومن أخطر آفات الخلاف أن يرى الإنسان نفسه دائمًا على الحق، والآخر دائمًا على الباطل، قد يكون الحق معك، لكن أسلوبك خاطئ؛ وقد تكون حجتك قوية، لكنك

١ سورة المائدة، الآية ٨

٢ أخرجه البخاري ومسلم (متفق عليه).

٣ سورة طه، الآية ٤٤

ظلمت في الوصف؛ وقد يكون الآخر مخطئاً، لكنه أصاب في جانب، والإنصاف أن تقول: أخطأ هنا، وأصاب هنا.

وفي المنصات، تزداد الحاجة إلى هذا الخلق؛ فالشاشة توهمك أنك تخاطب فكرة لا إنساناً، لكن خلف الحساب مشاعر وكرامة، وقد تبقى جملتك في قلبه سنوات؛ فقبل الإرسال، اسأل نفسك: لو كان أمامي، أكنت أقولها هكذا؟ وهل أبحث عن الحق أم عن انتصار الاسم؟^١

تذكر من تخالف، وافصل بين ما ترفض في فكرته، وما تحفظ له من كرامة. اسأل: هل ظلمته في وصفه؟ هل نقلت كلامه كاملاً؟ هل سخرت منه؟ هل تقبل أن يتحدث عنك بمثل ما تحدثت؟ وهل تستطيع أن تدعو له بالهدى وأنت مختلف؟ إن استطعت؛ فقد بدأ قلبك يتعلم معنى العدل والتجرد.

وتذكر أن الله لا يسألك عن صحة قولك فقط، بل عن طريقة قولك وأنت تطلب الحق، ليس انتصاراً أن تخرج وقد كسرت إنساناً، وليس حكمة أن تثبت صوابك بظلم. أعظم انتصارك أن تحفظ لسانك عند الغضب، وتنصف خصمك، وتعترف بخطئك، وتراجع دون شعور بالهزيمة؛ فالحق لا يحتاج ظملاً ليتنصر.

وإذا اختلفت؛ فليكن اختلافك نظيفاً: تقول الحق دون قسوة، وتنقد دون تجريح، وتحاور دون استعلاء، وترد دون انتقام، وتسكت حين يكون الكلام فتنة، وتعتذر حين تخطئ، لعلهم لا يوافقونك، لكنك تجعل اختلافك شاهداً على أخلاقك، وحين تختلف ولا تظلم، تحفظ حق الإنسان، وتحفظ قلبك من أن يتحول الاختلاف إلى ظلم، والحق إلى كبر، والانتصار إلى فتنة.

١ إشارة منهجية إلى فقه الأولويات في الحوار الرقمي، مستفاد من مقاصد الشريعة في حفظ الكرامة ودفع الضرر، ومن كتب آداب الخلاف مثل: "أدب الاختلاف في الإسلام" للدكتور طه جابر العلواني، و"فقه الخلاف" للدكتور يوسف القرضاوي.

أدب الاختلاف حين تتسع المسافة

ليست كل المسافات تُقاس بالأمتار؛ فهناك مسافات تنشأ بين القلوب حين تختلف الرؤى وتتباين القناعات، قد يكون الإنسان قريباً في المكان لكنه بعيد في الرأي، وقد يكون بعيداً في الفكر لكنه أقرب إلى قلبك بالخلق، وهنا يبدأ امتحان الإيمان: كيف تحافظ على أدبك حين تتسع المسافة بينك وبين من تختلف معه؟

في زمن المنصات، صار الخلاف يبدأ بكلمة، ثم يتحول إلى خصومة، وقد نختصر المخالف في موقف واحد، لكن الإنسان أكبر من عبارة واحدة، والعدل يظهر حين يوجد النفور، لا حين تتوافق النفوس.

والمؤمن يحتاج أن يميز بين الثبات على الحق وسوء الخلق في الدفاع عنه، يمكنك أن تقول: "هذا القول خطأ"، دون أن تقول: "أنت لا قيمة لك"، قال الله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فالرد الحسن ليس تنازلاً عن الحق، بل طريقة تحمل الحق دون أن تفسد القلب أو تزيد الخصومة.

وقد تبدأ بقصد بيان الحق، ثم تجد نفسك تستمتع بإحراج الطرف الآخر؛ فتساءل: هل أدافع عن الحق أم عن نفسي؟ فالهوى قد يختبئ في ثوب الغيرة على الحق، ومن النضج أن تترك مساحة لاحتمال خطئك، وتستمع قبل أن تحكم، وتفهم كلام الآخر كما يقصده هو، لا كما تريد أنت أن يكون.

وأدب الاختلاف لا يعني جعل الحقيقة نسبية؛ فالمؤمن يزن الأقوال بالوحي والعلم. الأدب لا يلغي الحق، والحق لا يلغي الأدب، وفي عصر التواصل، ربما كان من أجمل صور الأدب أن تغلق هاتفك أحياناً؛ فليس كل تعليق يحتاج ردّاً، ولا كل استفزاز يستحق وقتك، ولا كل معركة معركتك.

وقد تدخل نقاشاً هادئاً وتخرج ممتلئاً بالغضب؛ فاسأل نفسك: ماذا ربحت؟ هل زاد علمي؟ أم أضفت خصومة جديدة؟ بعض المسافات لا تحتاج إلى رد؛ قد تكون الحكمة في بقاء مسافة في الرأي مع بقاء الاحترام، وقد قال رسول الله ﷺ: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن

ترك الكذب وإن كان مازجًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه^١؛ فترك المرء قد يكون مطلوبًا حتى مع الصواب، حين يتحول الحوار إلى خصومة لا ثمرة لها. تذكر شخصًا اتسعت المسافة بينك وبينه، واسأل: هل ما زلت أعدل معه؟ هل أنسب إليه ما لم يقل؟ هل أذكر ما فيه من خير رغم اختلافي؟ ثم اختر: استمع قبل أن ترد، أو اترك جدالًا لا فائدة منه، أو اعترف بجانب أصاب فيه مخالفتك. وتذكر أن الإنسان قد يختلف معك في الرأي دون أن يكون عدوًا لك، قد ترفض قوله

دون أن تحتقره، وقد تتمسك بالحق دون أن تعلو على الناس، كلما اتسعت المسافة في الرأي، احتاج القلب إلى أن تتسع فيه مساحة العدل والرحمة، وحين تتعلم أن تختلف دون ظلم، وتنصح دون



فضيحة، وتصمت حين يكون الصمت أصلح، تكون قد تعلمت عبادة قلبية تظهر حين تستفرك كلمة ويخالفك إنسان؛ فتملك القدرة على أن تؤذيه فتختار لله ألا تفعل^٢.

١ رواه أبو داود، وصححه الألباني.

٢ مراجع للاستئناس (غير مُشار إليها برقم في المتن، لكنها في روح النص):

"الأخلاق والسنن" لابن حزم - في آداب الاختلاف.

"مختصر منهاج القاصدين" لابن قدامة - في علاج الغضب والخصومة.

"فقه الخلاف وأدب الحوار" للدكتور عبد الكريم بكار.

حين يسيء إليك من تحب

ليس مؤلماً أن يسيء إليك عابر، كما تؤلمك الإساءة ممن ظننت أن قلبه يعرفك، ومنحته ثقته، وشاركته ضعفك؛ فكلمة غريب قد تمر، أما كلمة الحبيب فتجد طريقها إلى أعماقك، وقد تكون في ظاهرها صغيرة، لكنها تثقل لأن صاحبها عزيز.

وهنا لا يكون الامتحان في الألم وحده، بل في السؤال: ماذا تفعل بقلبك حين يؤذيك من تحب؟ أترد بما يؤلمه؟ أتجمع أخطاءه سلاحاً في الغضب؟ أم ستتوقف وتهدأ وترى الموقف بميزان الإيمان؟

في العلاقات القريبة، نتوقع أن يفهمونا دون شرح، وأن يراعوا مشاعرنا، لكن الإنسان بشر يخطئ وينسى، وقد يقول في انفعاله ما يندم عليه، والمحبة لا تجعلنا عمياناً عن الأخطاء، ولا أسرى لها، قال الله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^١ تأمل الترتيب: كظم، ثم عفو، ثم إحسان، ليس المطلوب إلغاء الغضب، بل ملك النفس حين يغضب القلب، قد تتألم لكن لا تظلم، وقد تغضب لكن لا تتجاوز، وقال ﷺ: ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب^٢

في زمننا، تكفي رسالة مبطنة لتؤدي من تحب؛ فمن الحكمة أن تؤجل الرد في ذروة الغضب؛ خذ وقتك، اهدأ، صلّ، ثم عد بقلب أهدأ، قد يكون ما بدا خيانةً مجرد سوء فهم، وقد يكون المسيء يحمل ألماً لا تعرفه، لكن الفهم لا يعني التبرير؛ تفهم خطأه دون أن تبيح ظلمك، وترحم ضعفه دون أن تسمح بإيذائك، وتعفو دون أن تعيد العلاقة إن كانت العودة تؤذي.

ومن أجمل ما نتعلمه من يوسف أنه عفا دون أن ينكر ما حدث. ظلمه إخوته وألقوه في الجب، ثم التقوا بعد سنوات وهو في موضع قوة، لم يكن ضعفاً، بل تحرراً من الحاجة إلى الانتقام، قد لا تنسى، لكن تستطيع ألا تعيد المشهد كل ليلة.

١ آل عمران: ١٣٤،

٢. صحيح الأدب المفرد (٩٨٩) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩)

وهنا يصبح الألم بابًا إلى الله وبدل أن تشتكي للناس، افتح قلبك وقل: يا رب، أنت تعلم ما في قلبي؛ فاشفني وألهمني الصواب، ثم انظر ماذا تحتاج العلاقة: حديثًا صريحًا، أو اعتذارًا، أو عفوًا، أو حدًا، أو مسافة، ليس كل خلاف يقتضي قطيعة، وليس كل علاقة تستمر بالشكل نفسه؛ أحيانًا تكون المحبة أن تقول: أحبك، لكن هذا يؤذيني ولا أقبله.

فكر فيمن تحب وأساء إليك: هل أنت غاضب من خطئه، أم تريد معاقبته لأنه خيب صورتك عنه؟ هل أعطيته فرصة للاعتذار؟ هل تريد الانتصار أم الإصلاح؟ فإن أمكن فأصلح، وإن لم يكن فسل الله أن يخرج الأذى من قلبك، ولا تجعل إساءته تغيرك إلى من لا تحب.

حين يسيء إليك من تحب، انظر إلى الفرصة بين يديك: أن تتعلم الصبر والعفو ووضع الحدود، وأن تكتشف أن قلبك يحتاج إلى الله أكثر من فهم الناس؛ فالحب لله لا يعني ألا تتألم، بل ألا يقودك الألم إلى ما لا يرضيه، وقد يبقى الأثر، لكنه يتحول مع الأيام من ندبة تؤلمك إلى درس يعلمك كيف تحب بوعي، وتعفو بحكمة، وتحفظ كرامتك، وعندها تفهم أن ليس كل من أحببت سيحسن إليك، لكنك تستطيع أن تجعل حبك سببًا لأن تحسن إليه بما يرضي الله، حتى حين يخطئ، وذلك هو الحب الذي تضبطه العبودية، وتحرسه الحكمة.

ردّ الإساءة دون أن تخسر قلبك

من أصعب المواقف أن تُساء إليك، ثم تجد نفسك أمام سؤال لا مهرب منه: كيف أرد دون أن أصبح مثل من آذاني؟

من حق الإنسان أن يدفع الظلم عن نفسه، لكن المشكلة تبدأ حين يتحول الدفاع إلى انتقام، وحين يظن أن التجاوز في الرد يعيد إليه كرامته، ديننا لا يطالب المظلوم بقبول الظلم، لكنه يضع له ميزاناً: أن يحفظ حقه دون أن يتحول إلى ظالم، قد تطالب بحقك، أو تضع حداً، أو تبتعد عن علاقة مؤذية؛ وكل ذلك لا ينافي حسن الخلق ما دمت لا تتجاوز حدود العدل.

وقد يكون العفو أرفع حين يكون فيه إصلاح؛ فالعفو ليس إنكاراً للألم، بل اختيار ألا يجعلك أسيراً للانتقام، ولا يعني إسقاط كل حق أو تمكين الظالم من الاستمرار. ومن أعظم ما يعلم القلب موقف النبي ﷺ حين لقي من أذى قومه ما لقي في الطائف، ثم عرض عليه ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين؛ فلم يختار الانتقام، بل قال: «إني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد وحده لا يشرك به شيئاً»^١ متفق عليه، لم يكن إنكاراً للأذى، بل رحمة ورجاء مع قدرته على الانتقام.

قد لا تبلغ هذا المقام من أول لحظة؛ ربما تغضب أو تبكي أو تحتاج إلى الابتعاد، وهذا من طبيعة النفس، لكن لا تجعل لحظة الغضب تكتب قراراً تعيش آثاره سنوات؛ فبعض القرارات تحتاج إلى قلب هادئ.

وفي زمن الرسائل والمنشورات، قد يكون الرد أسرع من التفكير؛ فاجعل لنفسك قاعدة: لا ترد وأنت غاضب؛ أهدأ، واستعد بالله، وصل، ثم اسأل: ما الرد الذي يحفظ حقي ويحفظ قلبي معاً؟

١ صحيح البخاري (٣٢٣١) أخرجه مسلم (١٧٩٥) عن أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها الطاهرة المبررة من عند الله سبحانه وتعالى: «أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُخِذَ؟ قَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ؛ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ؛ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ؛ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِ؛ فَلَمْ أَسْتَقِفْ إِلَّا وَأَنَا بَقَرْنِ الثَّعَالِبِ؛ فَرَفَعْتُ رَأْسِي؛ فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ؛ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِيَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ؛ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ؛ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ؛ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطِيقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا.

ليس السؤال: كيف أجعله يتألم؟ بل: ما الذي يرضي الله؟ قد يكون الجواب مطالبة بحق، أو وضع حد، أو طلب اعتذار، أو مسافة تحميك، وقد يكون عفواً إن كان فيه إصلاح، ولا تخلط بين الرحمة وتمكين الظالم، ولا بين الصفح وإلغاء الحدود. وتذكر أن بعض الانتصارات خسارة؛ قد تنتصر في لحظة ثم تكتشف أنك خسرت شيئاً من أخلاقك. أما العفو فيحرك أنت قبل أن يكون أثره في غيرك، لأنك تتوقف عن جعل تصرف الآخر هو الذي يحدد أخلاقك ومزاجك.

فإذا أساء إليك أحد؛ فاسأل نفسك: ماذا فعلت للإساءة بقلبي؟ هل جعلتني أكثر قسوة؟ هل دفعتني إلى التشهير أو انتظار سقوطه؟ ثم اسأل: ما الذي أحتاج إليه الآن: حق أطالب به، أم حد أضعه، أم عفو أختاره، أم مسافة تحفظني؟ وقل: يا رب، لا تجعل أذى الناس سبباً في قسوتي، وألهمني العدل والحكمة، واحفظني من أن أظلم، وأعني على العفو حين يكون خيراً.

ثم امض، ولا تحمل كل إساءة معك إلى المستقبل؛ فالله يعلم ما حدث ويعلم ألمك، ولا يجعل كرامتك معلقة بقدرتك على الانتقام؛ فالقوة ليست أن ترد كل ضربة؛ القوة أن تملك نفسك؛ فلا تسمح لإساءة الآخرين أن تسرق منك أخلاقك، ولا أن تؤذيك في دينك بعد أن آذتك في مشاعرك.

وعندها يكون أجمل رد: أن تخرج من الإساءة وقلبك ما زال يعرف طريق الطاعة، ولسانك ما زال قادراً على العدل، ونفسك ما زالت ترجو ما عند الله.

فنّ العفو حين لا يعتذر أحد

من السهل أن تقول: «سامحتك» حين يأتي من أخطأ في حقك معتذراً، يعترف بخطئه ويحاول إصلاح ما أفسده، لكن الاختبار الأصعب يبدأ حين لا يأتي الاعتذار أصلاً؛ حين يخطئ في حقك إنسان ثم يمضي وكأن شيئاً لم يحدث، وتبقى أنت تنتظر كلمة: «أنا آسف»؛ فلا تأتي.

هنا يظهر سؤال أعمق: هل أستطيع أن أعفو، حتى حين لا يطلب مني أحد أن أعفو؟ من حقك أن توضح ما أصابك، وأن تطلب حقك، وأن تضع حدوداً تمنع تكرار الأذى؛ فالإسلام لا يطلب من المظلوم إنكار مظلمته، ولا يجعل العفو واجباً في كل حال، لكن ثمة فرقاً بين أن تحفظ حقك، وبين أن تحمل الإساءة في قلبك إلى الأبد. قد لا تستطيع أن تجعل من أخطأ يعتذر، ولا أن تجعله يدرك مقدار الألم الذي تركه، لكنك تستطيع أن تختار ماذا تفعل أنت بهذا الجرح.

وقد فتح الله باباً عظيماً للعفو حين قال: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^١.

تأمل كيف يخاطب الله قلب المظلوم: "ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟" وكأن القلب الذي يرجو مغفرة الله مدعو إلى أن يذوق شيئاً من معنى العفو عن عباده، وليس في ذلك إسقاط للحقوق، ولا قبول لاستمرار الظلم؛ إنما هو تحرير للقلب من أن يصبح أسيراً لما فعله الآخر.

العفو شيء، والمصالحة شيء، واستعادة الثقة شيء آخر: قد تعفو ولا تعود العلاقة كما كانت، وقد تصفح وتختار مسافة تحفظك، وقد تسقط حقاً شخصياً ابتغاء وجه الله، مع بقاء حقك في حماية نفسك ومنع تكرار الأذى؛ فالعفو قرار يتعلق بقلبك، والمصالحة تتعلق بالعلاقة، والثقة تُبنى من جديد بالزمن والأفعال.

ومن أعمق صور العفو موقف أبي بكر رضي الله عنه مع مسطح بن أثاثه؛ فقد كان أبو بكر ينفق عليه؛ فلما خاض مسطح فيما قيل في حادثة الإفك، حلف أبو بكر ألا ينفق

عليه؛ فنزل قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^١ فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى والله؛ إنى لأحب أن يغفر الله لى، وعاد إلى النفقة على مسطح.

تأمل هذا الموقف: كان الأذى حقيقياً، والجرح عظيماً، ومع ذلك اختار أبو بكر العفو حين دعاه الله إليه، لم يكن ذلك إنكاراً لما حدث، بل تجاوزاً عن الانتقام، ورجاءً لمغفرة الله، وإيثاراً لما عنده على ما تهواه النفس في لحظة الغضب.

وهذا من أعمق معاني العفو: أن تتوقف عن انتظار أن يتألم الآخر حتى تشفى أنت؛ فكم من إنسان أخطأ في حقك منذ سنوات، وما زلت تستعيد الموقف، وتتخيل ما كان ينبغي أن تقوله، وتنتظر اعتذاراً قد لا يأتي؛ فيظل من آذاك قادراً على إيذائك، لا بفعل جديد، بل بما بقي من أثر فعله في نفسك، وهكذا يصبح الماضي حاضراً في حياتك. العفو أحياناً أن تقول: لن أسمح لما حدث بالأمس أن يسرق مني اليوم.

ولا يعني ذلك أن القلب يتغير في لحظة، قد تعفو ثم يعود الألم؛ فتجدد نيتك وتستعين بالله: يا رب، أخرجني من أسر الغضب، واشفِ أثر الإساءة في نفسي، وأعني على العدل والعفو، ولا تجعل ما حدث سبباً في ظلمي أو قسوتي.

وإذا كان الأذى مستمراً؛ فلا تسمِّ الاستسلام عفواً، ضع حدوداً، واطلب حقك بالطرق المشروعة، واستعن بمن يستطيع الإصلاح، وابتعد إن كان القرب يسبب ضرراً متكرراً، يمكنك أن تضع حداً بيدك، وتترك قلبك لله.

وفي زمن التواصل الرقمي، قد يكون من العفو أن تتوقف عن مراقبة من آذاك؛ لا تتعقب أخباره، ولا تنتظر سقوطه، ولا تجعل كل ظهور له يعيدك إلى الجرح، بعض الجروح تحتاج إلى مسافة، لا إلى مزيد من المشاهدة.

ثم اسأل نفسك: هل أريد اعتذاره لأن الاعتذار سيصلح شيئاً حقيقياً، أم لأنني أريد أن أشعر أنني انتصرت؟ وهل أستطيع أن أعفو عن حق شخصي إذا كان العفو خيراً، دون أن أعود إلى علاقة تؤذياني؟

وربما لن يأتي الاعتذار الذي انتظرته، وربما لن يعرف ذلك الإنسان كم آلمك، لكن رحمة الله لا تتوقف على اعترافه، وشفاء قلبك لا يتوقف بالضرورة على كلمة منه، قد يكون بعض ما تحتاجه أن تسترد حياتك من انتظار ما لا تملكه، وأن تجعل ما لا تستطيع إصلاحه بين يدي الله.

اعفُ إن استطعت، واصفح إن كان الصفح خيراً، واحفظ حقك إن احتجت، واترك ما لا تستطيع تغييره لله.

فليس أقوى الناس من أجبر من ظلمه على الاعتذار، وإنما من استطاع أن يخرج من تجربة الظلم وقلبه لا يزال سليماً، ولسانه لا يزال عادلاً، وصلته بالله لم تنكسر.

قد لا تحصل على الاعتذار الذي انتظرته، لكنك تستطيع أن تحصل على شيء أعظم: قلبٌ تحرر من انتظار اعتذار لا تملكه، وسلامٌ لا يملكه من أساء إليك، وأجرٌ ترجوه من الله.



حين تخفي معروفك

في زمن أصبحت فيه الكاميرا حاضرة في تفاصيل حياتنا، صار من السهل أن يتحول المعروف إلى صورة، والصدقة إلى منشور، والمبادرة إلى مقطع ينتظر الإعجاب، وليس كل إظهار للخير مذكومًا؛ فقد يكون فيه تعليم أو تشجيع أو مصلحة شرعية، لكن الخطر أن يصبح نظر الناس جزءًا من الدافع، وأن يتسلل طلب الشئاء إلى قلب كان ينبغي أن يقصد الله وحده.

ويفتح الله للقلوب بابًا عظيمًا حين يقول: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ^١ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ^٢﴾ إنه باب العمل الخفي؛ ذلك العمل الذي لا يحتاج صاحبه إلى جمهور يشاهده، ولا إلى صورة تثبت أنه فعل خيرًا. قد تكون صدقة لا يُعرف صاحبها، أو إعانة تصل إلى محتاج دون أن يعرف اسمك، أو دعاءً لإنسان لا يعلم أنك تذكره، أو سترًا لمسلم، أو إصلاحًا بين اثنين لا يعرفان من سعى فيه.

وليس الإخلاص أن تختفي عن الناس دائمًا، وإنما أن تسأل قلبك: لمن فعلت؟ فقد تعمل أمام الناس وقلبك لله، وقد تعمل في الخفاء وقلبك ينتظر ثناءهم، والنفوس تحب التقدير، لكن المجاهدة تبدأ حين لا يصبح الشئاء وقود العمل، وحين لا تتوقف إذا لم يلتفت إليك أحد؛ فاسأل نفسك: لو لم يعلم أحد بهذا المعروف، هل كنت سأفعله؟ ولو لم يقل لي أحد: أحسنت، هل كنت سأستمر؟ ولذلك قال النبي ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى^٢.

ومن أبلغ ما يعلمنا قيمة العمل الخفي قصة أصحاب الغار؛ حين ذكر أحدهم برّه بوالديه، وكيف كان ينتظر حتى يسقيهما قبل أبنائه وأهله، لم يكن هناك جمهور ولا كاميرا، وإنما عمل صالح يرجو به وجه الله؛ فلما اشتدت كربتهم، جعلوا أعمالهم الخالصة وسيلة للرجاء؛ ففرّج الله عنهم.

١ سورة البقرة: الآية ٢٧١

٢ أخرجه أبو داود (٢٢٠١)، وابن ماجه (٤٢٢٧)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار))

وقد ينسى الإنسان معروفًا فعله منذ سنوات، لكن الله لا ينساه، والمؤمن لا يكتفي بكثرة العمل، بل يخاف ألا يُقبل منه، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾^١. فليست العبرة أن يراك الناس صالحًا، بل أن تكون عند الله كذلك.

ولا تجعل المحتاج وسيلة لصناعة صورة جميلة عن نفسك؛ فكرامته مقدمة، وستره من كمال الإحسان، وإن أظهرت خيرًا لمصلحة معتبرة؛ فاحفظ قلبك أن يتحول العمل الصالح إلى وسيلة لطلب المنزلة في أعين الناس.

وقفت مع النفس

هل عندك عمل صالح لا يعرفه أحد؟

هل يضيق صدرك إذا لم يشكرك الناس؟

هل تستطيع أن تفعل معروفًا دون أن تصوره أو تخبر به أحدًا؟

اختر اليوم عملاً خفيًا، وامض فيه دون انتظار شكر، وقل:

يا رب، أنت تعلم نيتي؛ فطهر قلبي من الرياء، وتقبل مني، واجعل عملي لك وحدك.

فالإخلاص ليس أن يخلو القلب من كل خاطر يحب المدح، وإنما ألا يجعل المدح غايته، وأن يجاهد نفسه ويصحح نيته كلما مالت إلى غير الله.

وحين تتعلم أن تفعل الخير دون حاجة إلى تصفيق الناس، يتحرر قلبك من أسر نظرهم، ويكفيك أن الله يعلم السر وأخفى، وأن ما عند الله خير وأبقى.

الكلمة التي ترفع إنساناً

يمرّ على الإنسان في حياته كلام كثير، لكن القلوب لا تحفظ إلا ما وجد طريقاً إلى أغوارها، قد يحمل في قلبه كلمة واحدة سنوات طويلة؛ كلمة قيلت له في لحظة ضعف؛ فأعادت إليه شيئاً من ثقته، أو في لحظة فشل؛ فمنحته قدرة على المحاولة، أو من شخص آمن بقدرته حين كان هو نفسه قد فقد الإيمان بها.

وفي المقابل، قد تبقى كلمة جارحة في القلب طويلاً، حتى ينساها قائلها، وقد يظن أنها مجرد انفعال عابر، لكنها في قلب المسموع تصير حقيقة تعيش معه، وتتحول إلى ندبة لا يزيلها الزمن بسهولة، وهنا ندرك أن الكلام ليس أصواتاً تعبر في الهواء؛ فالكلمة قد تبني إنساناً، وقد تهدمه، وقد تفتح له باباً من الأمل أو تسدّ عليه أبواب النور كلها. ولهذا جاء التوجيه القرآني في صورة ميثاق أخلاقي عام: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^١ فحسن الكلام ليس خلقاً نمارسه مع من نحب فقط، بل أدبٌ عام مع الناس: أن تقول خيراً، أو تسكت عما يؤذي.

وفي زمن التقنية أصبحت مسؤولية الكلمة أعظم؛ فقد تكتب تعليقاً في ثوانٍ فيقرؤه الآلاف، وترسل رسالة فتبقى محفوظة سنوات، وما كان ينتهي بانتهاء المجلس صار قابلاً للانتشار والبقاء، وربما خرج من دائرة ضيقة إلى أناس لم تقصدهم أصلاً.

🌱 كلمة منك قد ترفع إنساناً قد يكون أمامك شخص أخفق في دراسته، أو فشل في مشروع، أو يمر بضيق لا يخبر به أحد؛ فتقول له ببساطة: «أرى أنك تحاول»، وربما كانت هذه الجملة الصغيرة سبباً في أن يستعيد شيئاً من الأمل، وتكون كالنافذة التي فتحت في جدار ظلمته.

والكلمة الطيبة ليست مجاملة كاذبة؛ بل أن ترى خيراً حقيقياً فتذكره: تقول لمن أحسن: أحسنت، ولمن اجتهد: رأيت تعبك، ولمن أخطأ ثم أصلح: أحترم شجاعتك في الاعتراف.

ومن جمال هدي النبي ﷺ أنه كان يرفع النفوس بكلمات صادقة؛ فقد أخذ بيد معاذ رضي الله عنه وقال له: يا معاذ، والله إني لأحبك^١، وهذه كلمة حب سبقت الوصية؛ فدخلت النصيحة إلى القلب قبل أن تصل إلى الأذن، وكأنه أراد أن يزرع في قلب معاذ طمأنينة قبل أن يغرس فيه تكليفاً.

وهكذا المؤمن للمؤمن: كالبنیان يشد بعضه بعضاً؛ فليس من شأن المؤمن أن يزيد المنكسر انكساراً، بل أن يكون له موضع قوة حين تضعف قواه، وحين يكون في أمس الحاجة إلى من يذكره بأنه ليس وحده.

الكلمة الطيبة ليست دائماً مدحاً

قد تكون الكلمة التي تنفع إنساناً نصيحة صادقة، لكن الفرق بين النصيحة والإهانة في القصد والطريقة والمقام، والنصيحة بدون رفق كاللدواء بدون تحلية؛ قد يشفي لكنه يترك مرارة في النفس تبقى أطول من أثر النصيحة نفسها.

تستطيع أن تقول: «أظن أنك تستطيع أن تفعل أفضل»، بدل أن تقول: «أنت فاشل»، وأن تشير إلى الخطأ دون أن تختزل الإنسان كله فيه؛ فالإنسان ليس خطأه، بل هو أكثر من ذلك بكثير.

حتى حين يكون المخاطب في غاية العناد، جاء التوجيه الإلهي لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^٢.

فاللين لا يعني ترك الحق، والحزم لا يعني القسوة، تستطيع أن ترفض الخطأ دون أن تهين صاحبه، وأن تنصح دون أن تجرح كرامته، وأن تقول ما يجب قوله بطريقة أقرب إلى القبول وأبعد عن التشهير.

وانتبه للكلمة التي تقولها لنفسك

وقد يكون الإنسان أحياناً أقسى على نفسه من الناس. يحدثها عبارات لا يقبل أن يقولها لغيره: «أنا فاشل، لن أتغير، لا فائدة مني»، وأقسى الناس على الإنسان أحياناً هو نفسه، حين يجعل لحظة الفشل عنوان العمر كله، وينسى أن أبواب الله لا تغلق، وأن رحمته وسعت كل شيء.

١ أبو داود، السنن، حديث رقم ١٥٢٢، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

٢ القرآن الكريم، سورة طه، الآية ٤٤.

الإيمان لا يدعوك إلى إنكار أخطائك، لكنه لا يسمح لك أن تجعل الخطأ حكماً أبدياً على نفسك، قال الله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^١؛ فقل: «أخطأت وسأصلح»، بدل «لا أمل مني»، وقل: «لم أنجح هذه المرة وسأتعلم»، بدل «أنا لا أصلح لشيء»؛ فالاعتراف بالتقصير باب للإصلاح، وليس حكماً نهائياً على الإنسان.

توقف قبل أن ترسل

في وسائل التواصل قد يسبق الإصبع التفكير؛ فتكتب وأنت غاضب، ثم تندم بعد أن تكون الكلمة قد خرجت، وحينها لا يستطيع الندم أن يردّ ما فات.

قبل أن ترسل، اسأل نفسك: هل كلامي حق؟ وهل هو ضروري؟ وهل أستطيع قوله بطريقة أرحم؟ وهل أَرْضَى أن ألقى الله بهذه الكلمة في صحيفتي؟

وقد يكون أعظم انتصار في نقاش إلكتروني أن تكتب ردّاً قاسياً ثم تحذفه؛ لا عجزاً عن الرد، بل قدرةً على ضبط النفس، وأن تترك للهدوء فرصة ليكتب ما لا يندم عليه القلب. ولا تبخل بالكلمات الجميلة، قل لأملك إنك تحبها، ولأبيك إنك تقدر ما قدمه لك، ولصديقك إنك تقدر وجوده، ولمن اجتهد معك: «شكراً، لقد رأيت تعبك؛ فقد قال النبي ﷺ: والكلمة الطيبة صدقة»^٢.

قد لا تملك ما لا تعطيه، لكنك تملك لساناً تستطيع به أن تخفف عن إنسان، أو تشجعه، أو تمنحه شعوراً بأنه ليس وحده، أو تزرع في قلبه بذرة أمل لا تذبل.

فاختر كلماتك كما تختار طاعتك؛ فكل كلمة تكتب في صحيفتك، وكل حرف سيكون شاهداً لك أو عليك. ارفع ولا تهدم، أصلح ولا تفسد، انصح ولا تفضح، وشجّع ولا تسخر.

فربما بقيت كلمة منك في قلب إنسان أطول مما تتخيل، وربما لم تعرف أنت أثرها أبداً؛ لكن الله يعلم أثر كل كلمة تقولها، وربما كانت كلمتك الطيبة في الدنيا هي التي تلقاها غداً في صحيفتك نوراً، حين لا ينفع مال ولا بنون، ولا يبقى إلا ما قدّمت من قول صادق، وأثر طيب، وكلمة أضاءت طريقاً، أو أنقذت قلباً من ظلمة اليأس.

١ القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية ٥٣.

٢ صحيح البخاري، حديث ٢٩٨٩، ومسلم، حديث ١٠٠٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القلوب التي لا نعرف أوجاعها

قد تمر بجانب إنسان كل يوم، تراه يبتسم ويتحدث ويعمل؛ فتظن أن حياته بخير، وقد تجلس مع شخص هادئ متزن؛ فتظن أنه لا يحمل همًا، لكننا كثيرًا ما نرى الوجه، ولا نرى ما وراءه من تعب ومعاناة، ليس كل من ابتسم مرتاحًا، ولا كل من صمت غاضبًا، ولا كل من ابتعد متكبرًا، ولا كل من بدا قويًا لا يحتاج إلى من يسنده.

وزادت وسائل التواصل الأمر وضوحًا؛ فنحن نرى سفر الناس ونجاحاتهم وابتساماتهم، ولا نرى بالضرورة وحدتهم وقلقهم وما بذلوه وما فقدوه في الطريق، ولذلك يحتاج المؤمن إلى الرحمة والتثبت قبل إصدار الأحكام واللّه سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ويقول في الآية نفسها: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^١ قد لا يرد شخص على رسالتك لأنه متعمد تجاهلك، وقد يكون مشغولًا بمصيبة لا تعرفها، وقد يتغير قريب أو صديق فتقول: «لقد تغير عليّ»، بينما قد يكون وراء تغيره تعب أو ظرف أو هم لا يريد الحديث عنه.

ليس معنى حسن الظن أن نبرر كل خطأ، أو نعطل الحقوق، أو نصدق كل دعوى؛ وإنما أن ننشئ قبل الحكم، ونفرك بين فهم الإنسان وتبرير خطئه، قد ترحم ظروف شخص، ومع ذلك تضع حدودًا تمنع الظلم والأذى، وقد تلتمس له العذر فيما يحتمل العذر دون أن تسقط حقًا أو تتغاضى عن ظلم، ومن هدي النبي ﷺ ما يعلمنا ألا نجعل الشهرة والمظهر ميزانًا لقيمة الإنسان؛ فقد قال عن أويس القرني رضي الله عنه: «إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة، وكان به بياض؛ فمروه فليستغفر لكم»^٢ وهو رجل لم يكن مشهورًا بين الناس، ومع ذلك شهد له النبي ﷺ بفضل عظيم. ولهذا لا تحتقر إنسانًا لأن قصته لا تبدو عظيمة أمامك، ولا تجعل منشورًا يحكي لك حياة شخص، ولا تجعل موقفًا واحدًا يختصر إنسانًا كاملاً.

١ الحجرات: ١٢.

٢ مسلم، تهذيب السنن (٢٥٤٢) أخرجه أحمد (٢٦٦)، وأبو يعلى الموصلي (٢١٢)، والحاكم (٥٧١٩)

🌱 الألم أقرب مما تظن: قد يكون الألم أقرب مما تظن؛ في بيتك إنسان يبدو قويًا وهو متعب، أو أم تقول: «أنا بخير» وهي تحتاج من يجلس معها، أو صديق لم تسأله منذ زمن عن حاله، لا تنتظر أن يقول الناس: «أنا متعب»؛ اسأل برفق: «كيف حالك حقًا؟» ثم استمع، ولا تحوّل كل شكوى إلى نصيحة؛ فقد يحتاج الإنسان إلى أذن صادقة قبل الحل.

🌱 تذكر أنك أيضًا تحمل ما لا يعرفه الناس
كما تحب أن يلتمس الناس لك العذر فيما لا يعلمون؛ فالتمس لهم العذر فيما خفي عنك؛ فلا تجعل جهلك بقصتهم سببًا للقسوة أو التسرع في الحكم.
إذا لم تستطع حمل أوجاع الناس؛ فلا تزدها، وإذا لم تستطع إصلاح حياتهم؛ فلا تكسر قلوبهم، قد ترى تصرفًا واحدًا ولا تعرف القصة كلها؛ فكن رحيماً في تعاملك، متشبّثاً في حكمك، ساتراً لا فاضحاً، وعوناً لا عبثاً.
وربما أجمل ما تقدمه لإنسان اليوم ألا تدينه، بل تسأله وتسمعه وتمنحه مساحة آمنة للكلام؛ فالرحمة أن تحسن إليه فيما ظهر لك، وتترك ما خفي إلى الله.
ليس كل ما تراه هو الحقيقة، وليس كل مرتاح بلا جرح، ولا كل قوي لا يحتاج كلمة طيبة، كن عيناً ترى ما وراء المظهر، وأذناً تسمع ما بين السطور، وقلباً يدرك أن لكل إنسان قصة لا تعرفها، ولكل صامت كلاماً لا يقوله، ولكل قوي لحظة ضعف لا يظهرها.

ورحم الله امرءاً رأى من أخيه حاجة فسدّها، أو عيياً فستره، أو ضعفاً فلم يفضحه، أو جرحاً فلم يزدّه.

رحمة الإنسان بالإنسان

ليست الرحمة أن تشعر بالحزن حين ترى متألماً ثم تمضي؛ الرحمة أوسع من ذلك: أن ترى ضعف الإنسان فلا تستغله، وخطأه فلا تشمت به، وانكساره فلا تزيد انكساراً، وأن تملك القدرة على القسوة ثم تختار الرفق، لأنك تستحضر مراقبة الله.

وفي زمن تتسارع فيه الحياة، وتتزاحم الشاشات بالأخبار والوجوه، قد نرى آلاف المآسي ثم نمضي إلى ما بعدها، حتى يخشى المؤمن أن تتحول كثرة الألم الذي يراه إلى اعتياد يطفئ حساسيته ويقسي قلبه، والرحمة في جوهرها أن يبقى قلبك حياً أمام وجع الإنسان، وأن يدفعك ما ترى إلى موقف، ولو كان كلمة أو سترًا أو إعانة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^١، ووصف نبيه ﷺ بقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^٢ فالرحمة ليست خلُقًا هامشيًا، بل من آثار الاقتداء بالنبي ﷺ، تظهر في كلام المؤمن ونظرته، وفي عفوه ورفقه وإحسانه.

 الرحمة تبدأ من نظرتك إلى الإنسان

قد ترى فقيرًا فتراه محتاجًا فقط، وكبيرًا فتراه بطيئًا، وطفلًا فتراه مزعجًا، وموظفًا أخطأ فتختصره في خطئه. أما الرحمة فتعلمك أن ترى الإنسان قبل الموقف، وأن تتذكر أن وراء كل تصرف قلبًا له ظروفه وضعفه وقصته التي لا تعرفها.

قال ﷺ: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"^٣ ليست الرحمة هنا شعورًا عابرًا، بل خلُقًا يُرجى به رحمة الله.

ومن أرق ما يكشف رحمة النبي ﷺ أنه خاطب طفلًا في شأن طائر صغير فقده؛ فقال له: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»، موقف يسير، لكنه عظيم الدلالة: لم يحتقر النبي ﷺ حزن الطفل لصغره، بل التفت إلى قلبه؛ وكأن التربية النبوية تعلمنا أن ما يبدو صغيرًا في أعيننا قد يكون كبيرًا في قلب غيرنا.

 الرحمة لا تعني إلغاء العدل

١ سورة الأنبياء، الآية ١٠٧:

٢ سورة التوبة، الآية ١٢٨

٣ سنن الترمذي، حديث رقم ١٩٢٤،

٤ صحيح البخاري، حديث «يا أبا عمير ما فعل النغير»، ورواه مسلم أيضًا

الرحمة ليست أن تترك الظالم في ظلمه، أو تعفي المخطئ من النصيحة، أو تسمح لأحد بإيذائك، قد تكون الرحمة نصحًا، أو منعًا للخطأ، أو وضع حدود تحمي الضعيف.

يمكنك أن تكون رحيماً وحازماً؛ تعفو حين يكون العفو خيراً، وتأخذ حقك دون ظلم أو تشفٍّ؛ فالرحمة لا تناقض العدل، كما أن الحزم لا يستلزم القسوة؛ إنما يضع كل خلق في موضعه.

 في البيت تظهر الرحمة الحقيقية

قد يحسن الإنسان إلى الغرباء ثم تضيق أخلاقه بأهله. يتسم للناس، ويرفع صوته في بيته، ولهذا قال ﷺ: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي^١. فالرحمة في البيت قد تكون أشياء صغيرة: أن تستمع بدل أن تقاطع، وتخفص صوتك، وتشكر من اعتدت على عطائه، وتجلس مع طفلك، وتسأل زوجتك عن يومها، وتتصل بوالدتك دون حاجة.

 الرحمة في زمن الشاشات

ليس كل ما تستطيع نشره ينبغي أن تنشره، ولا كل خطأ تراه يستحق الفضيحة، ولا كل ضعف يصلح مادة للسخرية.

قد تملك صورة محرجة لشخص فتحذفها، وتستطيع أن تنتصر في نقاش فتختار حفظ كرامة الطرف الآخر، وحتى من أساء إليك، احم نفسك من أذاه، لكن لا تسمح لإساءته أن تحولك إلى إنسان مؤذٍ؛ فظلم الآخرين ليس إذناً لنا بالتخلي عن أخلاقنا.

 وقفة مع النفس

من يحتاج إلى رحمتك اليوم؟ هل هناك شخص قسوت عليه لأنك لم تفهم ظروفه؟ هل أخذ هاتفك من وقت من تحب أكثر مما ينبغي؟

اختر فعلاً واحداً: ساعد إنساناً، استمع لمن يحتاج، أطعم محتاجاً، ارفق بطفل، اتصل بقريب، أو ببساطة لا تكن سبباً في ألم تستطيع منعه.

فالرحمة قلب يشعر، ولسان يرفق، ويد تعين، ونفس تكف عن الأذى.

وأنت عبد تحتاج إلى رحمة الله، والناس عباد يحتاجون إلى الرحمة؛ فكن رحيماً، لا لأن الناس كاملون، بل لأن الله يحب الرحمة، ولأنك أحوج ما تكون إلى رحمته. وربما كان أجمل ما تتركه خلفك قلوباً مرت بها ثم قالت: كان وجوده رحمة. فلا تستطيع أن تجعل العالم كله أرحم، لكنك تستطيع أن تجعل الدائرة التي وضعك الله فيها أرحم قليلاً بسببك.

أن تكون مأمناً لمن حولك

ليس كل الناس يبحثون عمّن ينقذهم من مشكلاتهم؛ أحياناً يبحث الإنسان عن مكان يكون فيه على حقيقته دون خوف: لا يتظاهر بالقوة، ولا يخشى أن تُستخدم كلماته ضده، ولا يتحول ضعفه إلى مادة للسخرية.

وهنا يظهر خلق عظيم: أن تكون مأمناً لمن حولك. يشعر من يجلس معك أنه يستطيع أن يتحدث، ويخطئ دون أن تفضحه، ويختلف دون أن تهينه، ويشاركك ضعفه دون أن تستغله.

قال رسول الله ﷺ: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده^١؛ فحسن الخلق ليس لطفاً في الكلام فقط، بل أن يأمن الناس أذاك، وألا يخافوا منك غدرًا أو تشهيرًا أو استغلالًا.

بعض الناس يخافون الكلام أكثر من الألم؛ فقد يقول أحدهم كلمة في ضعف، ثم تصبح سلاحاً ضده، أو يعترف بخطئه فتتحول زلته إلى لقب يلاحقه، أو يأتمن شخصاً على سر فإذا به ينتقل من مجلس إلى آخر.

لذلك لا يُقال الأمان: «ثق بي»، بل تثبته المواقف: إذا ائتمنتك إنسان فاحفظ أمانته، وإذا رأيت ضعفه فلا تستغله، وإذا غضبت منه فلا تبحث عن أضعف نقطة فيه لتؤلمه بها.

 الأمان يظهر وقت الخلاف: حقيقة الأخلاق تظهر حين يغضب الإنسان؛ فالصراحة ليست رخصة للقسوة، والغضب ليس تصريحاً بإلغاء الأخلاق.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا۟ۖ اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰىۖ﴾^٢ حتى الخصومة لا تبيح الظلم، وانتهاء العلاقة لا يبرر إفشاء الأسرار، وقدرتك على إيذاء من اختلفت معه لا تعني أن من حَقك إيذاؤه؛ بل قد تكون أخلاقك الحقيقية حين تستطيع الانتقام ثم تختار التقوى.

١ أخرجه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠) مختصراً.

٢ سورة المائدة، الآية ٨.

وفي زمن التقنية، ليست كل رسالة خاصة أو صورة وصلتك حقًا لك في نشرها؛ خصوصية الناس ليست محتوى، ومحادثاتهم ليست مادة للضحك، ومن الستر أن تملك القدرة على النشر ثم تختار الحفظ.

 البيت أول موضع للأمان: أهم مكان ينبغي أن يجد فيه الإنسان الأمان بيته. هل يستطيع ابنك أن يأتيك بخطئه قبل أن يتفاهم؟ وهل يستطيع ابنتك أن تخبرك بما يخفيها دون سخرية؟ وهل يشعر الزوج أو الزوجة أن ضعفه لن يتحول إلى سلاح في أول خلاف؟

بعض الأبناء لا يخفون أخطاءهم حبًا للكذب، بل لأنهم تعلموا أن الصراحة في البيت مكلفة. الأمان يفتح أبوابًا لا تفتحها الأوامر؛ فقل لابنك: «إذا أخطأت، تعال إليّ قبل أن تخفي الخطأ، وسنحاول إصلاحه معًا.

لكن أن تكون مأمنا لا يعني أن تكون بلا حدود؛ قد تسامح ولا تعيد المسيء إلى موضع يستطيع فيه إيذاءك، وترفض دون إهانة، وتبتعد دون شماتة، وتحمي نفسك دون انتقام؛ فالرحمة لا تلغي الحكمة.

وإذا جاءك نادم؛ فلا تثبت سقوطه؛ قل له: «لقد أخطأت، لكن يمكنك أن تصلح»؛ فالإنسان قد يحتاج إلى من يعينه على العودة، لا إلى من يذكره بأنه سقط.

 الأمانة حين لا يراك أحد

وفي قصة أصحاب الغار، صورة بديعة للأمانة: ذكر أحد الثلاثة أنه استأجر أجيًا؛ فترك أجره؛ فاستثمره له حتى نما، ثم جاءه فأعطاه ماله كله، لم يكن أمامه رقيب من الناس، لكنه علم أن الله يراه؛ فحفظ حق الرجل.

فالأمان أعمق من حسن المعاملة: أن تكون أمينًا حين تستطيع الخيانة، وتحفظ ما استودعت عليه حين لا يراقبك أحد.

فاسأل نفسك: هل يأمن الناس جانبي؟ هل أحفظ الأسرار؟ هل أستعمل ما أعرفه وقت الغضب؟ هل يستطيع أهلي الاعتراف لي بأخطائهم؟ وإذا انتهت علاقتي بشخص، هل تبقى أمانته مصونة؟

وأنت نفسك تحتاج إلى الرحمة والأمان؛ فاجعل حضورك في حياة الناس مساحة
أمان: احفظ الأمانة، ولا تستغل الضعف، وأعن المخطئ على إصلاح خطئه، واعدل
عند الاختلاف، واحفظ لسانك عند الغضب.
قد ينسى الناس كثيرًا مما قلته لهم، لكنهم لا ينسون كيف شعروا معك؛ فكن ممن إذا
ائتمنه الناس اطمأنوا، وإذا ضعفوا أمامه لم يخافوا.
ولعل أجمل أثر تتركه في حياة إنسان أن يخرج من عندك وهو يحمد الله أن ما زال في
الناس من يؤتمن.

عبادة الله في الأيام العادية



عبادة الله في الأيام العادية

ليس الامتحان الحقيقي أن يعبد الإنسان الله في لحظة حماس، وإنما أن يظل على طريقه حين تخفت المشاعر، وتكرر الأيام، وتثقل المسؤوليات، وتصبح الطاعة جزءاً من الحياة اليومية؛ فكثير من الناس يعرفون كيف يبدأون، لكن القليل يتعلمون كيف يستمرون.

وفي هذا الباب سنقترب من معنى الثبات، وكيف تتحول العبادة من لحظة عاطفية إلى حياة مستقرة؛ وسنتحدث عن الصلاة حين تصبح صلة بالله لا مجرد أداء للواجب، وعن حضور القلب، وعن الفتور الذي قد يصيب المؤمن، وكيف يعود بعد الانقطاع دون أن يستسلم لليأس.

وسنتأمل قيمة العمل القليل الدائم، وعبادات السر التي لا يعلم بها أحد، وكيف يستطيع الإنسان أن يحتفظ بينه وبين الله بأعمال خفية لا يطلب بها مدحاً ولا ثناءً.

وسنواجه سؤالاً قد يراود كثيراً من الناس: ماذا تفعل حين لا تجد لذة العبادة؟ وهل يعني غياب الشعور أن الله لا يريدك؟

وسنتعلم أن صدق العبودية لا يُقاس دائماً بدرجة الشعور واللذة؛ فقد يعبد العبد ربه في وقت يجد فيه نشاطاً، ويعبده في وقت آخر وهو يجاهد نفسه، وفي كلا الحالين هو محتاج إلى الله.

فالإنسان لا يستطيع أن يعيش دائماً في ذروة وجدانية أو روحانية؛ لكن يستطيع أن يحافظ على الطريق، وأن يعود كلما فتر، وأن يجعل القليل الثابت جسراً يصل به إلى المزيد من الطاعة.

وسنتحدث عن تنظيم الوقت، ومقاومة التسويف، وبناء العادات الصالحة، وكيف يمكن للإنسان أن يحول الأعمال اليومية المعتادة إلى أبواب من الأجر إذا صحت نيته والتزم بما شرع الله.

وهذا الباب دعوة إلى عبادة الله في الأيام العادية؛ في الصباحات المتشابهة، وفي الأعمال المتكررة، وفي الأيام التي لا يحدث فيها شيء استثنائي؛ فهناك أيضاً ثبني حقيقة الاستقامة.

حين تصبح الصلاة حياة

الصلاة في بدايتها قد تكون موعدًا ننتظره، ثم تصبح مع الأيام موعدًا نعتاد عليه، وهنا سؤال أعمق: هل أصبحت الصلاة جزءًا من حياتك، أم أصبحت حياتك هي التي تقتطع منها دقائق للصلاة؟

قد يحافظ الإنسان على صلاته سنوات، ثم يكتشف أن جسده كان واقفًا فيها، بينما قلبه مشغول بغيرها، يكبر للصلاة، وهاتفه في ذهنه، ويقرأ، وقائمة أعماله لا تفارقه، ويسجد، وقلبه يتعجل ما بعد الصلاة، وليس المطلوب أن تكون كل صلاة مملوءة بالمشاعر؛ فالإنسان يغفل ويجاهد نفسه، لكن المهم: هل إذا شرد قلبك أعدته؟ الصلاة ليست استراحة من الحياة، بل إعادة توجيه لها، قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^١؛ فهي تذكّر العبد بربه، وبغاية وجوده، وبما يستحق أن يأخذ قلبه، قد تدخلها حاملًا همًّا، وتخرج والهم باقٍ، لكنك خرجت وأنت تستعين بالله، وتعلم أن ما يشغلك ليس أكبر من قدرته سبحانه.

وتأمل رحمة الله في تكرارها خمس مرات في اليوم؛ محطات يعود فيها القلب إلى ذكر الله وسط العمل والمسؤوليات وتقلبات الحياة، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^٢؛ فالصلاة ليست حركات تؤدي ثم تنتهي آثارها، بل عبادة ينبغي أن يظهر نورها في السلوك: أصدق، وأعدل، وأبعد عن الظلم، وأكثر مراقبة لله.

وفي زمن الهاتف والإشعارات، تحتاج الصلاة إلى حماية من الضجيج، ضع هاتفك بعيدًا، وتوضأ بهدوء، ولا تدخل الصلاة مباشرة من مقطع أو محادثة أو خبر، لا تنتظر أن يحضر قلبك من المرة الأولى؛ علّمه الحضور بالتكرار.

وحضور القلب لا يعني ألا يخطر ببالك شيء؛ قد تتذكر عملاً أو مشكلة أو موعدًا، لكن حين تنتبه، عد، تقرأ؛ فيسرح ذهنك؛ فتعود إلى الآية، تسجد؛ فيغيب قلبك؛ فتتذكر أنك في عبادة؛ فتعود، هذه العودة ليست فشلًا، بل مجاهدة.

١ سورة طه ١٤

٢ سورة العنكبوت ٤٥

ولا تربط العبادة دائماً باللذة، قد تصلي وقلبك منشراح، وقد تصلي وأنت متعب مثقل بالهموم، وفي الحالين أنت عبد لله؛ فلا تجعل غياب الشعور الجميل سبباً للفتور؛ فالثبات على العبادة في أيام النشاط والضعف من معاني العبودية.

وحين تستقر الصلاة في حياتك، يظهر أثرها خارج المسجد: قبل أن تظلم أحداً تتذكر وقوفك بين يدي الله، وقبل أن تطلق كلمة جارحة تتذكر أنك عبد لله، وقبل أن تأخذ ما ليس لك تستحضر حساب الله، عندها لا تعود الصلاة جزءاً من يومك فحسب، بل يبدأ يومك كله في الانتظام حولها.

ولا تقل لمن أذنب: «وأنت تصلي؟» بل قل له: صلّ، وتب، وأصلح، لا تجعل الذنب سبباً لترك الصلاة، ولا تجعل ضعفك حجة للابتعاد عن الله، قد يتعثر المؤمن، لكن عليه أن يجعل الصلاة باباً يعود منه كلما أخطأ.

ومن علامات تعظيم الصلاة أن تخطط يومك حولها، كما تستعد لموعد مهم، لا تحاول إدخالها في الفراغ المتبقي، بل اجعلها من محاور يومك، ومع الوقت، لن تشعر أن الصلاة تقطع يومك، بل ستشعر أن اليوم نفسه يستقيم بها.

فاسأل نفسك: هل أرى الصلاة موعداً أريد التخلص منه، أم فرصة للوقوف في عبادة الله؟ هل أعرف معاني ما أقرأ؟ وهل أجاهد قلبي إذا شرد؟

جرب اليوم أن تغلق هاتفك قبل الصلاة بدقائق، وأن تتوضأ بهدوء، ثم تدخل الصلاة مستحضراً عظمة من تعبد، وإذا شرد قلبك؛ فأعده، وإذا لم تشعر بشيء؛ فلا تترك الباب.

فليست الغاية أن تقول: «أنا أصلي»، بل أن تصبح الصلاة جزءاً من إجابة أعمق عن سؤال: من أنا، ولمن أعيش؟

تعمل وأنت عبد لله، وتسعى وأنت عبد لله، وتفرح وتتعب وتخطئ ثم تعود إلى الله، ثم يأتي وقت الصلاة؛ فتترك ضجيج الدنيا لحظات، وتقف في عبادة ربك.

فاحفظ صلاتك، واجعل لها أثراً في يومك؛ فحين تصبح الصلاة حياة، لن تسأل: كيف أجد وقتاً للصلاة؟ بل ستدرك كم كنت تحتاج إليها لتستقيم حياتك.

كيف تحضر بقلبك؟

قد يقف الإنسان في الصلاة بجسده، بينما قلبه مشغول بغيرها. يتلو الفاتحة وذهنه في العمل، ويسجد فيتذكر رسالة لم يرد عليها، ثم يسلم ويفتح هاتفه مباشرة، وهنا السؤال: كيف أحضر بقلبي في الصلاة؟

نحن نعيش في زمن تتنافس فيه آلاف الأشياء على انتباهنا؛ إشعار، ورسالة، وخبر، ومقطع، ومهمة مؤجلة، ولذلك أصبح من مجاهدة القلب أن يتعلم البقاء في اللحظة التي هو فيها، والصلاة أولى هذه اللحظات وأعظمها.

الخشوع لا يأتي بضغطة زر؛ أَلْقَبْ يَتْرَبِي، وقد تحتاج إلى أن تعيده إلى الصلاة مرات كثيرة في الركعة الواحدة، تسرح؛ فتنته وتعود؛ تتذكر أمراً، ثم تعود؛ تغيب لحظة، ثم تستحضر أنك في عبادة الله، هذه العودة ليست فشلاً، بل مجاهدة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^١؛ فالخشوع ليس هدوء الجسد فقط، بل حضور القلب وتعظيم الله وفهم ما تقوله.

وقبل أن تطلب من قلبك الحضور، خفف ضجيج العالم، لا تدخل الصلاة مباشرة من تصفح أو محادثة؛ أغلق هاتفك، واترك ما في يدك، وتوضأ بهدوء، وخذ لحظات تنتقل فيها من انشغال الدنيا إلى عبادة الله.

ثم اعرف معنى ما تقول، حين تقول: «الله أكبر»، استحضر أن الله أعظم من كل ما يشغلك ويقلقك، وحين تقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^٢، تذكر أنك تعبد رّباً للعالمين، وحين تقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»^٣، استحضر افتقارك إليه، وكلما فهمت ما تقرأ، وجد القلب طريقاً إلى المعنى.

وفي السجود يزداد رجاء العبد ودعاؤه؛ وقد قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»؛ فأكثرُوا الدعاء، وهذا قرب يليق بجلال الله، وهو قرب عبادة ورحمة وإجابة، لا قرب مكان أو حلول أو مماسة.

١ سورة المؤمنون ١-٢

٢ سورة الفاتحة : الآية ٢

٣ سورة الفاتحة الآية ٥

٤ أخرجه مسلم (٤٨٢) والألباني أورده في صحيح الكلم الطيب ، الكلم الطيب (٩٥)

ولا تقرأ القرآن بألفاظه فقط، بل بتدبره؛ إذا مررت بآية في الرحمة؛ فتذكر حاجتك إليها؛ وإذا مررت بذكر التوبة؛ فراجع نفسك؛ وإذا ذكرت الآخرة؛ فتذكر أنك صائر إليها، دع الآيات تصل إلى قلبك، لا أن تمر على لسانك فحسب.

ولا تدخل في معركة مع كل فكرة تخطر لك؛ إذا جاءتك فكرة؛ فلا تحاكم نفسك عليها؛ انتبه، ثم عد، تذكرت عملاً؟ قل: بعد الصلاة، تذكرت رسالة؟ بعد الصلاة، جاءك هم؟ عد إلى صلاتك، ليس المطلوب أن تختفي الأفكار، بل ألا تتبع كل فكرة تأخذك بعيداً.

وقد تدخل الصلاة وقلبك مثقل بفقد أو خوف أو مشكلة، لا تحتاج إلى أن تتظاهر أمام الله بأنك بخير؛ فهو سبحانه يعلم سرّك ونجواك؛ أجعل صلاتك موضع افتقار ودعاء، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^١، وليس معنى الطمأنينة أن تختفي المشكلة فوراً، بل أن يستمد القلب من ذكر الله قوة تعينه على مواجهتها.

ولا تجعل الخشوع مرتبطاً بالدموع أو اللذة، قد تبكي وقد لا تبكي، وقد تجد رقة في قلبك وقد يعتريك جفاف؛ المقياس أوسع من الشعور اللحظي: تعظيم الله، وفهم ما تقول، ومجاهدة النفس، ثم ظهور أثر الصلاة في أخلاقك وقراراتك.

ولهذا يبدأ حضور القلب خارج الصلاة أيضاً، خفف الاستهلاك العشوائي للمحتوى، واترك لنفسك أوقاتاً بلا شاشة، ولا تجعل الهاتف أول ما تراه عند الاستيقاظ وآخر ما تراه قبل النوم؛ فالقلب الذي اعتاد الانتقال السريع بين مئات الأشياء يحتاج إلى تدريب حتى يسكن.

واسأل نفسك: هل أدخل الصلاة مباشرة من الهاتف؟ هل أعرف معاني ما أقرأ؟ هل أستعجلها لأعود إلى مشاغلي؟ وإذا شرد قلبي، هل أستسلم أم أعود؟

جرب اليوم شيئاً بسيطاً: قبل الصلاة بخمس دقائق لا تفتح هاتفك، وتوضأ بهدوء، ثم ادخل الصلاة مستعيناً بالله، لا تطلب من نفسك خشوعاً كاملاً من أول مرة؛ اطلب الصدق والمجاهدة؛ إذا شردت، عد، وإذا شردت مرة أخرى، عد مرة أخرى.

ستبقى الدنيا مليئة بالفواتير والمواعيد والأخبار والمشكلات، وسيبقى الهاتف يطلب انتباهك، لكن الصلاة تعلمك أن تقول لكل ذلك، ولو لدقائق: ليس الآن؛ الآن أعبد الله.

فحين تحضر بقلبك في الصلاة، لا تهرب من الحياة، بل تعود إليها بقلب أكثر اتزاناً، مستحضراً أن رزقك بيد الله، وأن مستقبلك لا يصنعه القلق، وأن قيمتك لا تتوقف على أعين الناس.

إذا غاب قلبك؛ فلا تيأس منه؛ نادِه، وأعدّه، وعلمه أن يعود، وربما لم يكن أجمل ما في صلاتك أنك لم تسرح قط، بل أنك كلما شردت، عدت إلى الله.

وهكذا يصبح حضور القلب خلقاً تعيشه، تستحضر مراقبة الله في قراراتك، وتذكره في خلوتك، وتستعين به في ضعفك، وتعود إليه كلما أخذتك الدنيا بعيداً؛ فالصلاة التي تحضر فيها بقلبك لا ينتهي أثرها حين تسلم، بل يبقى منها شيء في قلبك وأخلاقك وحياتك.



حين لا تجد لذة العبادة

قد يأتي وقت تقف فيه للصلاة، لكن قلبك لا يتحرك كما كان، تقرأ القرآن فلا تجد الأثر الذي كنت ترجوه، وتدعو فيبدو الدعاء ثقیلاً، وتذكر الله ولسانك يعمل، بينما قلبك يبحث عن الشعور الذي كان يأتيك من قبل.

ثم تسأل: ما الذي حدث لي؟ هل ابتعدت عن الله؟ هل فقدت الإيمان؟ هذه الأسئلة مؤلمة، لكنها ليست بالضرورة علامة على النهاية؛ فالإنسان يتقلب، والقلب يضعف وينشط، والأيام ليست سواء، وليس كل عمل صالح مصحوباً بلذة شعورية.

لا تجعل الشعور مقياس علاقتك بالله، قد تطيع الله وأنت نشيط مقبل، وقد تطيعه وأنت تجاهد نفسك وتثقل عليك العبادة، وفي الحالين أنت عبد لله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^١ فالمجاهدة نفسها من الطريق، والهداية ثمرة من ثمرات الاستعانة بالله والصدق في السير إليه.

قد تستيقظ للفجر متعباً، ولا تجد في نفسك رغبة في القيام، ثم تقوم وتتوضأ وتصلي، وقد تغض بصرك مع وجود الداعي، وتترك الحرام مع قدرتك عليه، ليست الطاعة دائماً ما تشتهيها النفس، وإنما قد تكون ما تختاره طاعة لله حين لا توافقها رغبتها.

ولا تطلب من قلبك أن يعيش أعلى لحظاته الإيمانية طوال العام، قد تذكر رمضان، أو قياماً بكى فيه قلبك، أو دعاءً شعرت فيه بانكسار عظيم، ثم تعود إلى أيام العمل والانشغال؛ الإيمان ليس أن تبقى مشاعرك في أعلى درجاتها، بل أن تحافظ على الاتجاه؛ قد تبطئ، لكن لا تترك الطريق.

وفي زمن المكافأة السريعة، نريد أحياناً أثر العبادة فوراً: نقرأ فنريد أن نشعر، وندعو فنريد أن نطمئن، ونصلي فنريد اللذة لكن آثار العبادة تنمو في هدوء؛ تصلي اليوم، ثم بعد أشهر تكتشف أنك أصبحت أصبر، وأسرع إلى التوبة، وأبعد عن بعض الذنوب، بعض أعظم التغييرات تحدث دون أن نشعر بها لحظة وقوعها.

فَأَسْأَلُ نَفْسِيكَ

هل إذا غاب الشعور غاب الالتزام؟

ما أكثر ما يشئت قلبي؟

وما العبادة الصغيرة التي أستطيع الثبات عليها؟

ثم افعَل شيئاً بسيطاً اليوم:

- صلّ الصلاة القادمة بهدوء،
- واقرأ بضع آيات بتدبر،
- واجلس لحظات بعد الصلاة بعيداً عن الهاتف،
- وقل:

* يا رب، إن ضعف قلبي فلا تحرمني طريقك،
وأعني على طاعتك.

لا تنتظر أن يعود قلبك كاملاً حتى تعود إلى الله؛ عد
إلى الله وجاهد نفسك، وسيأتي الفرج بقدر الله.

فإن الله ربك في يوم النشاط، وهو ربك في يوم الفتور.
والعبادة لا تسقط لأن اللذة غابت؛ فإن لم تجد الشعور،
فابق، وإن فترت، فخفف ولا تتقطع، وإن سقطت،
وعُد. وعُد.

وربما كانت من أجمل علامات حياة القلب: أنك رغم
الفتور والجفاف، ما زلت تبحث عن طريق العودة.

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: 69]

فإذا لم تجد لذة في الصلاة؛ فلا تتركها، وإذا
ثقل عليك القرآن؛ فلا تهجره، وإذا كان
الدعاء ثقيلاً؛ فلا تقطعه، وإن فترت؛ فخفف
من النوافل التي لا تقدر عليها، وحافظ على
الفرائض، وابحث عن القليل الثابت.

ابدأ بالأساسيات: صلاة في وقتها، وورد يسير
من القرآن، وذكر ثابت، ودعاء ولو قصيراً،
ونظم نومك ووقتك، وخفف من الاستهلاك
العشوائي للمحتوى؛ فقد يحتاج القلب أحياناً
إلى الاستقرار أكثر من حاجته إلى جرعات
كبيرة من الأعمال.

وراجع ما يدخل إلى قلبك: ماذا تنظر؟ ماذا
تسمع؟ كم تستهلك من المقاطع والأخبار
والجدالات؟ قد يكون الفتور فرصة لتراجع
نمط حياتك، لكن لا تجعل كل فتور حكماً
قاطعاً على علاقتك بالله، ولا تجعل مراجعة
النفس جلدًا لها؛ أن وجدت معصية؛ فتب
وأصلح، ولا تقل: «لقد أفسدت كل شيء»

وفي المقابل؛ فقد قال النبي ﷺ لما بالغ

بعض أصحابه في العبادة: أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر،
وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني^١؛ فالعبادة ليست غلواً
يستنزف النفس، وإنما اتباع واستقامة وتوازن، ولا تحاكم نفسك في أسوأ أيامك؛ هذه
الصلاة ليست صلاتك التي لم تجد فيها الخشوع، ولا الصفحة التي قرأتها دون تأثر؛
أنت عبد يجاهد ويسير، وقد يبطل ويتعثر، لكن باب التوبة لا يغلق.

١ صحيح البخاري (٥٠٦٣) أخرجه مسلم (١٤٠١)، والنسائي (٣٢١٧)، وأحمد (١٣٥٣٤) بنحوه .

الطاعة في زمن الفتور

هناك فرق بين أن تطيع الله حين تكون نفسك مقبلة، وبين أن تطيعه حين تكون ثقيلة؛ في أيام النشاط تبدو العبادة سهلة؛ تستيقظ للفجر، وتقرأ القرآن، وتكثر من الذكر، وتقوم الليل، ثم تأتي أيام يقل فيها النشاط، وتزدحم المسؤوليات، وتصبح الطاعة التي كنت تفعلها بحماس شيئاً تحتاج إلى مجاهدة حتى تبدأه.

وهنا يظهر سؤال أعمق: هل أعبد الله لأنني أشعر بالرغبة، أم لأنني عبد لله في كل أحوالي؟

قد يعرض للمؤمن الفتور، وليس كل فتور دليلاً على فساد القلب، لكن الخطر أن يتحول إلى انقطاع؛ فالحماس يعين على البداية، أما الاستمرار فيحتاج إلى صبر ومجاهدة واستحضار معنى العبودية والقليل المستمر خير من اندفاعة تنقطع، ما دام العمل مشروعاً وصالحاً.

وحين لا تريد أن تطيع، لا تجعل كل رغبة أمراً يجب تنفيذه فقد لا تشتهي الطاعة ثم تفعلها؛ لأنك تعلم أنها حق؛ لكن لا تعالج الفتور بقسوة على نفسك أو بإغراقها في التكاليف؛ أبدأ بما تستطيع الثبات عليه: صلاة الفريضة، وورد يسير من القرآن، وذكر ثابت، وصدقة ولو قليلة، وعمل صالح لا يعلمه إلا الله، ثم زد إذا وجدت قدرة.

وفي زمن الفتور، الفرائض أولاً؛ أسأل نفسك: هل أحافظ على الصلاة؟ هل أؤدي ما أوجب الله عليّ؟ هل أترك المحرمات؟ هل أحفظ حقوق الناس؟ قد يقل نشاطك في النوافل، لكن لا تجعل الفتور يجرك إلى التفريط في الواجبات؛ فالثبات لا يعني أن تفعل كل شيء في كل وقت، بل أن تعرف ما لا يجوز أن يسقط من حياتك.

ومن أجمل التحولات أن تنتقل من سؤال: «هل أشعر بالرغبة؟» إلى سؤال: «ما الذي ينبغي أن أفعله؟» فلا تحتاج كل صلاة إلى حماس جديد، ولا كل طاعة إلى شعور جميل يسبقها؛ فالعبودية ليست مزاجاً عابراً، بل التزام بما يحبه الله ويرضاه.

ولا تحتقر الطاعة الصغيرة، قد تقرأ صفحتين، أو تصلي الوتر، أو تساعد إنساناً، أو تغض بصرك عن حرام، أو تكف كلمة جارحة، وقد قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو

بشق تمرّة؛ فمن لم يجد فبكلمة طيبة»^١؛ فلا تستصغر خيرًا تستطيع فعله، وإن كان يسيرًا.

من النافع في زمن الفتور أن تجعل بينك وبين الله عملاً خفيًا: دعاء، أو صدقة، أو ذكرًا، أو ترك معصية لا يعلم بها أحد، وحين يغيب نظر الناس، يبقى السؤال: لمن أفعل هذا؟

ولا تجعل الذنب يستهلك طاقتك؛ إن قصرت فقل: قصرت، وسأعود. ابدأ من الصلاة القادمة، والصفحة القادمة، والقرار القادم.

ولا تقارن نفسك بالآخرين؛ فالله أعلم بظروف عباده وجهادهم. الاستقامة تُبنى في الأيام العادية: صلاة في وقتها، وضبط للسان، وترك للحرام مع القدرة عليه، وأداء حق لا يراك فيه أحد؛ فهذه التفاصيل الهادئة هي التي تشكل الإنسان.

فاسأل نفسك: ما العبادة التي لا أريد تركها مهما فترت؟ وما العمل الصغير الذي أستطيع المداومة عليه؟ وإذا تعثرت، هل أعود سريعًا أم أنتظر حتى أشعر أنني صالح للعودة؟

ثم اختر شيئًا واحدًا وثبت عليه؛ إن كنت قويًا فاشكر الله، وإن ضعفت فاستعن به، وإن أقبل قلبك فاغتتم، وإن أدبر فلا تترك الطاعة، وإن سقطت فقم.

فالثبات ليس ألا تضعف، بل أن تعرف كيف تعود كلما ضعفت، وقد تكون الصلوات التي أديتها وأنت متعب، والآيات التي قرأتها وأنت فاطر، والمعاصي التي تركتها، والعودة بعد كل سقوط؛ هي التي أبقتك على الطريق.

في زمن الفتور، لا تبحث عن أفضل حالاتك؛ ابحث عن ألا تنقطع عن الله؛ فالقليل الذي يدوم، مع الإخلاص والاستقامة، قد يبني فيك ما لا تبنيه دفعات الحماس العابرة.

١ أخرجه البخاري (٦٥٤٠)، ومسلم (١٠١٦)

كيف تعود بعد انقطاع؟

قد تمر على الإنسان أيام لا يشبه فيها نفسه: كان يصلي بخشوع، ثم بدأ يتأخر؛ وكان يقرأ القرآن كل يوم، ثم انقطع؛ ويحافظ على الأذكار، ثم ازدحمت عليه الحياة؛ ويترك بعض الذنوب، ثم يعود إليها، يقول في البداية: «سأعود غدًا»، ثم يأتي الغد، ويليه يوم آخر، حتى يصبح الانقطاع نفسه شيئًا يثقل القلب.

فكيف تعود؟

الجواب الأول: عُدْ لا تنتظر أن تصبح كما كنت، ولا أن تشعر بالشوق، ولا أن تنتهي مشكلاتك؛ أبدأ من مكانك الآن. لا تجعل انقطاعك هويتك.

لا تقل: «أنا بعيد عن الله»، بل قل: «لقد قصرت وأريد أن أرجع»؛ فالإنسان ليس مجموع أسوأ أيامه، قد تضعف، لكن الضعف ليس قدرك؛ وقد تخطئ، لكن الخطأ لا يمنعك من التوبة، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^١ ولا تقل: عندما أصلح نفسي سأعود، بل عُدْ إلى الله بالتوبة والطاعة، واستعن به على إصلاح نفسك، لا يشترط لقبول توبتك أن تأتي وقد اكتمل حالك؛ بل جاهد نفسك، وكلما زلت فجدد التوبة، قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه»، رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

إبدأ من أقرب خطوة

حافظ على الصلاة الحاضرة، وافتح المصحف ولو لصفحة، وأكثر من ذكر يسير تستطيع المداومة عليه، وادعُ الله، واترك الذنب قدر استطاعتك، لا تحاول تعويض كل ما فات في يوم واحد؛ فالبداية المتحمسة التي لا تستمر قد تعيدك إلى الانقطاع، أما القليل الدائم فأبقى وأنفع. ولا تحاول استنساخ ماضيك.

ربما كنت تقوم الليل ساعة، واليوم لا تستطيع إلا ركعتين؛ فصلّهما، وربما كنت تقرأ جزءًا، واليوم تستطيع عشر آيات؛ فاقراها؛ أسأل: ما أفضل ما أستطيع فعله اليوم؟ ولا تجعل الفرق بين ماضيك وحاضرك سببًا لترك الحاضر.

ثم اسأل نفسك: لماذا انقطعت؟ أكان السهر، أو الهاتف، أو صحبة معينة، أو ذنبًا متكررًا، أو إرهاقًا، أو تراكم المسؤوليات، أو مبالغة في الالتزامات؟ أحيانًا تكون العودة في إزالة ما كان يسرق منك القدرة على الطاعة؛ أصلح نومك، وقلل ما يشغل قلبك، وابتعد عما يضعفك، واجعل التوبة تغييرًا للطريق لا مجرد ندم على السير فيه.

ولا تجعل الذنب حجة لذنب آخر؛ إذا سقطت؛ فلا تبقَ على الأرض، قم، واستغفر، وجدد توبتك، قد تتكرر الزلة؛ فتتكرر التوبة، مع أخذ أسباب الوقاية منها، ولا تجعل الخجل من تقصيرك يمنعك من الصلاة والدعاء والقرآن؛ بل اجعل تقصيرك باعثًا على الافتقار إلى الله وطلب عونه.

وقد تعود ثم تضعف مرة أخرى؛ وهذا لا يعني أن الطريق انتهى، تعلم أسباب ضعفك، ومتى تشتد عليك الفتنة، وما الذي يعينك على مقاومتها، واجعل لك نقطة رجوع ثابتة: صلاة الوتر، أو وردًا من القرآن، أو أذكار الصباح والمساء، أو صدقة، أو وقتًا للدعاء؛ عملاً مشروعًا تستطيع المحافظة عليه، لا ليغنيك عن بقية الطاعات، بل ليكون مرساة تعود إليها.

وتأمل قصة الرجل الذي قتل مئة نفس، ثم سأل عن التوبة؛ فأمر أن يترك أرض السوء إلى أرض صالحة؛ فمات في الطريق؛ فقبضته ملائكة الرحمة؛ كما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه في صحيح مسلم، لم يكن ماضيه خفيفًا، لكنه بدأ يتحرك في الاتجاه الصحيح.

فاسأل نفسك اليوم: ما الذي أشتاق إلى العودة إليه؟ وما سبب انقطاعي؟ وما أصغر خطوة أستطيع فعلها الآن؟ ثم لا تجعل العودة مشروعًا للمستقبل، صلّ، واقرأ، واستغفر، واترك الذنب، وادعُ الله.

ربما لا تستطيع إصلاح كل شيء اليوم، لكنك تستطيع أن تبدأ، وإذا تعثرت؛ فابدأ من جديد؛ وإذا ضعفت؛ فاستعن بالله؛ وإذا انقطعت؛ فعد.

ليست قيمة العودة في أن تمحو آثار الماضي فوراً، بل في أن تفتح صفحة جديدة من التوبة والإصلاح؛ فكلما أبعدتك الدنيا؛ فارجع إلى طاعة الله؛ وكلما أسقطتك نفسك؛ فانهض؛ ولا تستسلم لفكرة أن باب التوبة قد أغلق. لا تنتظر أن تصبح كما تتمنى حتى تعود؛ عُد، واجعل التوبة بداية الطريق.

القليل الذي لا ينقطع

قد يظن الإنسان أن الطريق إلى الله يحتاج دائماً إلى أعمال كثيرة وأوقات طويلة؛ فيبدأ بحماس: يقرأ كثيراً، ويقوم طويلاً، ويكثر من الذكر، ويضع لنفسه قائمة واسعة من الطاعات، ثم تأتي الحياة بما فيها من عمل وتعب ومسؤوليات وسفر ومرض؛ فتبدأ القائمة في السقوط، حتى يشعر أنه عاد إلى نقطة الصفر.

وهنا يحتاج إلى درس مهم: ليس المهم كم تفعل في يوم واحد، بل ما تستطيع أن تداوم عليه من الطاعة؛ فليست العبرة بكثرة البداية، وإنما بصدق الاستمرار.

لا تبني عبادتك على الحماس وحده؛ الحماس نعمة، لكنه متقلب؛ أما الاستقامة فتحتاج إلى عمل تستطيع المحافظة عليه في الأيام العادية، لا في أيام النشاط وحدها. قد تقرأ صفحة من القرآن كل يوم؛ فتبدو قليلة، لكنها مع الزمن تصبح جزءاً من يومك، وتكرار الطاعة يورث الألفة بها، حتى يصبح الذكر والقرآن والصلاة والصدقة أعمالاً حاضرة في حياتك، لا مواسم عابرة.

ولا تستصغر الركعتين، قد تقول: ماذا تصنع ركعتان؟ لكنهما خير من ترك النافلة التي تستطيعها، وربما كان في ركعتين خاشعتين دعاء صادق، أو لحظة افتقار إلى الله تعينك على الثبات؛ فلا تحتقر عملاً صالحاً تستطيع المداومة عليه.

وفي المقابل، لا تجعل الكثرة مقياساً لصدقك؛ أن تضع لنفسك عشرات الأهداف ثم تعجز عنها ليس هو الطريق الأمثل؛ فليس كل ما تستطيع فعله اليوم تستطيع المداومة عليه كل يوم؛ أجعل في عبادتك مساحة للأيام الصعبة، واحفظ الفرائض أولاً، ثم خذ من النوافل ما تطيق.

وهذا لا يعني أن تجعل القليل سقف طموحك أو تتخذ الكسل منهجاً؛ أبدأ بما تستطيع، ثم زد حين تستقر، قد تبدأ بصفحتين ثم تزيد، أو بركعتين ثم يفتح الله عليك، أو بذكر يسير ثم يكثر على لسانك، تثبت ما تستطيع، ثم وسّع ما استطعت. والاستمرار لا يكون في الطاعات فقط؛ بل في مجاهدة النفس وترك المعاصي أيضاً: أن تغض بصرك، وتحفظ لسانك، وتترك ما يضعف قلبك، وتتوقف قبل كلمة تؤذي،

وتستغفر إذا أخطأت؛ فالتقوى تتجلى في اختيارات صغيرة تتكرر حتى تصبح سلوكًا راسخًا.

ولا تحتاج الأعمال الصالحة إلى جمهور؛ قد لا يعلم أحد بصفتك التي قرأتها، أو بركعتك التي صليتها، أو بكلمة أمسكت عنها، أو بصدقتك الخفية، وبعض الخير أجمل حين يبقى بينك وبين الله.

وماذا تفعل إذا انقطعت؟ لا تجعل يومًا واحدًا يتحول إلى أسبوع؛ فانتك عباداة بالأمس؟ عد إليها اليوم، لم تقم الليل؟ صلّ الليلة، نسيت الذكر؟ ابدأ من الذكر التالي؛ فالعودة السريعة جزء من الثبات.

ولا تنتظر يومًا مثاليًا تخف فيه مسؤولياتك وتصفو فيه ظروفك؛ فهذا اليوم قد لا يأتي، صفحة اليوم خير من ورد كبير مؤجل، ودقائق من الدعاء الآن خير من دعاء طويل تؤجله؛ أعبد الله في حياتك كما هي، لا كما تتمنى أن تكون.

ولا تقارن وردك بورد غيرك، قد ترى من يقرأ كثيرًا أو يقوم الليل طويلًا؛ فاستفد منه، لكن لا تجعل حاله مقياسًا لقيمتك؛ أسأل نفسك: ما الذي أستطيع أن أقدمه لله بصدق واستمرار؟

ثم اختر عملًا واحدًا تستطيع المداومة عليه، واجعله ثابتًا: وردًا من القرآن، أو ذكرًا، أو نافلة، أو صدقة دورية، أو دقائق للدعاء، وإذا فاتك يوم؛ فلا تستسلم؛ عد مباشرة. قد لا ترى أثر الاستمرار سريعًا، لكن القلوب تتغير بالتدرج، والطاعات المتكررة تربى النفس وتعينها على الثبات بإذن الله.

فلا تقل: «ما أفعله قليل»، قل: هل هو مشروع؟ وهل أستطيع أن أداوم عليه؟ ثم افعل ما تستطيع، وزده حين تقدر.

فأجمل ما يمكن أن تصل إليه بعد سنوات ليس أن تقول: «كنت يومًا كثير العباداة»، بل أن تقول: ما زلت أصلي، وما زلت أذكر الله، وما زلت أقرأ، وما زلت إذا أخطأت أتوب، وما زلت أمشي إلى الله.

حين تثقل عليك الطاعات

قد يأتي على الإنسان وقت تصبح فيه الطاعة التي كان يؤديها بسهولة ثقيلة على نفسه. يستيقظ للصلاة ويجاهد النوم، ويفتح المصحف فلا يجد قلبه حاضراً، ويريد الذكر فيتشتت ذهنه، وتأتيه فرصة للقيام فيؤجلها؛ فيسأل: ماذا حدث لي؟ هل تغير قلبي؟ وهل ابتعدت عن الله؟

هنا يحتاج إلى أن يتوقف قليلاً، لا ليبرر تقصيره ولا ليجلد نفسه، بل ليفهم حاله؛ فتثقل الطاعة يحتاج إلى فهم وعلاج، لا إلى يأس. ليس كل ثقل علامة على البعد.

فالإنسان تتغير طاقته ونومه وظروفه ومسؤولياته، وقد يمر بإرهاق يجعل أشياء كثيرة ثقيلة عليه، وقد يكون السبب غفلة، أو ذنباً أو انشغالاً أو تحميل النفس فوق طاقتها، ولهذا لا تتسرع في الحكم على نفسك، ولا تتخذ ذلك عذراً لتترك الطاعة؛ أفهم حالك، ثم أصلح ما تستطيع.

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن طبيعة النفس فقال: «إن لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة؛ فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»؛ 'فوجود الفتور لا يعني سقوط العبد، ما دام محافظاً على الفرائض، متجنباً للمحرمات، حريصاً على الاستقامة.

والعبادة ليست دائماً شعوراً جميلاً، قد تصلي مشتاقاً، وقد تصلي وأنت تجاهد نفسك؛ وفي الحالتين أنت عبد لله، قد تقرأ القرآن بقلب حاضر، وقد تقرأه وقلبك مشغول وأنت تحاول جمعه؛ فلا تجعل لذة العبادة شرطاً لصحة سيرك.

بل إن المجاهدة نفسها باب عظيم من أبواب الخير، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^٢.

١ أخرجه أحمد (٦٧٦٤) واللفظ له، وأصله عند البخاري (١٩٧٨) ومسلم (١١٥٩)

٢ سورة العنكبوت ٦٩

ثم اسأل نفسك: لماذا ثقلت الطاعة؟ هل بسبب السهر، أو الإفراط في الهاتف والمشتتات، أو ذنب متكرر، أو إرهاق، أو برنامج عبادي يفوق طاقتك؟ فالعلاج يختلف باختلاف السبب.

وإذا اشتد عليك الأمر؛ فارجع إلى الأساس: الفرائض، وترك المحرمات، وأداء حقوق الناس، لا تجعل عجزك عن كثرة النوافل سبباً في إهمال الواجبات، وإذا كان حملك الزائد هو المشكلة؛ فخففه دون أن تترك الطريق؛ فالمطلوب أن تربي نفسك على الاستمرار، لا أن تستنزفها ثم تنقطع.

ولا تقارن نفسك بغيرك، قد ترى من يكثر من القراءة أو القيام أو الصيام، لكنك لا تعرف ظروفه ولا ما بينه وبين الله؛ أسأل بدلاً من ذلك: ما الذي أستطيع أن أفعله أنا بصدق واستمرار؟

وانتبه إلى الذنب الذي قد يثقل قلبك؛ فإذا عرفت سبباً يبعدك عن الله؛ فلا تكتفِ بالندم؛ أغلق بابه، وغيّر البيئة التي تعين عليه، واستعن بالله، وإذا زللت فتب وعد. ولا تقل: «أنا سيئ ولن أصلح»، قل: أنا مقصر، لكنني أستطيع أن أتوب وأصلح؛ فمحاسبة النفس تسأل: كيف أصلح؟ أما جلد الذات فيقول: أنت لا تصلح.

وقد تمر عليك أيام لا تحتاج فيها إلى حماس جديد، بل إلى صبر وثبات: حافظ على الصلاة، واترك المعصية، واقرأ القليل، واستغفر، وأدّ حقوق الناس، وواصل.

فإذا ثقلت عليك الطاعة؛ فلا تقل: «انتهى كل شيء»، قل: أنا في مرحلة أحتاج فيها إلى مجاهدة واستعانة بالله، ثم خذ خطوة واحدة: الصلاة القادمة، والآية القادمة، والاستغفار القادم.

إن جاءت لذة العبادة فاحمد الله، وإن تأخرت فاثبت؛ فالمؤمن لا يجعل عبادته رهينة لمشاعره؛ بل يعبد الله في النشاط والفتور، وفي السعة والضيق، ويستعين به في كل حال.

عبادات السر

هناك أعمال لا يصفق لها أحد، ولا يراها الناس، ولا تُنشر في صورة، ولا يعرف بها أقرب الناس إليك: ركعتان في جوف الليل، أو صدقة خفية، أو دمعة نزلت في خلوتك، أو دعاء لمن لا يعلم أنك تذكره، وقد يكون منها أن تترك ذنبًا وأنت قادر عليه، ولا يمنعك منه إلا خوف الله ومراقبته.

هذه هي عبادات السر؛ أعمال لا تحتاج إلى جمهور حتى تستمر، وتختبر سؤالاً عميقاً: هل تفعل هذا ابتغاء وجه الله، أم لأن الناس سيرونك؟

حين يغيب الناس، تظهر مساحة من الصدق، ماذا تفعل حين تستطيع أن تخطئ ولا يعلم بك أحد؟ وماذا يبقى من طاعتك حين يغيب المديح؟ يقول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^١؛ فالله سبحانه يعلم السر والعلن، ويعلم ما تخفيه الصدور، ولا يخفى عليه شيء من أعمال عباده ونياتهم.

ومن أجمل ما يفعله المسلم أن يجعل له بابًا خفيًا مع الله: عملاً صالحًا لا يحتاج فيه إلى إعجاب ولا تعليق ولا شهادة بشرية، وليس معنى ذلك أن إظهار العمل الصالح مذموم دائماً؛ فقد يكون إظهاره مشروعاً، وقد يكون فيه تعليم أو تشجيع، لكن القلب يحتاج إلى مساحة لا يعيش فيها تحت نظر الناس.

وعبادات السر أوسع من قيام الليل والصدقة، قد تكون أن تكف لسانك عن غيبة شخص لا يعلم أنك تحدثت عنه، أو تغض بصرك حين لا يراك أحد، أو تترك ما لا يحل لك مع قدرتك عليه، أو تسامح، أو تدعو لمن أساء إليك، أو تقاوم شهوة في خلوة، أو تستغفر بعد ذنب لا يعلم به أحد، كل ذلك من أبواب الطاعة إذا كان لله.

ومن أجمل صور العبادة الخفية أن تستطيع ولا تفعل، تستطيع أن تنظر؛ فتغض بصرك؛ وتستطيع أن تكذب؛ فتصدق؛ وتستطيع أن تنتقم؛ فتعفو؛ وتستطيع أن تأخذ ما لا يحل لك؛ فتتركه خوفاً من الله، هنا لا يصنعك الجمهور، بل يصنعك الإيمان بأن الله مطلع عليك.

وقد ذكر النبي ﷺ من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^١،

ولا تجعل عبادات السر وسيلة لاحتقار العمل الظاهر؛ فالمشكلة ليست في ظهور العمل، وإنما في أن يصبح نظر الناس هو الذي يحرك القلب؛ فلا تسأل فقط: هل عملي ظاهر أم خفي؟ بل اسأل: لمن أفعله؟ فقد يكون العمل ظاهراً والنية صالحة، وقد يكون خفياً ويخالطه حب أن يكتشفه الناس.

وفي زمن يتحول فيه كل شيء إلى محتوى، لا تجعل كل دعاء صورة، ولا كل صدقة إعلاناً، ولا كل لحظة إيمانية منشوراً. اجعل في حياتك شيئاً لو اختفت وسائل التواصل كلها لبقيت تفعله.

وقد لا يرى الناس كثيراً من خيرك: صبرك، وأمانتك، وكفك عن الحرام، وحفظك لسر، ومساعدتك لمحتاج، ودعائك لشخص؛ فلا تحزن إن لم يروه؛ فالله يعلمه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^٢.

فاسأل نفسك: هل أترك بعض المعاصي لأن الله يراني، أم خوفاً من انكشافها؟ وهل يرضيني أن يعلم الله بعملتي وإن لم يعلم به أحد؟

واجعل لك سرّاً مع الله: صدقة خفية، أو ركعتين، أو دعاء، أو ذكراً، أو ترك ذنب تجاهد نفسك فيه، وقل: الحمد لله الذي سترني وأعانني.

ففي زمن يكثر فيه سؤال: «ماذا رأى الناس مني؟» اسأل أنت: ماذا بقى بيني وبين الله؟

لا تحمل معك عند لقاء الله عدد الإعجابات ولا ثناء الناس، وإنما تحمل ما قدمت لله؛ فاجعل في حياتك عملاً لا يحتاج إلى جمهور، ولا تصفيق، ولا إعلان.

فاجعل لك مع الله سرّاً، واجتهد أن يكون خالصاً له؛ فالإخلاص أن يكون الله هو المقصود؛ في الخفاء والعلن.

١ أخرجه البخاري (٦٤٧٩)، ومسلم (١٠٣١) مطولاً

٢ سورة البقرة - الآية ٢١٥

حين لا يكون بينك وبين الله أحد

في تلك اللحظات التي تنكشف فيها ستائر التصنع، حيث يسقط الجمهور، وتتلاشى الصور المصطنعة، وتصمت الأصوات، يقف الإنسان سُدىً أمام سؤال الوجود الأعمق: "من أنت حين لا يراك أحد؟" هنا تتبدى حقيقة الاختيار؛ فلا رقيب بشري يحدق، ولا مديح يُرجى، ولا قدح يُخشى، وتنكشف المفارقة بين حرصك على الطاعات في العلن، وفتورك عنها في الخلوة.

وهذا السؤال ليس استفهاماً عابراً، بل هو مفتاح الدخول إلى حضرة المراقبة الإلهية، تلك الحضرة التي تنسف كل أعذار الغفلة؛ إذ يقول الحق سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^١ إن غياب الناس ليس عذراً في غياب علم الله، بل هو العرصة التي يظهر فيها معدن الإيمان الخالص، حين تستطيع أن تظلم فتُتصف، وأن تخون فتؤدي، وأن تنحرف فتعود.



إن العزلة ليست سجنًا للهروب من الذات، بل هي محرابٌ لمواجهة؛ فيها ينكشف ما كان يختفي خلف ضجيج المجالس؛ فلا تفرّ من أسئلتك الوجودية، بل اقتحمها، وسل نفسك في هدوء: ما الذي يملأ فراغ قلبي؟ وأين تقع قدمي من طريق العودة؟ وتذكر أن الله لا يعرفك كما يعرفك الناس؛ فهو يعلم ضعفك قبل أن يمدحوك بقوتك، ويعلم تقصيرك قبل أن يظنوك كاملاً، وهذا العلم الإلهي هو أعظم محرّر للنفس من عبودية الصورة الاجتماعية الزائفة.

١ الحديد: ٤

٢ أنظر "مقارنة العلم الإلهي بالعلم البشري"؛ انظر: ابن القيم، الفوائد، باب مراقبة الله، وكتاب الوابل الصيب في الأعمال القلبية.

من روائع التربية الربانية في الخلوة، أن تجعل لك أعمالاً سرّية لا تطلع عليها عين بشر: دعوة في جوف الليل، ركعتان في ظلمة، صدقة خفية، أو مجاهدة على ترك ذنب لا يراه أحد؛ فهذه الأعمال هي التي تُصلح الباطن، وتجعل القلب متعلقاً بالله وحده، لا بنظرات الناس.

يقول أحد السلف: "من أسر حسنة، أسر الله له سيئة"، أي سترها عليه؛ فالمسألة ليست مضالمة بين السر والعلن، بل هي تربية للقلب على الإخلاص في كل حال. ولا تهن إن وجدت فجوة بين صورتك أمام الناس وحقيقتك مع الله؛ فالصدق ليس كمالاً مطلقاً، بل هو رحلة من الاعتراف بالضعف إلى طلب القوة، قد تقع، وقد تضعف؛ فلا تقل: "أنا منافق"، بل قل: "أنا عبدٌ أخطئ وأتوب"^١.

إن الفارق الجوهرى ليس في عدم الخطأ، بل في الموقف من الخطأ: هل هو تبرير أم توبة وعودة؟ وحين تشعر بوحشة لا يشاركك فيها أحد، وتظن أن لا أحد يفقه ما يختلج في صدرك؛ فتذكر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسٌ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^٢ فهو أعلم بما تعجز عنه العبارة، وأقرب من كل قريب؛ فلا تجعله آخر من تلجأ إليه بعد أن تستنفد الأسباب، بل اجعله أول الملجأ، مع الأخذ بالأسباب التي شرعها.

واقعاً؛ إن الخلوات ليست مهرباً من الواقع، بل هي محطات وقودٍ روحي للعودة إلى الحياة بقوة وإخلاص. اجعل منها لحظات محاسبة لطيفة: أين أحسنت؟ أين أسأت؟ من يحتاج إلى اعتذاري؟ أي ذنب يجب أن أهجره؟ ثم اختتمها بعملٍ صالح، ولو كان ركعتين أو استغفاراً، تقول فيهما بصدق: "يا رب، أنت تعلم حالى؛ فأصلح قلبي، وأعني على طاعتك".

وفي النهاية، سيأتي يومٌ لا تنفع فيه الصور التي صنعتها، ولا عدد الذين أثنوا عليك، بل ينفعك ما قدّمت لله سرّاً وعلانية^٣؛ فلا تخش غياب الناس؛ اجعله فرصة، واجعل الله هو شهيدك. أحب الناس وأحسن إليهم، لكن لا تعلق قلبك برضاهم تعلقاً يصدك عن

١ مستفاد من مفهوم التوبة في السنة النبوية، كقول النبي ﷺ: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» (رواه الترمذي وابن ماجه)، والمعنى مركّب في صياغة النص.

٢ سورة ق: الآية ١٦

٣ يُراجع في شأن الإخلاص ووزن الأعمال يوم القيامة: سورة الزلزلة (٧-٨) في تذكير الجزاء، وكتب الرقائق كمدارج السالكين لابن القيم.

مرضاة الله، وعندها، حين تهدأ الدنيا من حولك، لن تكون وحدك أبداً، بل ستكون مع من لا تنقطع معيته.

من العادة إلى العبادة

في روتين الحياة اليومي، تغيب عنا حقيقة أن العبادة ليست محصورةً في محارِب المساجد، بل هي نظرةٌ تتسع لتشمل كل نبضةٍ من نبضات الوجود، تمر الأيام متشابهة: استيقاظ، عمل، طعام، راحة، نوم؛ فيظن الإنسان أن الدين جزءٌ من الحياة، والحقيقة أن الدين هو الحياة ذاتها إذا صلحت النية واستقامت الوجهة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^١ التوحيد الحقيقي ليس أن تعبد الله في المسجد فقط، بل أن يكون الله حاضراً في كل تفاصيل حياتك؛ في صلاتك وعبادتك، وفي عملك وقراراتك وغاياتك؛ أن تعيش لله يعني أن تجعل حياتك كلها تسير في الاتجاه الذي يرضيه؛ فلا يكون في قلبك مقصد أعظم من رضاه^٢.

ف﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾** تعني أن تكون حياتك كلها لله، من بدايتها إلى نهايتها، ظاهرها وباطنها.

والنية وحدها تستطيع أن تحوّل العمل المباح إلى قربة، واليوم العادي إلى رحلةٍ إيمانية؛ فالموظف الذي يعمل ثماني ساعات طلباً للحلال وأداءً للأمانة وإعفافاً للنفس، يختلف كل الاختلاف عن غيره الذي يعملها آليةً بلا روح؛ فالعمل الواحد، والنية ترفعه إلى درجات الأجر، كما أن النوم والطعام قد يتحولان إلى طاعةٍ إذا قصد بهما الاستعانة على الصلاة، وحفظ الجوارح، وشكر النعمة، والبعد عن الإسراف؛ عندها يصبح المباح معيناً على الخير، دون حاجةٍ إلى توتر ديني مكبل، بل إلى بصيرةٍ صحيحة وقلبٍ حاضر.

والأعظم أن الأسرة وميادين العمل هي ساحات العبودية الحقيقية؛ فابتسامتك لأهلك، وبرك بوالديك، وأداؤك للأمانة، وإحسانك لمن لا يملك مكافأتك، وكفك للسانك عن الغيبة؛ كلها أعمال يومية قد تكون أعظم أجراً من نوافل لا تنفع مع تقصير في الحقوق؛

١ سورة الأنعام: الآية ١٦٢

٢ بتصرف أنظر تفسير سيد قطب رحمه الله لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

فلا يليق أن يخرج المسلم من محرابه مبتلاً، ثم يخرج على أهله بخلق سيئ؛ فالالتزام الحقيقي يُرى في التعامل لا في المظاهر، ولا أن يخالف سلوكه التزامه الخارجي فلا يكون مرتشياً ولا خائناً ولا شاهد زور ثم نجده يصوم الاثنين والخميس مثلاً.^١

التحذير الأهم: العبادة إذا صارت عادةً جافة، يموت جوهرها فقد يصلي الإنسان وتسبح أفكاره في الأسواق، ويقرأ القرآن ولا يتدبر، ويذكر الله وقلبه في غفلة، والعلاج ليس في هجر العبادة، بل في إحياء القلب بالتأني والتدبر واستحضار عظمة المقام، ولو بلحظات معدودة؛ فالمطلوب حضورٌ للقلب بقدر الطاقة، لا لذة مستمرة قد لا تُدرك دائماً

ولتكن مع كل عادةٍ ثلاثة أسئلةٍ محرّكة: هل هذا العمل مباحٌ أو مشروع؟ وما النية التي أستمعها؟ وهل يؤدي بطريقةٍ ترضي الله؟ فإن الغاية لا تبرر الوسيلة، والنية لا تحل الحرام، لكنها تحوّل المباح إلى ميزانٍ حسن.^٢

١ أنظر في مفهوم "أخلاق المعاملة كميزان للقرب": الإمام الغزالي؛ إحياء علوم الدين، كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبي ﷺ، وخصوصاً باب "حقوق الصحبة والمعايشة".

٢ أنظر "حضور القلب في العبادة" وعلاجه: ابن القيم، الوابل الصيب في الكلم الطيب، باب "آفات اللسان والقلب في الذكر"، وكتاب مدارج السالكين في منزلة "المراقبة".



فلا تنتظر حياةً استثنائيةً لتكون عبداً لله؛ حياتك الحالية، بعملها وأسررتها وتعبها وراحتها، هي ميدانك، ليس المطلوب أن تغيّر شكل يومك، بل أن تغيّر وجهته؛ فتنام وتستيقظ وتعمل وتأكل على نية العبادة، وتُحسن إلى الناس وتؤدي الأمانات، وتستريح لتستعين على الطاعة، ثم تلقى الله وأنت ترجو ألا يكون يومٌ مرّاً إلا وفيه أثرٌ من طاعة.

فالحياة العادية ليست فاصلةً عن العبودية، بل هي العبودية بعينها، حينما تشرق عليها شمس النية الصالحة.^١

١ أنظر موضوع "حضور القلب في العبادة" وعلاجه: ابن القيم، الوابل الصيب في الكلم الطيب، باب "آفات اللسان والقلب في الذكر"، وكتاب مدارج السالكين في منزلة "المراقبة".

حين تعمل ولا تشعر بالأثر

من أعمق امتحانات الاستقامة أن تعمل كثيراً، ثم لا ترى أثراً: تُصلي فلا تلمس خشوعاً، وتقرأ القرآن فتحس بجفافٍ في الروح، وتدعو فتتأخر الإجابة، وتُحسن إلى الناس فلا تُكافأ، وتتوب ثم تعود إلى الذنب في دوامةٍ مرهقة؛ فيتسلل إلى القلب سؤالٌ ثقيلٌ كالصخر: هل لعملي هذا وقعٌ في الوجود؟

هنا يحتاج العبد إلى أن يتجاوز منطق "النفعية" في العبادة؛ إلى منطق "العبودية المحضة"؛ فأنت مأمور بالسعي، وأما النتائج فليست في يدك^١، قد تزرع في تربةٍ قاسية، ولا ترى نباتها سنين؛ لأن بعض التغيير ينمو في الصميم قبل أن يطلّ على السطح، قد لا تبكي في صلاتك، لكنك أسرع إليها؛ وقد لا تهتز لمشاعر العشق، لكنك أشد حياءً من الذنب، وأرحم بالخلق، وأسرع إلى التوبة؛ فالنضج الإيماني قد يُقاس بالسلوك أحياناً أكثر مما يُقاس بالإحساس.

فلا تجعل تحقق ما تريد هو الميزان الوحيد لصحة طريقك؛ أنت تعبد الله لأنه أهلٌ للعبادة، وتُحسن لأن الإحسان خيرٌ في ذاته، وتترك الظلم لأنه حرام، وتصبر ابتغاء وجهه، وحتى لو تأخرت النتيجة، أو جاءت على غير ما تشتهي؛ فلا تيأس؛ فالله أعلم بما يصلحك {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}^٢ وهو {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}^٣، وقد يكون الخير في العطاء، وقد يكون في المنع، وقد يكون في الادخار ليومٍ أعظم.

وهذا أظهر ما يكون في الدعاء: أنت تسأل وتفوض، ولا تجعل تأخر الإجابة سبباً لسوء الظن بالرب؛ فأنت لا ترى الغيب، وهو يرى ما لا ترى، وتديره أَلُطْفُ من تدبيرك، وإن خفي عليك وجه الحكمة.

١ المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦، ومن قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ المؤمنون: ١١٥.

٢ سورة البقرة، الآية ٢١٦

٣ سورة طه، الآية ١١٠

وكذلك في إحسانك إلى الناس: لا تشترط شكرهم؛ قال تعالى: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} ^١؛ فلا تجعل جحودهم يمحو أجرَكَ عند الله؛ وإذا كان الله يعلم عملك؛ فلا تبالِ بجهل الناس به.

ومع هذا؛ فالصبر ليس جموداً، بل هو مراجعةٌ وتطويرٌ مع استمرار؛ فإذا لم ترَ الثمرة؛ فراجع طريقتك، وتعلم إن أخطأت، وغير أسلوبك إن احتجت، وخذ بالأسباب، ثم استعن بالله واستمر؛ فالتوكل لا يلغي المراجعة، والصبر لا يعني الاستسلام.

وانظر إلى التغيرات الصغيرة التي قد تغفل عنها: غضبٌ تراجع، واعتذارٌ صار سهلاً، وتوبةٌ أصبحت أسرع، وتعلقٌ بمدح الناس تراجع، هذه ثمارٌ حقيقية، وإن بقيت فيك عيوبٌ تحتاج إلى مجاهدة.

ولا تقارن باطنك بظاهر غيرك؛ فأنت تعرف هفواتك كلها، ولا ترى من أحدٍ إلا ما أظهر، واسأل نفسك بدلاً من ذلك: هل أصبحت اليوم خيراً مما كنت بالأمس في خصلةٍ واحدةٍ؟ فإن وجدت؛ فاحمد الله، ولا تنسب الفضل إلى نفسك.

والله القائل سبحانه {وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} ^٢ وفي الختام، لا تحزن لأنك لا ترى كل ما تزرع، بعض الأعمال تحتاج إلى زمنٍ ممتدٍّ، وبعض آثارها قد لا تُرى إلا في الآخرة لأن الله لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. اعمل وراجع، واصبر، واستعن بالله.

لا تجعل غياب النتيجة السريعة يهز يقينك بالطريق؛ فقد يكون الأثر الأعمق هو ما يتشكل في داخلك وأنت لا تشعر: قلباً أهدأ، ونفساً أصدق، وتوبةً أسرع، وتعلقاً أقل بالخلق، وثقةً أعظم بالخالق.

ليس المطلوب أن ترى الغيب حتى تستمر في الخير؛ إنما المطلوب أن تصدق في الطريق وربما يأتي يوم تنظر فيه إلى الوراء؛ فتكتشف أن الأثر الذي كنت تبحث عنه في الخارج كان يتشكل في داخلك طوال الوقت؛ وأن أعظم ثمرة وصلت إليها أنك، رغم ما لم تره، لم تتوقف عن السير إلى الله.

١ سورة الإنسان، الآية ٩

٢ سورة النحل، الآية ٥٣

كيف تحافظ على قلبك بعد رمضان؟

ثمة أيام تأتي على القلوب فتوقظها من غفلتها. يفتح فيها القرآن كالنافذة على الضوء، وتعمق الصلاة حضورها، ويصير الدعاء نبضاً صادقاً، وتكتشف النفس أنها تملك من قوة الصيام والانضباط ما لم تكن تظن ثم ينقضي رمضان، وتعود الدنيا بإيقاعها المعتاد: مشاغل تراحم، ونوم يتغير، ومجالس تعين على الطاعة تقل، ويبدأ ذلك النشاط الإيماني الذي ملأ الأيام في الخفوت.

هنا يبرز السؤال الوجودي التربوي: كيف نحافظ على قلوبنا بعد أن ودّعنا رمضان؟ إن رمضان لم يكن موسماً تنتهي به علاقتنا بالله، بل كان مدرسة وتمريناً؛ اكتشفنا فيها أن النفس تستطيع أن تجاهد وتترك ما تحب، وتواظب على الطاعة.

المطلوب ليس استنساخ رمضان في سائر الأيام؛ فهذا قد لا يكون ممكناً، بل المطلوب حمل روح المداومة التي تعلمناها، لا شكل الاندفاع الذي عشناه.

فلا تضع بعد رمضان برنامجاً مرهقاً لا يثبت: قيام طويل كل ليلة، وقراءة كثيرة، وصيام متكرر، ثم تنقطع عن معظمه.

اختر شيئاً ثابتاً: ورداً من القرآن، أو

ركعات من الليل، أو صدقة، أو ذكراً، أو صيام نافلة خطوة صغيرة مستمرة خير من اندفاع كبيرة قصيرة^١ ولا تجعل القرآن أول ما يسقط من يومك.

لا تقل: سأقرأ حين يتوفر الوقت؛ فالوقت لا يتوفر، بل اجعل للمصحف موعداً ثابتاً، ولو كان قليلاً، بوعي وحضور.

١ - مستفاد من الأثر التربوي النبوي، حيث قال ﷺ: «لا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون» (رواه البخاري)، والمعنى في سياق الحث على الثبات والقليل الدائم، وليس مجرد التشديد في العبادة.

إن الصلاة هي الجسر الذي لا ينبغي أن ينقطع؛ قد تتغير مشاعرك بعد رمضان، ولا تجد التأثير نفسه، وهذا لا يعني أن الطريق انتهى؛ المشاعر تتقلب، أما العبادة فتبقى . اجعل الصلاة نقطة توقفٍ تعيد بها ترتيب يومك؛ فتعبك يزول بالوقوف، وانشغالك ينكسر بالركوع، وقلقلك يخفت بالسجود^١.

وخذ من رمضان عادةً واحدةً لا تتركها: اسأل نفسك ما الشيء الذي استطعت فعله فيه وأريد أن يستمر معي؟ ثم ثبته، وبعد استقراره زد عليه، ولا تجعل العيد عودةً إلى الغفلة؛ فالصيام انتهى، لكن مجاهدة النفس لم تنته، ولا تنتظر رمضان القادم حتى تصلح ما فسد؛ إذا أخطأت فتب اليوم، وإذا قصرت فأصلح اليوم، وإذا انقطعت فارجع اليوم. اجعل لك عبادةً خفيةً لا يعلمها أحد؛ صدقة، أو دعاءً، أو استغفاراً، أو ترك ذنب في الخفاء، لتبقى صلتك بالله قائمة بعيداً عن أنظار الناس، وتذكر أن الهدف ليس أن تبقى في أعلى حال إيماني عشته في آخر رمضان؛ فقد تفتت ثم تنشط، وتتعب ثم تستعيد قوتك .

المهم ألا تخرج من الطريق، وإذا سقطت في عادة سيئة؛ فلا تقل: انتهى كل شيء، بل ابدأ من جديد.

اجلس مع نفسك أحياناً واسأل: ماذا بقي مني بعد رمضان؟ هل بقيت الصلاة، والقرآن، والاستغفار، والصدقة، ومراقبة الله؟ اختر شيئاً أو شيئين واجعلهما جزءاً ثابتاً من حياتك، رمضان ليس نهاية الرحلة، بل محطة تعلمت فيها أن نفسك يمكن أن تُروّض، وأن وقتك يمكن أن يُنظم، وأنتك تستطيع أن تقترب من الله.

فلا تقل: انتهى رمضان وعدت كما كنت، بل قل: ماذا بقي فيّ من رمضان؟ ربما لا تستطيع أن تقوم كل ليلة كما كنت، لكن تستطيع أن تقوم أحياناً؛ وربما لا تقرأ كما كنت، لكن تستطيع أن تقرأ كل يوم ولو قليلاً؛ وربما لا تعيش المشاعر نفسها، لكن تستطيع أن تحافظ على الطريق؛ فالله الذي عبدته في رمضان هو ربك في كل الأيام، والطاعة لا تنتهي بانتهاء الموسم^٢.

١ أنظر مفهوم "الصلاة كجسر ومحطة لترتيب اليوم": ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، (باب منزلة الصلاة وحقيقتها).

٢ أنظر موضوع دوام الطاعة خارج الأزمنة الفاضلة: الإمام الغزالي؛ إحياء علوم الدين، كتاب "آداب الأكل" و"آداب الصحة"، وخصوصاً في مقام "استدامة العبد لربه في كل حال"، وابن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم الخير من وظائف، باب "ما بعد رمضان".

وإذا استطعت أن تعبد الله في الأيام العادية، حين لا يساعدك حماس الموسم ولا جوّ العبادة؛ فقد أخذت من رمضان أعظم ثماره: أن تتعلم الثبات، لا أن تعيش موسمًا ثم تنقطع؛ فإذا ضعفت فارجع، وإذا نسيت فتذكر، وإذا انقطعت فاستأنف، ولا تنتظر موسمًا جديدًا حتى تبدأ.

لم ينته الطريق بانتهاء رمضان؛ الصلاة ما زالت هناك، والقرآن ما زال هناك، والتوبة ما زالت مفتوحة، والخير ما زال كثيرًا؛ فاجعل رمضان أثرًا فيك، لا ذكرى جميلة فقط، واحمل منه إلى أيامك العادية عملاً صالحاً يدوم، ولو كان قليلاً.

عبادة الانتظار

هناك أيام لا يحدث فيها شيء واضح: تنتظر خبراً، أو نتيجة، أو شفاءً، أو عملاً، أو زواجاً، أو فرجاً، أو تغييراً في شخص تحبه، أو باباً تتمنى أن يُفتح، وأحياناً تنتظر فقط أن تنتهي مرحلة طال بقاؤك فيها.

- ✓ اسعِ وادعُ حين تضيق بك الحيلة، واصبر، وعش حياتك فيما بين ذلك.
- ✓ فى الوقت الذى لا تملك نتيجته ستتعلم كيف تكون عبداً لله
- ✓ ليس مطلوباً منك أن تعرف متى يأتى الفرج؛ المطلوب أن تظل عبداً لله حتى يأتى.
- ✓ وهنا يصبح الانتظار، بما فيه من سعى ودعاء وصبر وتفويض، عبادة صامتة لا يراها كثير من الناس، لكن الله يعلمها.



الغريب أن الإنسان قد يتعامل مع الانتظار كأنه وقت خارج الحياة؛ فيقول: حين يحدث ما أريد سأبدأ، وحين تتحسن ظروفى سأرتاح، وهكذا يضع جزءاً من عمره في منطقة معلقة. لكن الانتظار ليس فراغاً، قد يتحول الانتظار إلى عبادة، لا لأن الانتظار في ذاته فضيلة، بل لأن موقفك فيه قد يكون عبادة.

حين تفعل ما تستطيع ثم لا يبقى لك إلا أن تنتظر، تكتشف حدود قدرتك، وتعرف أنك لا تملك كل النتائج، هنا يظهر التوكل: يا رب؛ فعلت ما أستطيع، وما لا أستطيع فأنت أعلم به وأقدر عليه، وليس هذا استسلامًا سلبيًا؛ بل سعي بالأسباب، ثم تفويض لما خرج عن قدرتك.

فإن كنت تبحث عن عمل؛ فاسع وتعلم وقدم، وإن كنت تصلح علاقة؛ فتحدث بحكمة، وإن كنت تعالج مشكلة؛ فخذ أسباب العلاج؛ ألسعي مسؤوليتك، والنتيجة ليست كلها في يدك، والفرق كبير بين أن تنتظر لأنك استنفدت ما تستطيع الآن، وبين أن تجعل الانتظار عذرًا لترك ما تستطيع فعله.

وأصعب الانتظار أن تنتظر؛ وتدعو، وتسعى ولا تعرف متى تظهر الثمرة، وتصبر ولا تعرف متى ينتهي الأمر، وهنا تتعلم صبرًا لا يعتمد على معرفة الموعد، بل على الثقة بالله مع بذل السبب يمكنك أن تحزن وتتعب وتقول: «يا رب، طال عليّ الأمر وأنت أرحم الراحمين»، من غير أن يتحول الحزن إلى سوء ظن بالله.

ولا تجعل حياتك بالله تبدأ بعد الوصول، لا تؤجلها حتى تتزوج، أو تجد العمل، أو تسدد الدين، أو تتحسن ظروفك؛ أنت تعيش الآن، وتعبد الله الآن، وتتعلم وتبني نفسك الآن؛ فالشيء الذي تنتظره قد يكون مهمًا، لكنه ليس الحياة كلها.

وقد يكشف الانتظار تعلقك بالنتيجة؛ تتمنى شيئًا معينًا، ثم يصبح كل تأخير عندك رفضًا، وكل إشارة وعدًا، وكل خبر مرتبطًا بما تريد، وهنا اسأل نفسك: هل أريد هذا الأمر، أم أصبحت لا أستطيع أن أكون بخير بدونه؟ من حَقُّك أن تتمنى وتسعى، لكن لا تجعل قلبك أسيرًا لشيء لم يُكتب لك بعد.

وفي الانتظار، اجعل الدعاء ملجأك، وقل: يا رب، أنت تعلم ما أريد، وتعلم ما لا أعلم؛ فإن كان في هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي؛ فيسره لي، وإن لم يكن خيرًا فاصرفني عنه واصرفه عني، واختر لي برحمتك؛ أنت تطلب ما تحب، لكنك تترك لله ما لا تعلم.

ولا تقارن توقيتك بتوقيت الآخرين: زواج غيرك ليس دليلًا على نقص رزقك، ووصول غيرك لا يعني أنك متأخر عند الله؛ أنت ترى جزءًا من حياتهم، ولا تعرف ما يناسبك ولا ما وراء الأحداث، رزق غيرك ليس مقياسًا لما قدر الله لك.

وانتبه كذلك إلى النعم الحاضرة؛ فقد يجعل الانتظار عينيك معلقتين بما غاب حتى تنسى ما بين يديك: أهلاً، وصحة، وأماناً، ووقتاً، وقدرة على العمل والتعلم، وإيماناً، ولساناً يستطيع أن يدعو الله، ليس كل ما تنتظره يلغي قيمة ما أعطاك الله الآن.

وقد يكون التأخير فرصة لتعلم أو تنضج أو تعيد ترتيب بعض شؤونك، لكن لا تجزم بأن كل تأخير سببه نقص فيك أو أن لكل باب مغلق حكمة محددة تعرفها؛ الله أعلم بحكمته، وأنت مطالب بالأخذ بالأسباب والاستفادة من الوقت.

فماذا تفعل وأنت تنتظر؟ اسع، وادع، واصبر، وعش؛ أعمل، وتعلم، وصل رحمك، واعتن بصحتك، واستمتع بالمباح، وأحسن إلى من حولك، ولا تجعل الانتظار يبتلع حياتك.

وأحياناً يكون أعظم ما تفعله أنك لا تفعل الخطأ وأنت في أشد حالات الانتظار: لا تظلم، ولا تحسد، ولا تأخذ حراماً بسبب حاجتك، ولا تجعل تأخر رزقك يفسد أخلاقك؛ أصبر على ما تنتظر، ولا تجعل الانتظار يفسد ما لديك.

اسأل نفسك: ما الذي أنتظره؟ وهل فعلت ما أستطيع؟ وما النعم التي غفلت عنها؟ وهل أستطيع أن أقول بصدق: يا رب، أنا أريده، لكنني أثق أنك أعلم مني بما يصلح لي؟

قد يأتي ما انتظرت، وقد يأتي على صورة لم تتوقعها، وقد يتغير ما تريده مع الأيام، لكن لا تجعل انتظارك لشيء من الدنيا يقطعك عن الله.

أن تعبد الله في كل أحوالك

من أعمق امتحانات الإيمان ألا تعبد الله في المواسم المريحة وحدها؛ بل في كل حالٍ تمر بك. الحياة لا تبقى على حال: يأتي الفرح والحزن، والسعة والضيق، والنجاح والفشل، والصحة والمرض، والوضوح والحيرة، وهنا يظهر السؤال الأعمق: هل تعبدته في كل أحوالك؟

في النعمة، تكون العبادة شكراً؛ {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} ١ قل "الحمد لله"، واستعمل النعمة في طاعته؛ فالشكر اعترافٌ واستخدام، لا كلمةٌ تقال. وفي الضيق، تكون العبادة صبراً واستعانة؛ {إِنَّمَا يُوفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ٢، تحزن وتبكي وتتمنى الفرج، لكن لا يحملك الألم على ترك الطاعة أو الوقوع في الحرام.

وفي الخوف، تكون العبادة توكلًا مع الأخذ بالأسباب؛ {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} ٣، خطط، واحذر، وابذل ما تستطيع، ثم فوض ما لا تملك إلى الله. وفي الحيرة، تكون العبادة استشارةً واستخارةً؛ أجمع المعلومات، واستشر أهل الثقة، واستخر الله، ثم امض في طريقك؛ فالاستخارة ليست انتظاراً لإشارة غامضة، بل سؤال الله التوفيق مع الأخذ بالأسباب. وفي النجاح، يكون الاختبار في التواضع؛ لا تنسب الفضل كله لنفسك، بل قل: {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ} ٤ وتذكر أن النعمة مسؤولية، لا دليل على الأفضلية.

وفي الفشل، تكون العبادة رجوعاً وتعلماً؛ راجع خطأك، وأصلح ما تستطيع، ثم قم من جديد؛ فشل في أمر لا يساوي فشل الإنسان كله، ولا يحول بينك وبين رحمة الله.

١ سورة إبراهيم، الآية ٧

٢ سورة الزمر، الآية ١٠

٣ سورة الطلاق، الآية ٣

٤ سورة هود، الآية ٨٨

وفي المرض والضعف، تكون العبادة صبراً واحتساباً مع طلب العلاج؛ {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} ^١ ليس مطلوباً من المريض أن يتظاهر بالقوة. يكفي أن يصدق في افتقاره إلى ربه.

وفي الوحدة، لا تجعل حاجتك إلى الناس سبباً لنسيان الله؛ ابحث عن صحبة صالحة، وارفع حاجتك إليه؛ فهو {يَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُكَ} ^٢.

وفي الفقد، لا تطلب من نفسك تجاوز الحزن سريعاً؛ أحزن واستعن بالله، وتعلم أن تعيش بعد المصاب دون أن يجعل الألم حياتك كلها؛ التسليم لا يعني انعدام الحزن، بل ألا يمنعك الحزن من طاعة الله.

وفي الخطأ، تكون العبادة توبة؛ لا تستهن بالذنوب، ولا تيأس من نفسك؛ {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} ^٣، استغفر، وأصلح، ثم عد إلى الطريق؛ فالعبد ليس من لا يخطئ، بل من إذا أخطأ تاب ورجع.

وفي القوة، تكون العبادة في ضبط النفس والعدل؛ {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} ^٤، أن تعدل مع من تكره من أصعب صور التقوى.

وفي الغنى، تكون العبادة في الشكر والعطاء؛ وفي الفقر؛ في السعي إلى الحلال والتعفف والصبر؛ وفي الحب، أن تحسن دون أن يحملك التعلق على معصية الله؛ وفي الكراهية، أن تحفظ العدل ولا تجعل بغضك ظلماً.

ولا تبحث عن حالة إيمانية مثالية دائمة؛ ستتعب، وتحزن، وتغضب، وتضعف؛ لكن المطلوب ألا تفقدك هذه المشاعر إلى ما لا يرضي الله، تحزن دون اعتراض، وتفرح دون غرور، وتغضب دون ظلم، وتخاف دون انهيار، وتخطئ ثم تتوب.

فالحياة كلها ميدان عبودية؛ تتغير الظروف، وتتغير معها صورة العبادة، لكن الأصل ثابت: أنت عبد لله في كل حال.

لذلك لا تسأل فقط: لماذا حدث هذا لي؟ بل اسأل: كيف أعبد الله في هذا الذي حدث لي؟

١ سورة الشعراء، الآية ٨٠

٢ سورة ق، الآية ١٦

٣ سورة الزمر، الآية ٥٣

٤ سورة المائدة، الآية ٨

إذا فرحت؛ فاشكر؛ وإذا حزنت؛ فاصبر واستعن؛ وإذا أخطأت؛ فتب؛ وإذا قويتم؛ فاعدل؛ وإذا ضعفت؛ فاستعن؛ وإذا انتظرت؛ فلا توقف حياتك.

لا تحتاج إلى حياة مثالية حتى تعبد الله؛ اعبد الله في حياتك التي تعيشها الآن؛ فالظروف تتبدل، والأيام تتعاقب، لكن باب العبودية مفتوح في كل حال، وقد يكون من أعظم ما يتعلمه الإنسان أن يسير إلى الله في اليوم الذي يضحك فيه، وفي اليوم الذي لا يملك فيه إلا أن يقول: يا رب، أعني على أن أكون عبدك في كل حال.

حين يأتي البلاء



حين يأتي البلاء

يأتي في حياة الإنسان وقت تتغير فيه أشياء ظن أنها ثابتة؛ مرض، أو فقد، أو ضيق، أو خذلان، أو باب يُغلق، أو أمر يتأخر، أو دعاء لا يرى العبد أثر إجابته في الوقت الذي يرجوه.

وعندها لا يعود الإيمان فكرة جميلة يتأملها الإنسان، بل يصبح زادًا يحتاج إليه حتى يستطيع أن يكمل الطريق؛ فالمحن تكشف ما استقر في القلب، وتختبر قدرة الإنسان على الثبات مع بقاء الألم.

وفي هذا الباب سنقترب من الوجه الآخر للابتلاء؛ الألم الذي لا نفهم حكمته، والانتظار الذي يطول، والفقْد الذي يترك في القلب فراغًا لا تملؤه متاع الدنيا.

وسنتعلم كيف يحمل المؤمن قلبه حين لا يجد تفسيرًا لما يحدث؛ وكيف يجمع بين الألم وحسن الظن بالله دون أن ينكر مشاعره أو يتظاهر بقوة لا يملكها.

وسنتحدث عن الصبر، لا باعتباره مجرد احتمال للألم، بل باعتباره ثباتًا على طاعة الله، واجتنابًا لمعصيته، وحفظًا للقلب واللسان والجوارح حين تشتد مشقة البلاء.

وسنتأمل كيف يمكن للبلاء أن يكشف للإنسان تعلقاته، وأن يعيد ترتيب أولوياته، وأن يعلمه اللجوء إلى الله؛ من غير أن نجزم بأن كل مصيبة وقعت على شخص بعينه كانت بسبب ذنب محدد، أو أن لها حكمة معينة نعرفها على وجه القطع.

وسنقف عند قصص من مروا بالمحن، وكيف خرج بعضهم منها أكثر قربًا من الله؛ لأن الألم كان سهلًا، ولا لأنهم أحبوا البلاء لذاته، وإنما لأنهم عرفوا أين يضعون قلوبهم حين تضطرب الدنيا من حولهم.

وسنتعلم أن الفرج ليس دائمًا أن تعود الحياة كما كانت؛ فقد يكون الفرج في أن يمنح الله العبد صبرًا، أو يفتح له بابًا آخر، أو يبدل حاله، أو يكتب له من الأجر والرفعة ما لم يكن يتوقعه.

فمشقة البلاء قد تكسر شيئًا فيك، لكنها قد تكون كذلك بابًا إلى مراجعة النفس، وتجديد الصلة بالله، واكتشاف مقدار افتقارنا إليه؛ وحين تضيق الدنيا، يبقى باب الله مفتوحًا.

حين ينكسر ما كنت تعتمد عليه

هناك أشياء في حياتنا لا ننتبه إلى مقدار اعتمادنا عليها إلا حين تتغير أو تزول، نعلم على المال، والعمل، والصحة، والأهل، والأصدقاء، والخطط، وقدرتنا على التحكم، وهذه كلها أسباب مشروعة، لكن القلب قد يتجاوز بها حدها؛ فيتعامل معها وكأنها مصدر الأمان المطلق.

ثم تأتي مشقة البلاء: يفقد الإنسان عملاً، أو يضيق ماله، أو يخذله شخص، أو تتغير صحته، أو تنهار خطة كان يبنى عليها مستقبله، وهنا لا يكون الألم في فقد الشيء وحده، بل في اكتشاف مقدار ما كان القلب متعلقاً به.

الأسباب مهمة، لكن لا ينبغي أن تكون موضع التوكل المطلق، نأخذ بها، ونستعين بأهل الخبرة، ونسعى في العلاج والرزق والإصلاح، ثم نعلم أن النتائج بيد الله، وأن الأسباب لا تستقل بالتأثير من دون تقديره ومشيئته، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^١.

ولا يعني انكسار سبب من الأسباب أن الله ترك عبده، قد لا نفهم الحكمة، ولا نعرف ما ستؤول إليه الأمور، لكننا نعلم أن الله حكيم عليم، وأن ما يقع في ملكه لا يخرج عن علمه وتقديره، لذلك يمكن للإنسان أن يقول: لا أعلم لماذا حدث هذا، لكنني أعلم أن الله ربي، وسأفعل ما أستطيع، وأستعين به فيما أعجز عنه.

ومن الخطأ أن نظن أن المؤمن لا يحزن، قد ينكسر القلب، وتدمع العين، ويشتد الخوف، ويحتاج الإنسان إلى من يساعده؛ وليس ذلك نقصاً في الإيمان؛ إنما العبرة بالألم يقود الألم إلى اليأس أو الظلم أو التسخن المحرم، بل إلى الصبر والدعاء والأخذ بالأسباب، مع حفظ اللسان والجوارح عن الحرام.

وحين تفقد شيئاً، لا تجعل فقدك يعرف حياتك كلها؛ فقدت عملاً، لكنك لم تفقد قدرتك على السعي، وفقدت علاقة، لكنك لم تفقد قيمتك، ونقص مالك، لكن كرامتك ودينك لا ينبغي أن يكونا ثمناً للخروج من الضيق.

وقد تكشف مشقة البلاء أيضًا تعلقًا يحتاج إلى إصلاح: تعلقًا بشخص، أو بمال، أو بصورة معينة للمستقبل، وليس معنى ذلك أن كل بلاء سببه تعلق خاطئ؛ فلا نجزم بحكمة معينة فيما لم نعلمه.

يمكننا أن نسأل: ماذا علّمتني هذه التجربة؟ وما الذي أستطيع إصلاحه الآن؟ ولا ينبغي أن يتحول الألم إلى قسوة، خذ العبرة، وضع الحدود عند الحاجة، واحفظ حقك، لكن لا تجعل ما فعله بك أحد سببًا في أن تفعله بالآخرين.

وقد لا يكون الفرغ عودة الشيء الذي فقدته، ربما يكون بداية جديدة، أو بابًا آخر، أو قوة وصبرًا، أو تغييرًا في نظرتك إلى الحياة، لذلك لا تحصر رحمة الله في صورة واحدة، ولا تجعل الخير محصورًا في النتيجة التي رسمتها لنفسك.

وفي النهاية، ليس المطلوب ألا ينكسر شيء في حياتك؛ فهذا ليس في يدك؛ المطلوب أن تعرف، حين ينكسر شيء: إلى من ترفع قلبك، وكيف تتصرف فيما تستطيع.

خذ بالأسباب، ولا تتكل عليها؛ اسع، ولا تجعل النتيجة شرطًا لطمأنينتك؛ أحب الناس، ولا تجعل أحدًا فوق منزلته؛ خطط للمستقبل، واترك فيه مساحة لمشية الله. وإذا عجزت؛ فاستعن بالله واطلب المساعدة ممن يستطيع نفعك.

فقد يذهب المال، ويتغير العمل، ويغيب شخص، وتتعثر الخطط؛ لكن لا تجعل خسارة الأشياء تؤدي إلى خسارة علاقتك بالله.

قد ينكسر ما كنت تعتمد عليه، لكن لا تجعل قلبك ينكسر عن الله.

وربما بعد زمن، حين تنظر إلى هذه المرحلة، لن تقول: كان الأمر سهلًا، بل ستقول: كان مؤلمًا، لكنه علّمني أين أضع قلبي.

هنا تبدأ عبادة مشقة البلاء: أن تخسر شيئًا من الدنيا، دون أن تخسر دينك، وأخلاقك، ورجاءك بالله.

ماذا تفعل حين لا تفهم البلاء؟

من أصعب ما يمر به الإنسان أن يحدث له شيء لا يجد له تفسيرًا: يفقد من يحب، أو يمرض، أو يخسر عملاً، أو يفشل بعد سنوات من السعي، أو تُغلق في وجهه أبواب كثيرة، أو يدعو طويلاً فلا يرى الإجابة بالصورة التي كان يرجوها.

ثم يسأل: لماذا

وهذا سؤال إنساني؛ فالإنسان يبحث عن المعنى حين يتألم، لكن بعض البلاء قد لا نعرف حكمته، وربما لا نعرفها أبداً، وهنا يظهر معنى عميق من معاني الإيمان: أن تثق بالله، مع اعترافك بأن علمك محدود، وأن الله سبحانه أعلم بما يصلح لعباده.

هناك فرق بين أن تقول: أنا لا أفهم الحكمة، وبين أن تقول: لا توجد حكمة؛ الأول اعتراف بحدود علمك، والثاني حكم بما لا تعلم، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١ فالآية تذكّر الإنسان بأنه لا يحيط بعواقب الأمور، وأن علم الله أكمل من علمه.

ولا تجعل طول الألم سبباً لسوء الظن بالله، يمكنك أن تقول: يا رب، أنا متعب، ولا أفهم ما يحدث؛ فثبّتي وارحميني؛ فالألم لا ينافي الإيمان، والبكاء لا ينافي الصبر، وطلب الفرج لا ينافي الرضا بالله ربّاً؛ أنما المحذور أن يتحول الألم إلى اعتراض محرم على الله، أو يأس من رحمته، أو ظلم للآخرين.

ولا تجعل كل مصيبة دليلاً على ذنب معين؛ التوبة ومراجعة النفس خير في كل حال، لكن لا يجوز الجزم بأن بلاء شخص بعينه عقوبة لذنب بعينه من غير دليل؛ فقد ابتلي الأنبياء والصالحون، والبلاء قد تكون له حكم متعددة لا نحيط بها، لذلك قل: هل عندي خطأ أحتاج إلى إصلاحه؟ نعم؛ أما أن تحكم على نفسك أو غيرك بأن المصيبة عقوبة محددة؛ فلا.

ولا تجعل فهم الحكمة شرطاً للصبر، قد تعرف بعض الحكمة بعد زمن، وقد لا تعرفها في الدنيا، لكنك تعرف ما يجب عليك الآن: تصلي، وتدعو، وتتداوى، وتسعى،

وتطلب المساعدة، وتدفع الظلم بالوسائل المشروعة، وتتعلم من الخطأ، وتحفظ لسانك وقلبك عن المحرم.

فبدل أن يبقى سؤالك: لماذا حدث هذا لي؟ اسأل: ماذا أستطيع أن أفعل الآن؟ خذ بالأسباب فيما تقدر عليه، واترك ما لا تقدر عليه لله، ولا تجعل البحث المتواصل عن تفسير يسرق منك حاضرك، كل ما تستطيع أن تفعله اليوم يستحق أن تفعله: صلاة، وعمل، وراحة، وسعي، وحديث مع من تثق به، وخطوة صغيرة نحو الإصلاح. قد تكون للبلية آثار نافعة لا تعرفها الآن: أن تعيد ترتيب أولوياتك، أو تتعلم، أو تتوقف عن طريق يضررك، أو تزداد افتقاراً إلى الله، لكن لا تجزم بأن هذه هي الحكمة المقصودة تحديداً؛ قل: قد تكون للمشقة حكم لا أعلمها، والله أعلم بها.

وحين لا تفهم، تمسك بما تعرفه: الله حكيم، رحيم، عليم، وأنت عبد محدود العلم، مأمور بالسعي والطاعة؛ فلا تجعل المجهول يبتلع المعلوم.

ولا تنتظر أن تحب المرض أو الفقد أو الظلم، يمكنك أن تكره الألم، وأن تسأل الله رفعه، وأن تطلب حقه، وأن تعالج مرضك، وفي الوقت نفسه ترضى بالله رباً، ولا تعترض عليه اعتراضاً محرماً، ولا تظلم بسبب ألمك، ولا تيأس من رحمته.

وقد لا تحصل على تفسير كامل، وهذا مؤلم، لكنه لا يعني أن عليك أن تتوقف، بعض الأسئلة نضعها بين يدي الله؛ لا استسلاماً للعجز، بل معرفةً بحدودنا.

قل: يا رب، لا أرى الصورة كاملة، وأنت تعلمها، لا أعرف ما سيأتي، وأنت تعلم؛ فأعني على ما أستطيع، ووفقني للخير، واصرف عني السوء، وثبت قلبي على طاعتك؛ ثم امض.

فالإيمان لا يشترط أن تفهم كل شيء؛ أحياناً يكفي أن تعرف من الذي تلجأ إليه حين لا تجد جواباً.

وحين لا تعرف لماذا، تعرف إلى من تذهب (لله)، وحين لا تفهم ما يحدث، لا تتوقف عن عبادة من يعلم كل ما يحدث (الله).

ليست الطمأنينة أن تعرف كل الأبعاد للبلاء، وإنما أن تثق بالله بكل الأحوال.

الألم الذي لا يراه أحد ، ولست مجهولاً عند ربك

تستيقظ، وتذهب إلى عملك، وتجالس أهلِكَ، وترد على الرسائل، وتبتسم حين ينبغي أن تبتسم، وقد يسألك أحدهم: كيف حالك؟ فتقول تلقائياً: بخير، الحمد لله، ثم تمضي في يومك، وفي داخلك حزن لا تستطيع شرحه، أو خوف تخفيه، أو فقد لم يهدأ، أو خذلان لم تتجاوزه، أو قلق بشأن المستقبل.

وقد يكون من أشد ما يؤلم في هذه الحال أن تشعر أن ألمك غير مرئي؛ لا أحد يعرف كم مرة تماسكت قبل أن تدخل على الناس، ولا كم مرة أخفيت دمعك حتى لا يسألك أحد.

لكن عدم رؤية الناس لألمك لا يعني أنه خفي عن الله، وقد قال سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^١؛ فإذا كان الله يعلم ضيق صدر نبيه ﷺ؛ فلا يخفى عليه حزن عبده وخوفه وافتقاره، ولا يعزب عنه شيء من أمره.

ليس كل ألم يحتاج إلى شاهد، ولا كل جرح يحتاج إلى علامة ظاهرة حتى يكون حقيقياً، وقد تعجز عن شرح ما تشعر به؛ فتقول: لا أعرف ماذا يحدث لي، وهذا لا يضرِك؛ فالله يعلم خفايا النفوس، ويعلم حاجتك قبل أن تحسن التعبير عنها.

ولا تجعل عدم فهم الناس لألمك دليلاً على أنه غير مهم؛ ألناس محدودون، وقد لا يملكون الخبرة التي تمكنهم من إدراك ما تمر به، وكذلك لا تقارن نفسك بغيرك؛ فوجود من هو أشد ابتلاءً لا يلغي تعبك؛ الامتنان لا يلغي الألم، والألم لا يلغي النعم.

وفي الوقت نفسه، لا تجعل إخفاء الألم عادة تمنعك من طلب العون، من الحكمة أن تقول لمن تثق به: أنا متعب، وأحتاج إلى من يسمعني، وقد تحتاج إلى مشورة أو إلى مختص، وهذا من الأخذ بالأسباب، ولا ينافي التوكل على الله.

لكن لا تجعل فهم الناس لك شرطاً لاستقرار قلبك؛ فالناس قد ينشغلون أو يخطئون، أما الله سبحانه فلا يخفى عليه شيء، وقد قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^٢

١ سورة الحجر: ٩٧

٢ سورة طه: ٧.

وإذا كان ألمك متعلقًا بعلاقة مؤذية؛ فالصبر لا يعني أن تسمح باستمرار الأذى، ضع الحدود المناسبة، واطلب حَقَّك بالوسائل المشروعة، واستعن بمن تثق به؛ فالألم يفسر حاجتك إلى الرحمة، لكنه لا يبرر ظلم الآخرين.

ولا تجعل ألمك السري يتحول إلى قسوة، قد تكون مجروحًا، لكن جرحك ليس إذنًا بجرح الناس؛ أجعل ما عرفته من ألم سببًا لمزيد من الرفق، ولا تتعجل في الحكم على إنسان؛ فقد يحمل من الهم ما لا تعرفه.

وحين لا تستطيع الكلام، تحدث إلى الله، قل: يا رب، أنت تعلم حالي؛ فأصلح قلبي، وفرج كربى، وأعني على ما لا أستطيع حمله وحدي، وقد قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^١.

لا تحتاج إلى أن تتظاهر بالقوة في دعائك؛ اعترف بضعفك، واسأل ربك العون والهداية والفرج، وخذ بالأسباب التي تستطيعها.

وإذا انقضت مشقة البلاء؛ فلا تنسَ ما تعلمته منها: تقدير النعم، والرحمة بالناس، ومعرفة ضعفك، وكثرة اللجوء إلى الله.

أنت لست جرحك، ولا خسارتك، ولا خوفك؛ أنت عبد لله مررت بألم، ويمكنك أن تتعلم كيف تمضي معه دون أن تجعل الألم هويتك.

وربما لا يعرف أحد كم مرة قاومت الانهيار، لكن الله يعلم، لا يضيع عنده صبر أخفيته عن الناس، ولا دعاء خفي، ولا سعي بذلته وأنت مثقل.

فإذا كان الألم لا يراه أحد؛ فلا تنسَ أنه ليس خافيًا على الله.

وحين لا تجد من يفهمك، يكفيك أن تعرف أنك لست مجهولًا عند ربك.

حين يتأخر الفرج

من أشد مراحل مشقة البلاء أحياناً تلك التي تأتي بعد بدايتها: مرحلة الانتظار؛ في البداية تشغلك الصدمة، ثم تمضي الأيام ويهدأ ما حولك، بينما يبقى في داخلك سؤال واحد: متى ينتهي هذا؟

تدعو، ثم تنتظر، تدعو من جديد، ولا ترى الفرج بالصورة التي ترجوها؛ فيتعب القلب، وهذا التعب لا يعني بالضرورة ضعف الإيمان؛ فالإنسان له طاقة محدودة، لكن الإيمان يعلمه كيف ينتظر دون أن يفقد الرجاء.

تأخر الفرج لا يعني أن الله نسيك، وقد قال سبحانه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١؛ أنت ترى لحظتك، أما علم الله فمحيط بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه ما يصلح لعبده. لذلك لا تجعل طول الانتظار يتحول إلى سوء ظن بالله: لن يتغير شيء، لن يُستجاب دعائي، انتهى الأمل، هذه أفكار قد يولدها التعب، وليست أحكاماً على المستقبل، وقد قال رسول الله ﷺ: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت ربي فلم يستجب لي»^٢.

والدعاء ليس صفقةً تحدد لله وقت الإجابة وصورتها؛ أسأل الله ما تريد، وألح في الدعاء، وخذ بالأسباب، لكن اترك لله سبحانه اختيار الوقت والكيفية؛ فهو أعلم بما يصلح لك.

ولا يعني ذلك أن تكتم ألمك، يمكنك أن تقول: يا رب، أنا متعب؛ فارفع عني البلاء، وثبت قلبي، واختر لي الخير، يمكنك أن تبكي، وأن تطلب المساعدة، وأن تتعالج، وأن تستشير، وأن تبحث عن عمل، وأن تصلح ما تستطيع؛ التوكل ليس ترك الأسباب، والصبر ليس جموداً.

١ سورة البقرة: ٢١٦

٢ رواه أبو هريرة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

وفي أثناء الانتظار، لا تجعل حياتك كلها مؤجلة: ساعيش حين تنتهي المشكلة، وسأفرح حين يتحقق ما أريد، هكذا قد يسرق المستقبل المنتظر منك الحاضر الذي بين يديك، صلّ، واعمل، وارتح، واجلس مع من تحب، واحمد الله على النعم التي بقيت، شكر النعمة لا يلغي الألم، والألم لا يلغي النعمة.

وقد يتغير الإنسان قبل أن يتغير الظرف؛ فيتعلم الصبر، ويعرف قدر نفسه، ويزداد افتقاراً إلى ربه، أو يعيد ترتيب أولوياته، وليس معنى ذلك أن كل تأخير خير معلوم لنا، بل نقول بأدب العلم: قد تكون للمشقة حكم لا نعرفها، والله أعلم بها.

وإذا طال الانتظار؛ فلا تقارن توقيتك بتوقيت غيرك، قد يفرج عن شخص سريعاً، ويطول ابتلاء آخر؛ وليس في ذلك وحده دليل على فضل أحد أو هوانه، لكل إنسان قدره وظروفه، والله أعلم بعباده.

ولا تجعل الفرج شرطاً للرضا بالله، يمكنك أن تكره الألم، وأن تسأل الله رفعه، وأن تسعى إلى تغييره، وفي الوقت نفسه ترضى بالله رباً، وتحسن الظن به، ولا تعترض عليه اعتراضاً محرماً، ترضى بالله، ولا يلزم أن تحب البلاء لذاته.

فإذا لم تعرف متى يأتي الفرج؛ فلا تجعل هذا السؤال يستهلك يومك؛ أسأل بدلاً منه: ماذا أستطيع أن أفعل اليوم؟ خذ خطوة واحدة، ثم أخرى؛ فالطريق الطويل لا يُحمل دفعة واحدة، وإنما يُقطع يوماً بيوم.

وحين يطول الانتظار، ذكر قلبك:

لم يأتِ الفرج بعد، لا يعني أنه لن يأتي.

لا أعرف متى، لكن الله يعلم.

ولا أرى الحكمة كلها، لكن الله حكيم.

وعليّ أن أفعل ما أستطيع، وأترك ما لا أستطيع لله.

لا تجعل انتظارك للغد يسرق منك اليوم، ولا تجعل تأخر الفرج يقطعك عن العبادة؛ ادعُ، واسع، واصبر، وعش، وقد لا تأتي الإجابة بالصورة التي رسمتها، لكنك تستطيع أن تبقى ثابتاً وأنت تقول:

يا رب، أريد الفرج، والتيسير لأُموري لا تكني لنفسي طرفة عين.

وهنا يتحول الانتظار من فراغ مؤلم إلى عبودية صادقة: أن تستمر في الرجاء، وتأخذ بالأسباب، وتحافظ على طاعتك، دون أن تجعل رغبتك في النتيجة أكبر من ثقتك بالله.

قد لا تعرف متى ينتهي الطريق، لكنك تعرف إلى من تلجأ وأنت تمضي إليه.



لا تجعل انتظار الغد يسرق منك اليوم

لم يأتِ الفرج بعد، لا يعني أنه لن يأتي.

لا أعرف متى، لكن الله يعلم، وعلي أن أفعل ما أستطيع، وأترك ما لا أستطيع لله.

كيف تحمل قلبك في أيام الانكسار؟

هناك أيام لا يحتاج فيها الإنسان إلى حل سريع بقدر حاجته إلى أن يحمل نفسه حتى تمر العاصفة، قد يكون السبب فقداً، أو خذلاناً، أو فشلاً، أو مرضاً، أو نهاية علاقة، أو تراكم أشياء صغيرة حتى يعجز القلب عن حمل المزيد.

في مثل هذه الأيام يصبح كل شيء أثقل: الصباح، والعمل، والكلام، وحتى الأشياء التي كنت تستمتع بها، ولا تكون مهمتك الأولى أن تصلح حياتك كلها، بل أن تتعلم: كيف تحمل قلبك وهو متعب؟

أول ما تحتاجه ألا تنكر ألمك، لست آله، والإيمان لا يعني أن تكون بلا حزن أو دموع، قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^١؛ فالحزن لا يناقض الإيمان، وإنما العبرة بمن تلجأ إليه وكيف تتعامل مع حزنك.

لا تخجل من الدموع؛ أبك إن احتجت، ثم توضأ وصل؛ أسترح إذا تعبت، واستعن بمن تثق به؛ المشاعر تُعاش، لكنها لا ينبغي أن تتحول إلى حكم نهائي على حياتك. وفي ذروة الانكسار، لا تتعجل القرارات المصيرية، قد ترى الحياة كلها من خلال جرحك؛ فتقول: لن أثق بأحد، انتهت حياتي، لا فائدة من المحاولة؛ أعط نفسك وقتاً، واستشر، ونم، واسترح، ثم قرر، لا تجعل لحظة ألم ترسم سنوات كاملة.

وصغر المسافة التي أمامك، لا تسأل: كيف سأصلح حياتي كلها؟ بل قل: ماذا أستطيع أن أفعل اليوم؟ صلاة، وطعام، ونوم، وعمل ضروري، ومكالمة مع شخص تثق به، ومهمة صغيرة، ثم أخرى؛ أحياناً لا يحتاج القلب المنهك إلى حمل المستقبل كله، بل إلى أن يعيش يومه بما يستطيع.

ولا تحمل نفسك فوق طاقتها، ليس مطلوباً منك أن تؤدي في أيام الانكسار كما تؤدي في أيام القوة، خفف ما يمكن تخفيفه، واطلب المساعدة عند الحاجة، لكن حافظ على الفرائض قدر استطاعتك، قد تصلي وقلبك مشغول، وقد تدعو بكلمات قليلة؛ فلا تنتظر دائماً حضور الشعور حتى تستمر في العبادة.

^١ سورة يوسف: ٨٦

وقل لله ما لا تستطيع قوله لغيره: يا رب، أنا متعب، يا رب، هذا يؤلمني، يا رب، أعني على ما لا أستطيع حمله وحدي، وليس الدعاء مسابقة في البلاغة؛ قد تكون أصدق كلمة: يا رب.

ولا تجعل انكسارك تعريفاً نهائياً لنفسك؛ أنت مررت بفشل، ولست فاشلاً، مررت بفقد، ولست فقدك؛ أنت متعب الآن، ولست التعب كله، وانتبه إلى حديثك مع نفسك؛ فهناك فرق بين أن تقول: فشلت في أمر، وأن تقول: أنا فاشل الأول وصف لحدث، والثاني حكم على ذاتك كلها.

ولا تعزل نفسك عن الناس تماماً؛ اختر شخصاً أميناً حكيماً تستطيع أن تقول له: أنا أمر بفترة صعبة، وأحتاج إلى أن تكون قريباً، وإذا تجاوز الألم قدرتك على التعامل معه، أو صار يعطل حياتك ومسؤولياتك؛ فطلب المساعدة المتخصصة من الأخذ بالأسباب، ولا ينافي التوكل.

وفي الوقت نفسه، لا تجعل ألمك مبرراً لظلم غيرك؛ أحفظ حقك، وضع حدودك، وغير ما تستطيع تغييره، لكن لا تجعل جرحك يتحول إلى قسوة؛ أجعل ما عشته سبباً لمزيد من الرحمة، لا مبرراً لمزيد من الأذى.

ولا نستطيع أن نجزم بحكمة معينة وراء كل بلاء، لكننا نستطيع أن نسأل: ماذا أستطيع أن أتعلم؟ وماذا أستطيع أن أصلح؟ قد تخرج من مشقة البلاء أكثر رحمة، وأقل حكماً على الناس، وأعرف بضعفك وافتقارك إلى الله.

وحين لا تستطيع أن تحمل الأسبوع، احمل اليوم، ثم غداً، خطوة أخرى، لا يشترط أن تخرج من مشقة البلاء بقفزة واحدة؛ أحياناً يكفي أن تستمر في المشي، ولو ببطء. فالقلب المنكسر لا يحتاج دائماً إلى أن يفهم كل شيء؛ أحياناً يحتاج إلى أن يعرف إلى أين يذهب حين يتعب.

اذهب إلى الله، صلّ ولو بثقل، وادعُ ولو بكلمات قليلة، وخذ بالأسباب، واستعن بمن تثق، وارحم نفسك من غير استسلام، ثم ابدأ من جديد.

قد لا تخرج من مشقة البلاء كما دخلتها؛ ربما تخرج أهدأ، وأرحم، وأعمق، وأشد افتقاراً إلى الله، وليس المطلوب أن تكون قوياً طوال الوقت، بل أن تعرف كيف تضع ضعفك في موضعه الصحيح.

فإذا انكسر فيك شيء؛ فلا تجعل الانكسار نهاية الطريق؛ اجعله باباً إلى الله، وامضِ يوماً بيوم، حتى تمر العاصفة ويبقى قلبك، رغم كل ما مر به، متعلقاً بالله.

حين يأخذ الله منك شيئاً تحبه

من أقسى ما يمرّ بالإنسان أن يفقد ما أحبّ بصدق: شخصاً، أو مكاناً، أو عملاً، أو صحةً، أو حلمًا طال انتظاره، قد لا يكون عظيمًا في عيون الناس، لكنه كان عظيمًا في قلبك؛ فيؤلمك الفقد ليس لذاته فقط، بل للفراغ الذي خلفه، وللمستقبل الذي تخيلته معه.

ليس سهلاً أن تفقد ما تحب، وقد تسمع: «سيعوّضك الله»، «لا تحزن»، لكنّ القول لا يزيل الألم في لحظته؛ فالإنسان يفقد عادات وتفاصيل كانت جزءاً من يومه، والإيمان لا يلغي الحزن، لكنه يحوِّله إلى طريق لا ينتهي إلى يأس.

حبّك للنعمة فطريّ، لكنّ الخطر أن يتحوّل إلى تعلّق ينسبك أنها فضل من الله قابلة للزوال. أحب ما عندك، واشكر، وانتفع، لكن لا تعلّق استقرار قلبك ببقائها وإذا فقدت؛ فلا تمحُ الجميل، ولا تعيد كتابة الماضي بلون واحد.

قد تنتهي علاقة دون أن تكون كلّها كذباً، وقد يُغلق طريق دون أن تنتهي الغاية. لا تجعل الفقد يهدم ما بقي: فقدت عملاً، لا تفقد قيمتك؛ فقدت؛ فأبواب الخير ليست محصورة فيه ولا تجعل الفقد دليلاً على غضب الله، كما أن العطاء ليس دليل رضا محض؛ الدنيا دار ابتلاء.

أصعب الفقد فقدان المستقبل الذي تخيلته؛ أعطِ قلبك وقتاً، ثم ابنِ ما تستطيع، ولا تجعل الماضي سجنًا.

وإن كان الفقد حديثاً؛ فلا تستعجل: ابكِ، تحدث، صلّ، نم، ولا تتخذ قرارات مصيرية في ذروة الألم، وإن اشتدّ؛ فاطلب المساعدة؛ فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل.

وتذكّر:

كل ما في الدنيا زائل، والله هو الباقي اجعل النعمة في يدك، لا في قلبك؛ إذا جاءت شكرت، وإذا ذهبت حزنت دون يأس، وإذا تأخر العوض صبرت، وإن خفيت الحكمة تواضعت.

قد يأخذ الله ما تحب؛ فلا تطلب من قلبك ألا يحزن؛ اطلب منه ألا يبتعد، وألا ييأس، وألا يعيش في الماضي، وأن يحب النعمة دون أن يعبدها؛ وإذا ذهب ما تحب؛ فلا تذهب معه.

يعقوب عليه السلام قال: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^١، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^٢؛ فالحزن لا يناقض الإيمان، ما دام القلب يلجأ إلى الله.

١ سورة يوسف: ٨٤

٢ سورة يوسف: ٨٦

الفقد الذي يغيّر الإنسان

ليس كل فقد ينتهي حين يغيب الشيء الذي فقدناه؛ فقد يرحل شخص، أو ينتهي طريق، أو تضيع فرصة، وتبقى آثار ذلك في الذاكرة وفي طريقة نظرنا إلى الحياة، وقد يكشف الفقد ما كنا نغفل عنه من نعم؛ فيجعلنا أقدر على تقدير الصحة، والأهل، والوقت، والكلمة الطيبة، لذلك لا نسأل فقط: ماذا فقدت؟ بل نسأل أيضاً: ماذا صنع الفقد في قلبي؟

ليس كل تغير بعد الفقد سيئاً؛ فقد يجعل الإنسان أرحم، وأشد شكراً، وأقرب إلى الله، وأكثر معرفة بضعفه وحاجته إليه، لكنه قد يدفع آخر إلى القسوة وسوء الظن والعزلة والخوف من كل علاقة جديدة، وهنا تأتي مسؤوليتنا: أن نسمح للألم أن يعلمنا، لا أن يحكمنا؛ وأن نخرج من مشقة البلاء بإيمان أعمق، لا بمرارة أشد.

ولا تجعل تجربة واحدة قانوناً للحياة كلها؛ فخذلان شخص لا يعني أن الناس جميعاً خائنون، وفشل تجربة لا يعني أنك فاشل، وإغلاق باب لا يعني أن الأبواب كلها أغلقت، كما لا تجعل محبتك لما عندك تتحول إلى تعلق يربط قيمتك وبقاءك به؛ أحب النعمة واشكر الله عليها، وأحب الناس وارفق بهم، لكن تذكر أن الدنيا متغيرة، وأن أعظم ما ينبغي أن يبقى في القلب هو الإيمان بالله.

والفقد يعلمنا قيمة الوقت: كلمة طيبة قد ينبغي أن تقال اليوم، واعتذار قد لا يحسن تأجيله، وصلة قد يكون وقتها الآن؛ فلا تجعل «غداً» مكاناً تؤجل إليه كل خير.

ومع ذلك، لا تجعل الوفاء للماضي إقامة فيه؛ تعلم من «لو»، ثم اترك ما لا تستطيع تغييره، وعش حاضرك بما بقي لك من نعم؛ فالفرح بعد الحزن ليس خيانة، والحياة لا تتوقف لأن شيئاً عزيزاً قد رحل.

ثم يأتي الصبر الطويل؛ حين تمر الأيام ولا يتغير ما تنتظره، ويصبح السؤال: إلى متى؟ والصبر هنا لا يعني ألا تتعب أو تبكي، بل أن يحملك تعبك على ما يرضي الله، وألا يقودك الألم إلى اليأس أو تجاوز حدود الله، وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^١؛ فالحزن لا ينافي الصبر، والشكوى إلى الله افتقار وعبودية.

لا تجعل طول الانتظار تعليقاً لحياتك؛ اعمل، وتعلم، وصلّ، واستمتع بالمباح، وصل من تحب، وخذ بالأسباب، ولا تجعل الدعاء صفقة مرتبطة بموعد؛ فالدعاء عبادة، والاستجابة لها صور وأقدار لا نحيط بها، ولا يجوز أن نحكم على رحمة الله من خلال تأخر ما نريد.

ولا تجعل الصبر ذريعة لترك الأسباب؛ ابحث عن العمل، واسع في الإصلاح، واستشر، وعالج ما يمكن علاجه، وإذا اشتد عليك الأمر وأثر في قدرتك على أداء حياتك؛ فطلب المساعدة المتخصصة من الأخذ بالأسباب، وليس نقصاً في التوكل. ولا تقارن توقيتك بالآخرين؛ فنعمة غيرك ليست دليلاً على تأخر رحمة الله بك، واسأل نفسك بدل «متى أصل؟»: من أكون وأنا أنتظر؟ هل أصبحت أكثر قرباً، ورحمة، وثباتاً، أم أكثر تعلقاً بالنتيجة؟

قد لا تستطيع اختيار مدة الطريق، لكنك تستطيع اختيار طريقة السير فيه؛ فإذا طال الصبر؛ فخذ من يومك قدره، وصلّ الصلاة التي أمامك، وخذ سبب اليوم، وادعُ بدعاء اليوم، ولا تحمل غداً كله على قلبك.

وقل: يا رب؛ إن طال انتظاري فلا تجعلني أبعد عنك، وإن تأخر الفرج فارزقني صبراً جميلاً، وثباتاً على طاعتك، وقلباً يحسن الظن بك، ويأخذ بالأسباب، ويرضى بما قدرت عليّ.

فليس أعظم ما في الفقد أنه يأخذ شيئاً من الدنيا، ولا أعظم ما في الصبر أنه يطيل الانتظار؛ وإنما العبرة بما يبقى بعد ذلك كله:

أن يبقى قلبك مؤمناً بالله، عاملاً بما يستطيع، راجياً رحمته، لا يفقد طريقه إليه مهما طال الطريق.

البلاء الذي يكشف القلب

هناك أشياء كثيرة لا يعرف الإنسان حقيقتها عن نفسه حتى يُبتلى، قد يظن أنه صبور حتى يطول انتظاره، وأنه متوكل حتى تتعطل بعض الأسباب، وأنه راضٍ بالله حتى تأتبه الحياة بما لم يكن يريد، وأنه قوي حتى يفقد شيئاً كان يستمد منه أمانه.

فالإنسان قد يعيش سنوات وهو يرى الصورة التي صنعها عن نفسه، ثم تأتي مشقة البلاء فتزيع شيئاً من الستار؛ لا لتفضحه أمام الناس، وإنما لتكشف له هو ما الذي يسكن قلبه فعلاً، وهنا يصبح البلاء أكثر من ألم عابر؛ فقد يكون فرصة لمراجعة النفس، ومعرفة التعلقات والمخاوف ومواطن الضعف والقوة.

في الرخاء يسهل أن نقول: «أنا متوكل»، لأن الأسباب تعمل، وأن نقول: «أنا راضٍ بالله»، لأن الأمور تسير كما نحب، لكن حين تتعطل الوسائل، يظهر السؤال الأصدق: ماذا يحدث لقلبك عندما لا تسير الحياة كما تريد؟

قد تكتشف أنك اطمأنت إلى الراتب أكثر مما ينبغي، أو تعلقت بشخص حتى جعلت وجوده مصدراً لأمانك، أو جعلت تقدير الناس جزءاً من قيمتك، وهذه المعرفة، رغم ألمها، قد تكون بداية إصلاح؛ فكل ما سوى الله متغير، والقلب الذي يجعل أمانه متعلقاً بما يتغير يظل عرضة للقلق.

والتوكل ليس إنكاراً للأسباب، بل أن تأخذ بها وتبذل وسعك، ثم تعلم أنها لا تستقل بالنتائج، وأن الأمر كله لله، وكذلك الصبر لا يعني ألا تتألم، والرضا بالله لا يعني أن تحب البلاء لذاته؛ وإنما أن تثق بربك، وتسعى في دفع الضرر، ولا تحملك مشقة البلاء على تجاوز حدود الله.

والبلاء لا يخبرك بالضرورة لماذا وقع؛ فلا يصح أن نجزم بأن كل مصيبة عقوبة، أو أن نحدد لها حكمة تفصيلية لا نعلمها، لكن يمكنك أن تسأل: ماذا كشف هذا البلاء عن قلبي؟ هل كشف تعلقاً يحتاج إلى ضبط؟ خوفاً يحتاج إلى توكل؟ تقصيراً يحتاج إلى توبة؟ نعمة كنت غافلاً عنها؟

وقد يكشف البلاء علاقتك بالدعاء، حين تضيق الأسباب، قد ترفع يديك بالحاح، وتدعو وتبكي، ثم لا ترى ما تنتظر، وهنا يتبين أن الدعاء ليس مجرد طريق إلى مطلوب، بل هو عبادة وافتقار: أنت لا تملك، والله يملك؛ أنت لا تعلم، وهو سبحانه أعلم. وقد يكشف البلاء أخلاقك مع الناس؛ فإذا ظلمك أحد، هل تظلمه؟ وإذا أساء، هل تتحول إلى صورة أخرى من الإساءة؟ النضج ليس أن تتنازل عن حقك، بل أن تحفظ حقك دون أن تفقد عدلك ورحمة قلبك.

وقد يعيد البلاء ترتيب أولوياتك؛ فتكتشف أن الصحة أهم من كثير مما كنت تطارد، وأن الأسرة والوقت والعبادة والسكينة ليست أموراً مؤجلة، وتذكر أن النعمة لا تصبح عادية لمجرد أنك اعتدت عليها.

لكن لا تجعل اكتشاف ضعفك سبباً لكره نفسك؛ إذا رأيت خوفاً؛ فاستعن بالله، وإذا رأيت تعلقاً؛ فاضبطه، وإذا رأيت ذنباً؛ فتب، وإذا رأيت تقصيراً؛ فأصلحه، ليس المطلوب أن تكون بلا عيوب، وإنما أن تكون صادقاً في إصلاحها.

وقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^١؛ فالشكوى إلى الله ليست ضعفاً، بل افتقار، ما لم تتحول إلى اعتراض على حكمه.

ولا تجعل مشقة البلاء كل قصتك؛ أنت أكبر من المشكلة التي تمر بها؛ لك عبادة، وأهل، وأصدقاء، ومسؤوليات، وأيام قادمة؛ أصلح ما تستطيع، واترك ما عجزت عنه لله، ولا تحمل نفسك ذنب ما ليس بيدك.

فالبلاء قد يكشف القلب، لكنه لا يحدد وحده ما سيؤول إليه هذا القلب قد يكشف جرحاً ويدلك على موضع علاجه، ويكشف ضعفاً ويفتح لك باب الاستعانة، ويسقط شيئاً كنت تعتمد عليه ليعلمك أن تستخدم الأسباب دون أن تجعلها موضع اعتماد قلبك.

لذلك لا يكن سؤالك فقط: لماذا حدث هذا؟ بل اسأل أيضاً: من أنا عندما يحدث؟ وإلى من أعود عندما أعجز؟

فإذا مررت بمشقة البلاء؛ فلا تطلب فقط أن تخرج منها كما كنت؛ اطلب أن تخرج منها أصدق إيماناً، وأرحم بالناس، وأقل تعلقاً بما يفنى، وأشد افتقاراً إلى الله. فالبلاء قد يكشف القلب، لكن صدقك مع الله هو الذي يحدد ماذا ستفعل بما انكشف لك.



بين الخوف وحسن الظن بالله

حين تأتي مشقة البلاء، لا يخاف الإنسان من الألم وحده، بل من المستقبل والمجهول، ومن أن يطول البلاء أو لا يجد مخرجاً؛ فيتأرجح القلب بين خوف يشلّه، وحسن ظنّ بالله يسنده.

ليس المطلوب إلغاء الخوف، بل أن تتعلم كيف تخاف دون أن تفقد ثقتك بالله. فالإيمان لا يجعلك بلا خوف، لكنه يعلمك أين تضع خوفك. الخوف طبيعي حين تجهل الغيب، لكن الخطر أن يصبح قائداً لك؛ فلا تجعل الاحتمال حقيقة، ولا تعش الألم قبل وقوعه، خذ بالأسباب، واترك الغيب لمن يعلمه.

حسن الظن بالله ليس أن يحدث ما تريد، بل أن تثق بحكمته ورحمته، وألا تجعل ما تجهله سبباً لسوء الظن به، والرجاء ليس تعلقاً بأمنية، بل أن تقول: يا رب، أرجو الخير، وأسألك ما أريد، وأثق بحكمتك؛ فإن كان خيراً فحققه، وإلا فاصرفه عني واختر لي. ولا تجعل تأخر الفرج دليلاً على أن الله تركك؛ فعدم رؤيتك للحكمة لا يعني غيابها وحسن الظن بالله لا يعني ترك الأسباب؛ فالتوكل سعي مع اعتماد القلب، لا ترك للسعي ولا اعتماد عليه وحده.

الخوف النافع يدفع للاستعداد، والمؤذي يشلّك؛ فلا تخسر يومك بسبب أمر لم يقع؛ اسأل: ماذا أستطيع أن أفعل اليوم؟

لا تخلط بين حسن الظن والسذاجة؛ فالثقة بالله لا تعني تعطيل العقل، وأحياناً يكون خوفك من الفقد أكبر من الفقد نفسه؛ فتحرم نفسك من نعمة حاضرة؛ فلا تدع الخوف من غيابها يسرق حضورها، واشكر الله عليها ما دامت بين يديك.

وحين تخاف؛ فلا تتصنع القوة؛ قل: يا رب، أنا خائف فطمئن قلبي؛ فالاعتراف بالضعف باب إلى الافتقار، وهو من أعظم العبودية، وإن لم تعرف ماذا تفعل؛ فاستخر، واستشر، وامض ولا تنتظر يقيناً كاملاً؛ فالتوكل أن تسعى ثم تفوض ما لا تستطيع إلى الله.

 **وقف مع النفس:** ما أكثر ما أخافه؟ هل وقع أم هو احتمال؟ هل أخذت بالأسباب؟ هل أعيش في المستقبل أكثر من الحاضر؟

لا تحتاج إلى الاختيار بين الخوف وحسن الظن؛ قد تخاف وتدعو، وتقلق وتأخذ بالأسباب، ولا تفهم وتقول: يا رب، لا أفهم لكنني أثق بك، لا تملك المستقبل؛ فلا تعيش أسيرًا له؛ عش يومك، وخذ بالأسباب، واترك غداً لله.



ليس المطلوب ألا تخاف، بل ألا يقتنع الخوف بأنك بلا رب ولا رحمة. الخوف يسأل: ماذا لو حدث ما لا أطيق؟ وحسن الظن يجيب: مهما حدث؛ فلن أكون خارج علم الله وقدره، ولست ممنوعاً من بابه، وهنا لا يختفي الخوف، لكن القلب يتعلم حمله دون أن ينكسر. لا تملك المستقبل؛ فلا تعيش أسيرًا له، عش يومك، وخذ سببك، وارفع دعاءك، واترك الغد لله.

فليس المطلوب أن تعيش بلا خوف، وإنما ألا تسمح للخوف أن يقنعك بأنك بلا رب، وبلا رحمة، وبلا باب مفتوح. الخوف يسأل: ماذا لو حدث ما لا أستطيع احتمالاه؟

وحسن الظن بالله يجيب: مهما حدث؛ فلن أكون خارج علم الله، ولا خارج قدره، ولست ممنوعاً من بابه ورحمته.

وهنا لا يختفي الخوف كله، لكن القلب يتعلم كيف يحمله دون أن ينكسر به.

حين لا يبقى لك إلا الله

هناك لحظات تسقط فيها الأشياء التي اعتدت أن تستند إليها، واحدةً بعد أخرى: شخص كنت تظنه سيبقى فيبتعد، وباب كنت تراه مفتوحاً فيُغلق، وسبب كنت تعتمد عليه فيتعطل، وخطة بنيت عليها سنوات فتنهار، وفجأة تجد نفسك أمام فراغ لم تكن تعرف كيف تحمله .



لكن سقوط الأسباب لا يعني أن الله تركك؛ بل قد يكشف لك حقيقة كنت لا تراها وسط كثرة ما حولك: أن كل ما في الدنيا أسباب، وأن القلب لا ينبغي أن يجعل اعتماده المطلق إلا على الله.

نحن مأمورون بالأخذ بالأسباب؛ نطلب العلاج، ونسعى إلى الرزق، ونستشير، ونتعلم، ونخطط، لكن السبب ليس مستقلاً بالتأثير؛ فالطبيب سبب، والدواء سبب، والعمل سبب، والناس أسباب، والله سبحانه هو الذي يقدر النتائج ويهيئ أسبابها. ولهذا، حين يتعطل سبب، لا تقل: انتهى كل شيء، قد يكون الطريق الذي أغلق أمامك ليس هو الطريق الوحيد، وقد يأتيك الفرج من جهة لم تخطر لك؛ فلا تجعل فشل سبب واحد حكماً على المستقبل كله.

والتوكل لا يعني أن تترك الناس أو ترفض مساعدتهم؛ فقد يجعل الله فرجك على يد إنسان؛ فتشكره وتحفظ فضله، لكن يبقى قلبك عالماً أن هذا الإنسان سبب، وأن النفع والضرر بيد الله، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ﴾^١.

وأحياناً لا تعرف حاجتك إلى الله بوضوح إلا حين تعجز عن الوصول إلى من اعتدت أن تستعين به؛ فتجلس وحدك، وتدعو، وربما لا تجد من الكلمات إلا: يا رب، أعني،

وهناك تتعلم معنى الافتقار؛ لا بمعنى اليأس من الخلق، وإنما بمعنى إدراك أنك عبد محتاج إلى ربك في كل حال.

ولست مطالباً بأن تكون قوياً طوال الوقت، يمكنك أن تحزن وتبكي وتطلب المساندة، دون أن تجعل مشقة البلاء ذريعة لليأس أو الاعتراض، قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^١.

وحين تشتد الحاجة، لا تقبل أي باب لمجرد أنه مفتوح؛ أطلب من الله مخرجاً فيه خير، لا مجرد مخرج يضاعف أذاك، وخذ بالأسباب، واستشر، وحاول، ثم فوّض ما لا تملك إلى الله.

وقد يكون أعظم ما تكشفه مشقة البلاء أنك كنت تتعلق بأشياء متغيرة أكثر مما ينبغي: شخص، أو مال، أو وظيفة، أو صحة، أو خطة؛ أحبب هذه النعم، واشكر الله عليها، لكن لا تجعل بقاءها شرطاً لبقاء طمأنينتك.

فإذا فهمت هذه الحقيقة، ستأخذ بالأسباب دون أن تستعبد قلبك لها، وستحزن على الفقد دون أن تظن أن حياتك انتهت، وستطلب العون من الناس دون أن تجعلهم موضع اعتمادك المطلق.

وقد لا تعرف من أين يأتي الفرج، ولا متى يأتي، لكنك تعرف إلى من ترفع يديك. فإذا سقطت الأسباب؛ فلا تسقط أنت معها؛ خذ بما تستطيع، واستعن بالله، وأحسن الظن به، واعلم أن تغير الأسباب لا يعني تغير قدرة الله ورحمته.

ما الذي تكشفه مشقة البلاء فينا؟

قد يعيش الإنسان سنوات وهو يظن أنه يعرف نفسه: يعرف مقدار صبره، وحدود خوفه، وقوة إيمانه، ودرجة تعلقه بالأشياء، ثم تأتي مشقة البلاء؛ فتُظهر له جوانب لم يكن يراها؛ قد تكشف ضعفًا، وقد تكشف صبرًا وقوة لم يكن يعلم أنه يملكهما. ولهذا من أنفع الأسئلة عند البلاء: ماذا كشفت هذه مشقة البلاء فيّ؟ لا أن يكون السؤال فقط: لماذا حدثت؟ ومتى تنتهي؟ بل: ماذا أحتاج أن أتعلم عن نفسي، وعن علاقتي بالله؟

قد تكشف مشقة البلاء ما الذي كنت تعتمد عليه؛ فقد تقول: «أنا متوكل على الله»، ثم تشعر بالأمان ما دامت الوظيفة قائمة، أو المال حاضرًا، أو شخص تحبه إلى جوارك، أو صحتك بخير؛ فإذا تعطل السبب، ظهر مقدار تعلق القلب به، والتوكل لا يعني ترك الأسباب، بل الأخذ بها مع اعتقاد أن الأسباب لا تستقل بالتأثير، وأن الأمر كله لله. وقد تكشف مقدار تعلقك بما تحب؛ فالمحبة طبيعة بشرية، وليست المشكلة في أن تحب شخصًا أو عملًا أو حلمًا، وإنما في أن يتحول ما تحبه إلى موضع اعتماد القلب وأمانه المطلق؛ فكل ما سوى الله متغير قابل للفقد، ولذلك لا ينبغي أن يكون أمان القلب النهائي فيه.

وقد تكشف علاقتك بالنتائج والدعاء، هل تستمر في الطاعة والخير إذا تأخرت الثمرة؟ وهل تدعو الله تعبّدًا وافتقارًا، أم يصبح دعائك معلقًا بصورة محددة لما تريد؟ قد يتعلم القلب مع البلاء أن يقول: يا رب، أنا محتاج إليك قبل حاجتي إلى هذا الشيء. وتكشف مشقة البلاء الصبر والأخلاق؛ فالصبر لا يعني ألا تتعب أو تحزن، وإنما أن تحفظ حدود الله، وألا يجعل الألم ظلمك للآخرين مبررًا، قد تحتاج إلى الراحة، أو طلب المساعدة، أو وضع الحدود، لكن جرحك لا يمنحك حق جرح غيرك. وقد تكشف صدقك مع نفسك، ربما تكتشف خوفًا كنت تنكره، أو تعلقًا، أو طلبًا زائدًا لرضا الناس، أو حاجة إلى التوبة والإصلاح، والاعتراف ليس هزيمة؛ بل بداية العلاج، وفي المقابل، قد تكتشف خيرًا في نفسك: أنك حفظت لسانك، أو صبرت،

أو أعنت غيرك وأنت متعب، أو واصلت عبادتك رغم المشقة؛ فاحمد الله على ما وفقك إليه، ولا تجعل مشقة البلاء حكمًا نهائيًا على شخصيتك.

وقد تكشف مشقة البلاء قيمة النعم والألويات؛ فالصحة، والأهل، والوقت، والعافية، والعبادة، نعم قد نعتادها حتى لا نشعر بعظيم قدرها؛ فلا تنتظر فقدانها حتى تعرف قيمتها.

وقد تعيد ترتيب علاقتك بالناس؛ فتتعرف إلى صدق بعضهم، وتدرك حدود قدرة بعضهم الآخر، لكن لا تجعل مشقة البلاء وحدها حكمًا قاطعًا على الجميع؛ فقد يحبك إنسان ولا يحسن مساعدتك، أو يعجز عن الوقوف معك كما تتمنى. وحين يشتد الألم، لا بأس أن تشكو، لكن اجعل من شكوك بابًا إلى الله فالشكوى إلى الله افتقار، لا اعتراض.

ولا يلزم أن تعرف الحكمة التفصيلية من كل مصيبة؛ فالله أعلم بما وراء الأحداث، لكن يمكنك أن تتعلم منها ما تستطيع، وأن تصلح ما انكشف لك.

اجلس مع نفسك واسأل: ما الذي كشفتته مشقة البلاء في؟ وما الذي ينبغي أن أصلحه، وما الذي ينبغي أن أشكره، وما السبب الذي أستطيع أخذه، وما الذي يجب أن أتركه لله؟

فإذا رأيت ضعفًا؛ فاستعن بالله، وإذا رأيت تعلقًا؛ فاضبطه، وإذا رأيت تقصيرًا؛ فتب، وإذا رأيت نعمة؛ فاشكر، وإذا رأيت قوة؛ فاحمد الله.

قد لا تختار مشقة البلاء، ولا تحب ألمها، لكن يمكنك أن تختار ألا تخرج منها كما دخلت: أن تعرف قلبك أكثر، وتصلح ما تستطيع، وتزداد افتقارًا إلى الله، وتبدأ من جديد.

فمشقة البلاء قد تكشف القلب، لكن قيمة ما تكشفه تظهر فيما تفعله بعد ذلك.

حين يتحول الجرح إلى باب

هناك جروح لا يراها أحد: جرح تركه فقد، وآخر صنعه خذلان، وثالث جاء من كلمة قيلت في وقت لم تكن مستعداً لها، وقد يبقى الإنسان طويلاً أمام ألمه يسأل: لماذا حدث هذا؟ ماذا لو لم يحدث؟ ومتى يهدأ أثره؟

لكن بعض الجروح، وإن بدت في بدايتها كأنها نهاية الطريق، قد تصبح مع الزمن مناسبة لمراجعة النفس، وإعادة ترتيب الحياة، واكتشاف معانٍ لم تكن ظاهرة من قبل، وليس معنى ذلك أن الألم جميل، أو أن ما حدث كان سهلاً، وإنما أن الإنسان يستطيع، بإذن الله، أن يحول أثر التجربة من شيء يستنزفه إلى شيء يتعلم منه.

ليس كل جرح عقوبة، قد يكون البلاء سبباً لمراجعة النفس والتوبة، لكن لا يصح أن نجزم بأن كل مصيبة عقوبة لذنوب معين؛ فالأنبياء والصالحون ابتلوا، والمرضى والفقد والضيق من سنن الدنيا، لذلك لا تجعل جرحك دليلاً على أن الله غاضب منك، ولا تدع معرفة الحكمة الخاصة من كل ما يقع، قد لا تعرف لماذا حدث الأمر، لكن يمكنك أن تسأل: ماذا أستطيع أن أتعلم منه؟

وقد يكشف الجرح موضع تعلقك؛ فربما لم يكن ألمك في فقد الشخص وحده، بل في فقد الأمان الذي كنت تجده معه؛ أو لم يكن في فقد الوظيفة وحده، بل في الصورة التي كنت ترى بها نفسك؛ أسأل: ماذا فقدت فعلاً؟ شيئاً؟ أم شعوراً؟ أم خطة؟ أم وهمًا بأن الحياة ينبغي أن تسير كما أريد؟

ولا تستعجل تحويل الألم إلى درس، من فقد عزيزاً يحتاج أحياناً إلى أن يحزن، ومن تألم يحتاج إلى من يسمعه قبل أن يقدم له التفسيرات؛ الدعاء والصمت والدمعة قد تكون أصدق من كثير من الكلمات، لكن احذر أن يتحول الحزن إلى هوية دائمة؛ أنت إنسان جرح، ولست الجرح نفسه.

وقد تدفعك مشقة البلاء إلى مزيد من الافتقار إلى الله، حين تعجز عن إعادة الماضي أو معرفة الغيب أو إصلاح كل شيء، تتذكر حقيقتك: أنك عبد محتاج إلى ربه؛ فتقول: يا رب، أعني على ما لا أستطيع.

وقد تعلمك الحدود والحكمة، يمكنك أن تعفو دون أن تعيد الثقة كما كانت، وأن تتمنى الخير لمن آذاك دون أن تسمح له بتكرار الأذى؛ فالرحمة لا تعني إلغاء الحدود، والعفو لا يعني إهدار الحقوق.

وقد يجعلك الألم أكثر رحمة، من عرف الخذلان قد يرفق بالمخذولين، ومن ذاق الوحدة قد ينتبه إلى وحيد، ومن عرف الخوف قد يتوقف عن السخرية من خوف الآخرين، لكن لا تجعل جرحك مبررًا لإيذاء من لم يظلمك؛ ألمك يفسر بعض ردود فعلك، لكنه لا يبرر الظلم.

وقد يعيد الجرح ترتيب أولوياتك، ويكشف لك قيمة الصحة والأهل والوقت والعافية والعبادة، ويعلمك أن النعم التي اعتدتها ليست مضمونة البقاء؛ فلا تنتظر فقدانها حتى تشكر.

والتعافي لا يعني بالضرورة أن تنسى، قد يبقى الأثر، لكن لا يعود هو الذي يقود حياتك، وقد تحتاج إلى الاستعانة بأهل الخبرة أو بمن تثق بهم إذا أثر الألم في نومك أو عملك أو علاقاتك؛ فطلب المساعدة لا ينافي التوكل، بل قد يكون من الأسباب التي يسوقها الله.

لذلك، حين تنظر إلى جرحك، لا تسأل فقط: لماذا حدث؟ بل اسأل: ماذا كشف لي؟ وما الذي أحتاج إلى إصلاحه؟ وما النعمة التي ينبغي أن أشكرها؟ وما الذي أستطيع فعله الآن؟ وما الذي ينبغي أن أتركه لله؟

قد لا تستطيع تغيير الماضي، لكن تستطيع أن تختار ما الذي سيخرج منه: قسوة أو رحمة، يأس أو رجاء، تعلق أو توكل، انغلاق أو حكمة.

فالجرح لا يصبح بابًا لأن الألم كان خيرًا في ذاته، وإنما لأنك، بإذن الله، استطعت أن تخرج منه بشيء من الخير، وقد يبدأ الطريق الجديد من المكان الذي ظننته يومًا نهاية الطريق.

من رحم الألم يولد الإنسان من جديد

الإنسان لا تمر آلام عليه ثم تنتهي، بل تترك أثراً يعيد تشكيل نظرته إلى نفسه والحياة، قد تدخل مشقة البلاء وأنت تظن أنك تعرف القوة، ثم تخرج منها وأنت تعرف معنى الافتقار، تدخلها وأنت تظن أن السعادة في أن تحصل على ما تريد، ثم تتعلم أن الطمأنينة أوسع من تحقيق الرغبات، وتدخلها بخطة واضحة، ثم تدرك أن الحياة أوسع من خطتك.

فالألم قد يهدم صورة قديمة عن نفسك، لتبدأ في بناء صورة أصدق، ولا يعني ذلك أن الألم محبوب لذاته، أو أن الإنسان مطالب بأن يبحث عن المحن؛ فقد كان النبي ﷺ يسأل الله العفو والعافية، ومن دعائه: «اللهم إني أسألك العفو والعافية»، لكن إذا نزل البلاء؛ فليس كل ما يحدث لنا داخلياً في اختيارنا، وإنما نملك أن نحسن التعامل معه، وأن نطلب من الله العون والهداية.

أحياناً لا تهدم مشقة البلاء حياتك بقدر ما تهدم وهم السيطرة الكاملة، وهم ضمان المستقبل، وهم أن قيمتك مرتبطة بما تملك أو تحقق، وعندها تتعلم أن تأخذ بالأسباب دون أن تجعل قلبك أسيراً لها؛ تخطط وتسعى وتستشير، ثم تتوكل على الله فيما وراء قدرتك.

وقد تكشف مشقة البلاء مقدار تعلقك، ربما كنت تستمد أمانك من شخص، أو مال، أو وظيفة، أو نجاح، أو صورة معينة لحياتك؛ فإذا فقدت شيئاً منها، اكتشفت أن محبتك له تجاوزت الحد الذي ينبغي أن يكون عليه التعلق؛ الأسباب تُؤخذ، والناس يُحبون، والنعم تُشكر، لكن الاعتماد القلبي الكامل لا يكون إلا على الله.

وقد تكشف مشقة البلاء ضعفك، لكنها قد تكشف كذلك قوة لم تكن تعرفها: صبراً، أو ضبطاً للنفس، أو رحمة، أو قدرة على البدء من جديد؛ فإذا وجدت في نفسك خيراً؛ فاحمد الله؛ فالتوفيق فضل منه سبحانه.

والتعافي لا يعني أن تصبح إنساناً بلا أثر، قد تتذكر ولا تنهار، وتحزن دون أن تعيش أسيراً للحزن، ليس المطلوب أن تمحو الماضي، بل ألا تجعل الماضي يملك مستقبلك.

ومن رحمة الله أن الإنسان يستطيع أن يتعلم من ألمه دون أن ينقله إلى غيره؛ فإذا خذلك أحد فلا تصبح خاذلاً، وإذا ظلمك فلا تجعل الظلم خلقك، وإذا آذاك فلا تعاقب الأبرياء بجرحه، يمكنك أن تعفو دون أن تلغي الحدود، وأن تحسن الظن دون أن تعطل الحكمة.

الألم قد يعيد ترتيب أولوياتك؛ فتكتشف قيمة الصلاة، والعافية، والأهل، والصديق الصادق، والوقت الهادئ، والنعم التي كنت تمر عليها دون انتباه.

وإذا أثقل الألم حياتك؛ فاطلب العون ممن يستطيع المساعدة؛ فالدعاء لا ينافي الأخذ بالأسباب، والاستشارة والعلاج من الأسباب التي أذن الله بها.

ثم اسأل: ماذا غيّرت هذه مشقة البلاء فيّ؟ وما الذي أحتاج لإصلاحه؟ وما النعمة التي عرفت قيمتها؟ وما التعلق الذي ينبغي أخففه؟ وإلى أي إنسان أريد أن أصل بعدها؟ قد لا تستطيع تغيير ما حدث، لكنك تستطيع أن تختار ما تفعله بعده، تستطيع أن تجعل الألم باباً إلى الصبر، والتوبة، والشكر، والنضج، والرحمة، وحسن التوكل.

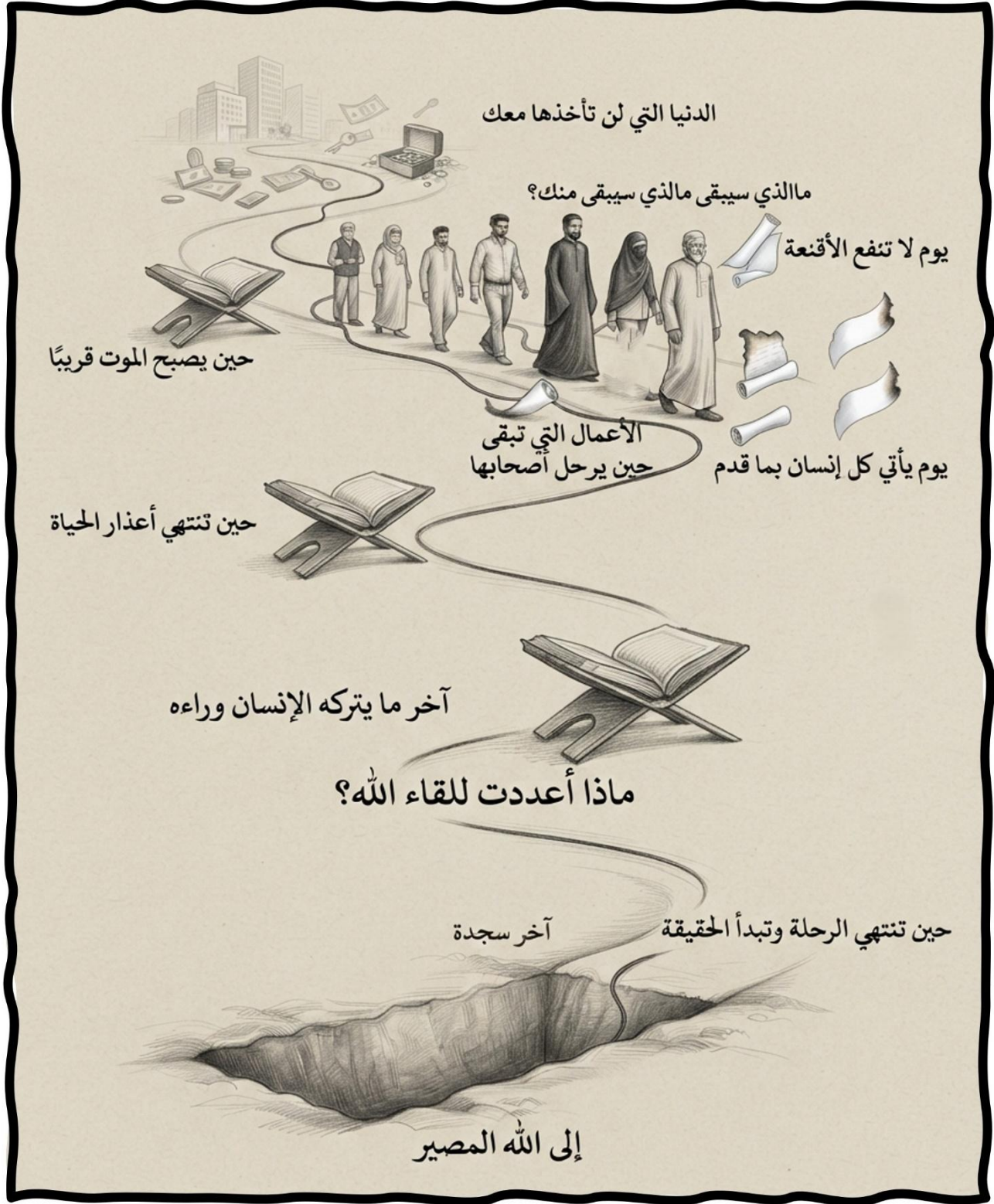
فلا تقل فقط: ماذا أخذت مني مشقة البلاء؟ اسأل أيضاً: ماذا يمكن أن تُصلح فيّ بعدها؟

الألم مؤلم، والفقد فقد، ومشقة البلاء؛ والخير ليس في الألم ذاته، وإنما فيما ييسره الله من هداية وصبر وأجر وإصلاح بعده.

وقد يكون أعمق ما خرجت به من مشقة البلاء أنك لم تصبح أقوى فحسب، بل أصبحت أعرف بمن تعتمد، وعندها لا تكون قد عدت إلى الشخص الذي كنت عليه، بل بدأت — بإذن الله — إنساناً أصدق، وأرحم، وأكثر وعياً بضعفه، وأشد افتقاراً إلى ربه.

فلا تجعل ما حدث نهاية قصتك؛ فقد يكون أول فصل في حياة أكثر صدقاً مع الله ومع نفسك.

الرحيل وما بعده



الرحيل وما بعده

كل الطرق التي يمشيها الإنسان في هذه الدنيا تنتهي إلى حقيقة واحدة لا مفر منها؛ الرحيل عن الدنيا والوقوف بين يدي الله؛ وقد ينشغل الإنسان طويلاً ببناء حياته حتى ينسى أنه يبني في الوقت نفسه زاده للآخرة.

وهنا سنقف أمام الحقيقة التي لا يستطيع أحد الهروب منها؛ أن لهذه الحياة نهاية، وكل ما نملكه فيها سنتركه يوماً، ولن يصبحنا مال ولا جاه ولا صورة صنعناها في أعين الناس، وإنما تبقى أعمالنا وآثارها وما قدمناه لأنفسنا.

وسنتأمل معنى الموت، لا بوصفه فكرة مخيفة فحسب، وإنما بوصفه حقيقة تعيد ترتيب الحياة، وتكشف لنا ما يستحق أن نتعلق به وما لا يستحق؛ فذكر الموت لا ينبغي أن يدفع المؤمن إلى اليأس، وإنما إلى حسن الاستعداد.

وسنسأل أنفسنا: ماذا سيبقى منا حين تنتهي أسماؤنا وأعمالنا الدنيوية وممتلكاتنا؟ وما الذي نرجو أن نقدمه بين يدي الله؟

وسنتحدث عن القلب السليم، وعن أثر العمل الذي لا يراه الناس، وعن الصدقة الجارية، والعلم النافع، والذرية الصالحة، وكل أثر صالح يمكن أن يبقى للإنسان بعد رحيله مما دلت عليه النصوص.

وسنقترب من معنى آخر سجدة، وآخر دعاء، وآخر فرصة للتوبة، لا لنعيش أسرى الخوف من الموت، وإنما لنعيش بوعي أكبر بقيمة الأيام التي وهبنا الله إياها.

فالذكرى الحقيقية للموت لا ينبغي أن تجعل الإنسان يترك الدنيا أو يعطل مصالحه، وإنما أن تمنعه من جعلها غايته الأخيرة؛ فيعمل فيها، ويعمرها بما ينفع، ويأخذ منها ما يعينه على طاعة الله، دون أن يجعلها أكبر همّه.

وسنتعلم أن حسن الخاتمة لا يكون بالأمانى وحدها، وإنما بالسير إلى الله في أيام الحياة؛ توبة بعد ذنب، وطاعة بعد فتور، وصدق بعد غفلة، وإصلاح ما يمكن إصلاحه، والرجوع إلى الله كلما زلّت القدم.

وفي نهاية الرحلة سنعود إلى المعنى الذي بدأنا منه؛ أن الإنسان عبد لله، وأن أعظم ما يرجوه ليس دوام الدنيا، وإنما أن يلقي الله وهو عنه راضٍ؛ فليست العبرة بطول الطريق،

وإنما بأن نمضي فيه إلى الله بقلوب صادقة، وأن يكون لقاءنا به خير ختام حين نتذكر أنك راحل هناك حقيقة يعرفها الإنسان منذ طفولته، لكنه يستطيع أن يعيش سنوات طويلة وكأنه لن يواجهها.

الموت حق؛

يرى من يرحلون من حوله، ويشيع جنازة، ثم يعود إلى بيته وحياته، يخطط للغد، ويبنى ويعمل ويؤجل، وكأن في العمر وعدًا مكتوبًا له، لكن الإنسان لا يملك عهدًا بالغد، ونحن لا نمضي فقط نحو المستقبل، بل نمضي كل يوم نحو الرحيل، وهذه الحقيقة ليست دعوة إلى الخوف الدائم، ولا إلى ترك الدنيا، وإنما إلى أن نراها بحجمها الحقيقي: نعيشها، ونعمرها، ونفرح بما أحل الله، ونعمل ونحب ونبنى، دون أن ننسى أنها مرحلة وليست النهاية.

حين تتذكر أنك راحل، تتغير الأسئلة، لا تعود تسأل فقط: كم سأكسب؟ وماذا سأمتلك؟ وكيف يراني الناس؟ بل تسأل: ماذا سأحمل معي؟ وماذا أعددت للقاء ربي؟ وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^١.

تذكر الموت لا يعني تعطيل الحياة؛ فالعمل والكسب والتخطيط والعمران من الأخذ بالأسباب المشروعة، وإنما الخطر أن تتحول الدنيا من وسيلة إلى غاية؛ فتستولي على القلب، وتصبح قيمة الإنسان مرتبطة بما يملك وما يقال عنه، عش الدنيا، لكن لا تجعلها أكبر همك ولا غايتك.

وحين تعرف أن الوقت هو عمرك، تدرك قيمة الساعة التي تنقضي، وليس المطلوب أن يكون كل وقتك عبادة مباشرة؛ فالنوم والعمل والراحة والجلوس مع الأهل والترفيه المباح يمكن أن تكون حياة طيبة إذا صلحت النية، لكن المؤمن لا يريد أن يمر عمره بلا معنى.

وحين تتذكر الرحيل، تخف بعض المعارك، ليست كل كلمة تستحق خصومة، ولا كل خلاف يستحق أن يسكن القلب؛ ألتسامح لا يعني التنازل عن الحق، والعفو لا يعني قبول الظلم، لكنه يعني أن تعرف ما يستحق موقفًا، وما يستحق تجاوزًا.

١ سورة البقرة: الآية رقم ١١٠.

وتصبح الكلمات أثقل؛ فربما كانت هذه آخر كلمة بينك وبين إنسان، لذلك قل الحق، واختر أحسن ما تستطيع من القول، وإذا أخطأت فلا يمنعك الكبرياء من الاعتذار، وقد تكون كلمة «أخطأت» بداية إصلاح طال انتظاره.

وتعرف قيمة الأهل قبل أن يغيبوا: اتصال تؤجله، وزيارة تقول عنها: «غداً»، وكلمة طيبة تظن أن وقتها واسع؛ فلا تنتظر الغياب لتعرف قيمة الحضور.

وحين تتذكر الرحيل، لا تؤجل التوبة، لا تقل: سأصلح نفسي حين تهدأ حياتي، أو حين أكبر؛ أرجع إلى الله وأنت مقصر، وتب بعد الذنب، وجدد عهدك بالطاعة؛ فباب التوبة مفتوح ما دام الإنسان حياً، وإن أثقل الماضي قلبك؛ فلا تحوله إلى يأس؛ أصلح ما بقي من الطريق: تب، واعتذر، ورد الحقوق، وابدأ الخير من حيث أنت.

ولا تستصغر العمل الصالح؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق^١»، ولا تجعل الخير أسير نظر الناس؛ فليس كل عمل صالح يحتاج جمهوراً، صدقة خفية، ودعاء، وصلة رحم، ومساعدة لا يعلم بها أحد. يكفي أن يعلم الله بها.

والنجاح ليس منصباً ومالاً وشهرة فحسب؛ قد تكون هذه نعماً إذا استعملت في الخير، لكنه أعمق من ذلك: أن تنجح دون ظلم، وتملك دون أن يستعبدك ما تملك، وتقوى دون كبر، وتطلب رضا الله قبل رضا الناس.

وإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا فيما استثناه النبي ﷺ؛ فقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له^٢»؛ فاسأل نفسك: ما الخير الذي أستطيع أن أقدمه اليوم، ويبقى نفعه بعد رحيلي؟

لا تجعل ذكر الموت سبباً لكره الحياة، بل سبباً لحسن عيشها؛ أفرح بالحلال، وتزوج، واعمل، وتعلم، وابن، وازرع، واجلس مع من تحب، واشكر نعم الله؛ لكن عش كل ذلك بقلب يعرف أن النعمة أمانة، وأن العمر محدود.

١ صحيح الجامع (٧٢٤٥) أخرجه مسلم (٢٦٢٦)

٢ صحيح ابن خزيمة (٢٠٧/٤) أخرجه في صحيحه أخرجه مسلم (١٦٣١)، وأبو داود (٢٨٨٠)، والنسائي (٣٦٥١) واللفظ لهم.

قد تكون هذه الصلاة آخر صلاة لك، أو هذه الكلمة آخر كلمة، لكن لا تعش في وسواس؛ عش في وعي؛ صلّ بإخلاص، وتكلم بحسن، واعمل صالحًا، وتب من ذنبك، وأحسن ما تستطيع قبل أن تأتي ساعة لا تستطيع فيها العمل.

فلا تقل: ماذا سأفعل بكل ما فات؟ بل قل: ماذا سأفعل بما بقي؟ فقد لا تستطيع أن تزيد يومًا في عمرك، لكن تستطيع أن تزيد في قيمة الأيام الباقية، ولا تعرف متى الرحيل، لكنك تستطيع أن تختار كيف تعيش قبله.

في النهاية سيبقى السؤال: ماذا قدمت؟ وكيف عشت؟ وأين كان عملك من رضا الله؟ لا تجعل خوف الرحيل يطفئ الحياة في عينيك؛ اجعله يوقظك للصلاة، والرحمة، والتوبة، والعمل الصالح؛ فأنت راحل، نعم، لكنك لم ترحل بعد.

وما دام في عمرك بقية؛ فباب التوبة والعمل والإصلاح مفتوح؛ فلا تنشغل كثيرًا بالسؤال: متى سأرحل؟ وانشغل بالسؤال الأجمل: بأي عمل أريد أن ألقى الله؟ ثم ابدأ من اليوم، لا غدًا؛ لأن أجمل استعداد للرحيل أن تعيش كل يوم في طاعة الله، راجيًا حسن الخاتمة، عاملاً لما بعد الموت.

سيأتي يوم نترك فيه المال والبيت والمنصب والصورة وكل ما شغلنا، ولا يبقى معنا إلا ما قدمناه؛ فالطريق ينتهي، والأيام تنقضي، والأجساد ترحل؛ ويبقى السؤال: ماذا صنعت بهذا العمر قبل أن ينتهي؟

الدنيا التي لن تأخذها معك

قد يقضي الإنسان عمره كله وهو يجمع: المال، والأشياء، والإنجازات، والشهادات، والعلاقات، والمكانة، يبني بيتًا ثم يفكر في الأكبر، ويصل إلى مكان ثم يتطلع إلى ما هو أعلى، وفي وسط هذا الركض قد ينسى سؤالًا بسيطًا: ماذا من كل هذا سيبقى لي حين أرحل؟

عندما يأتي الرحيل، لن تحمل بيتك، ولا سيارتك، ولا ملابسك، ولا منصبك، ولا إعجاب الناس بك، ما كنت تقول عنه: «هذا لي»، ستكتشف أنه كان نعمة وأمانة بين يديك مدة من الزمن.

وليس الخطأ أن تملك الدنيا؛ إنما الخطر أن تملك الدنيا قلبك؛ الدنيا ليست عدوًا؛ فيها الأسرة والصحة والرزق والعلم والعمل والجمال والصدقة، وفيها أفراح مباحة ونعم تستحق الشكر؛ المشكلة ليست أن تعيش فيها، بل أن تنسى أنها دنيا؛ أن تأخذ منها ما ينفعك دون أن تجعلها غايتك.

يمكنك أن تملك المال، لكن لا تجعله يملكك، ويمكنك أن تنجح، لكن لا تجعل نجاحك سببًا للكبر، ويمكنك أن تحب الناس، لكن لا تجعل رضاهم معيار قيمتك. وانظر حولك: أشياء كثيرة في حياتك كنت يومًا تسأل الله أن يرزقك إياها، ثم اعتدتها حتى صارت في عينيك عادية؛ البيت، والعمل، والأهل، والصحة، والوقت، ربما أنت تعيش اليوم داخل آمنيات قديمة، لكنك لم تعد تراها؛ فاشكر النعمة قبل أن تفقدها. والمال لن يدخل معك قبرك، لكن ما أنفقته في الخير قد يبقى لك، تطعم به محتاجًا، وتعين به قريبًا، وتنفق على أهلك، وتفرج به كربة، أو تسهم به في نفع الناس، لذلك لا تسأل فقط: كم أملك؟ بل: ماذا صنعت بما أملك؟

والبيت ستغادره يومًا، لكن تستطيع أن تجعله مكانًا للسكينة والصلاة والرحمة وصلة الرحم، وقد لا تأخذ أبناءك معك، لكنك تستطيع أن تترك في قلوبهم إيمانًا وخلقًا صالحًا؛ فهم أمانة، وليسوا ملكًا.

والصورة التي صنعتها أمام الناس لن ترافقك؛ المظاهر والمكانة والصور والتصفيق كلها عابرة، أما حقيقتك حين لا يراك أحد، وعملك الذي تبتغي به وجه الله؛ فذلك هو الأهم، لذلك اجعل في حياتك أعمالاً خفية لا تحتاج إلى جمهور.

والشهادة ورقة، لكن العلم الذي تعلمته يمكن أن يتحول إلى نفع، والمنصب ينتهي، لكن ما فعلته فيه من عدل وأمانة وإحسان يبقى لك من أثر العمل، كل قدرة أمانة، وكل نعمة مسؤولية.

أما الوقت؛ فهو أعظم ما تملك؛ لأنك لا تجمع الساعات لتستعيدها، بل ينقضي عمرك بانقضائها، وليس المطلوب أن تعمل بلا راحة، وإنما أن تعرف لماذا تفعل ما تفعل، نومك وراحتك وعملك وجلوسك مع أهلك يمكن أن تكون حياة طيبة إذا أحسنت النية وأديت الحقوق.

ولا تحمل إلى آخر الطريق خصومة كان يمكن إصلاحها؛ أن كان هناك اعتذار فاعتذر، وإن كان هناك حق فردّه، وإن كان هناك ظلم فخذ موقفك بحكمة، ولا تجعل الغضب يسرق من عمرك ما لا يستحق.

وحين تتألم، لا تجعل الألم يذهب سدى، قد تتعلم منه الصبر والرحمة وحسن التوكل، وتذكر ضعف الدنيا وقصرها، ولا تجعل خوفك من فقد النعم يحرمك شكر ما بين يديك.

ما يبقى حقاً ليس ما جمعته، بل ما قدمته.

قد يكون عطاؤك كلمة نافعة، أو علماً علمته، أو محتاجاً أعتته، أو قلباً جبرت خاطره، أو صدقة أخفيتها، أو تربية صالحة غرستها في أبنائك. لذلك لا تجعل حياتك مشروع جمع لا ينتهي؛ أجمع ما تحتاجه، واستمتع بالحلال، واشكر الله، لكن لا تكن حاضراً بجسدك غائباً بقلبك، كثرة الأشياء لا تعني كثرة الحياة.

وتذكر أن الدنيا التي لن تأخذها معك قد تكون سبب نجاتك إذا أحسنت استعمالها: المال صدقة، والعلم نفع، والصحة طاعة، والوقت عمل، والقدرة إحسان، والمنصب عدل، والأبناء تربية، وكل نعمة باب من أبواب الشكر.

فلا تسأل فقط: ماذا أملك؟ بل اسأل: ماذا فعلت بما أعطاني الله؟ وطموحك ليس عيباً، والنجاح ليس مذموماً؛ لكن صحح اتجاهه؛ أسأل نفسك: هل يقودني طموحي إلى الخير أم إلى الظلم؟ هل أستطيع أن أصل دون أن أخسر ديني وقلبي؟ ليس المهم أن تصل فقط، بل من تكون حين تصل.

ثم قف مع نفسك واسأل: ما النعمة التي اعتدتها ولم أشكر الله عليها؟ ما الشيء الذي أعطيته أكبر من حجمه؟ ما العمل الذي أستطيع أن أجعله نافعاً بعدي؟ وما الذي أحتاج أن أضعه في يدي بدل أن أضعه في قلبي؟

سيأتي يوم تترك فيه المال والبيت والمنصب والصورة، وستبقى الدنيا حيث هي، بينما ترحل أنت؛ فلا تحزن من هذه الحقيقة؛ فهي التي تعطي الأشياء قدرها الحقيقي، لا تتعلق بما ستتركه، بل أحسن استعماله فيما يرضي الله.

لا تجعل أعظم همك أن تزيد ما في خزانتك، بل أن تزيد ما تقدمه لنفسك في آخرتك؛ الدنيا فرصة؛ لشكر، وتعطي، وتصلح، وتتوب، وتبني، وتنفع، ثم ترحل.

قد لا تأخذ شيئاً من الدنيا في يدك، لكن يمكنك أن تجعل ما أعطاك الله فيها زاداً تلقاه عنده؛ فكل شيء ستتركه خلفك؛ إلا ما قدمته لله.

ما الذي سيبقى منك؟

في نهاية الطريق، ستتوقف أشياء كثيرة، سيغلق المكان الذي كنت تعمل فيه أبوابه دونك، ويسكن البيت من بعدك أناس آخرون، وتُجمع ملابسك، ويصمت هاتفك، وتمضي الحياة في طريقها، قد يحزن من أحبك أيامًا أو أسابيع، ثم تعود الأيام إلى إيقاعها: تشرق الشمس، تُفتح الأبواب، تُنجز الأعمال، ويولد أطفال جدد.

وهنا يظهر سؤال لا نحب كثيرًا أن نواجهه؛ ماذا سيبقى منك حين لا يعود جسدك بينهم؟ ليس المقصود صورتك في أذهان الناس، ولا مقدار شهرتك، بل ما تركته من خير، وما قدمته لله، وما أحدثته من أثر صالح فيمن حولك.

ليس المهم أن يبقى اسمك؛ فقد تُذكر أسماء ثم ينساها الناس، وقد يعيش إنسان بعيدًا عن الشهرة، لكنه يكون سببًا في تعليم طفل، أو ستر محتاج، أو إصلاح أسرة، أو مواساة مكسور، ليس كل أثر يحتاج إلى اسم صاحبه.

قد ينسى الناس كلماتك، لكنهم قد يتذكرون أنك وقفت معهم في وقت الشدة، وقد لا يتذكر أبنائك كل نصائحك، لكنهم يحملون شيئًا من أخلاقك وطريقة تعاملك، نحن لا نعرف دائمًا أين تصل آثار أفعالنا؛ فلا تستصغر الخير.

وأعظم ما يمكن أن تتركه أحيانًا ليس مالا ولا بيتًا، بل إنسانًا أصبح أفضل بسبب خير قدمته له: طفلًا علمته الصلاة، وصديقًا وقفت معه، وقريبًا عفوت عنه، ومحتاجًا أعنته، وإنسانًا لم تكسره حين كان ضعيفًا.

فاسأل نفسك: حين أغيب عن بيتي، ماذا سيدكر أهلي؟ هل كان وجودي بينهم رحمة وأمانًا، أم كان الغضب والانشغال أكثر ما عرفوه مني؟ لا أحد كامل، لكن ما دام في العمر بقية؛ فباب الإصلاح مفتوح.

وقد ينسى الناس ملابسك وسيارتك ومنصبك، لكنهم يتذكرون أمانتك وعدلك وحسن معاملتك، لذلك لا تسأل فقط: كيف أريد أن يراني الناس؟ بل اسأل: من أكون حين لا يراني أحد؟

وما جمعته لن يبقى لك، لكن ما أنفقتة في الخير قد يكون لك، وما تعلمته قد ينفع غيرك، وما فعلته في منصبك من عدل وأمانة قد تجده عند الله؛ فالشهادة ورقة، أما العلم النافع فثمرة، والمنصب ينتهي، أما المسؤولية التي أديتها فلا تضيع عند الله.

وكذلك أبنائك: ليسوا ملكاً لك، وإنما هم أمانة، لن تحملهم معك، لكن تستطيع أن تغرس فيهم الإيمان والصدق والرحمة وحفظ الحقوق، وأحياناً تكون أعظم تربية أن يراك أبنائك وأنت تعيش القيم التي تريد أن يتعلموها.

وهناك أعمال لا يعرفها أحد: صلاة في الليل، وصدقة في السر، وترك ذنب خوفاً من الله، ورد مظلمة، وكلمة طيبة لم يلتفت إليها أحد؛ فلا تحزن إذا لم يعرف الناس خيرا. يكفي أن الله يعلمه.

لكن كما قد يبقى الخير أثراً، قد تبقى المظالم تبعه؛ كلمة كسرت بها قلباً، أو حق منعه، أو مال أخذته بغير حق، أو ظلم نسيته ولم ينسه صاحبه، لذلك من حسن الاستعداد للرحيل أن تراجع حقوق الناس: ردّ ما تستطيع، واعتذر عما أخطأت فيه، وأصلح ما أفسدت.

ولا تجعل «ترك الأثر» باباً آخر لحب الظهور، قد يبدأ العمل لله ثم يتسلل إليه طلب المديح؛ فليكن لك من الخير ما لا يعرفه أحد، حتى يبقى قلبك أقرب إلى الإخلاص. ولست مطالباً بأن تغير العالم كله، ربما كان أعظم أثر في إنسان واحد: شاب أعطيته فرصة، أو وحيداً استمعت إليه، أو طفلاً علمته، أو مكسوراً واسيته، لا تحتقر المساحة الصغيرة التي وضعك الله فيها.

ثم اسأل نفسك: ماذا أريد أن ألقى الله به؟ توبة صادقة؟ عبادة خفية؟ مالا أنفقتة في الخير؟ علماً نافعاً؟ حقاً أديته؟ قلباً لم أظلمه؟ إنساناً أعنته؟ فالأثر لا يُصنع في آخر العمر، بل في التفاصيل اليومية: في صدقك، وأمانتك، وكلامك، ومالك، ووقتك، وصلتك بأهلك، وعبادتك حين لا يراك أحد.

سيأتي يوم تترك فيه كل شيء، ويُطوى ما كان يملأ حياتك، ثم ترحل؛ فلا تجعل همك أن تبني اسماً لا ينساه الناس؛ اجعل همك أن تقدم عملاً صالحاً لا يضيع عند الله.

لا تسأل فقط: كم سأترك؟ بل: ماذا سأترك؟ ولا تسأل: هل سيتذكرني الناس؟ بل: ماذا قدمت لله؟ فقد لا يبقى من الإنسان بيت ولا منصب ولا صورة، لكن قد يبقى

علم نفع به، أو صدقة قدمها، أو ولد صالح رباه، أو قلب جبره، أو حق أداه، أو ذنب تركه لله.

وفي النهاية، سيأتي السؤال الذي يستحق أن نبدأ به من الآن: حين ينتهي الطريق، ماذا أتمنى أن أجد قد قدمت بين يدي الله؟ فلا تنتظر الرحيل لتعرف جوابك؛ أصنعه اليوم.

حين يصبح الموت قريباً

عندها تتغير أشياء كثيرة، تصغر بعض المعارك، وتكبر بعض النعم، وتسقط أمور من قائمة الأولويات، وتظهر أسئلة كنا نؤجلها، لكن تذكر الموت ليس دعوة إلى الهلع، بل إلى اليقظة.

نحن لا نعرف متى نموت، ولذلك لا ينبغي أن يتحول ذكر الموت إلى وسواس يعطل الحياة، لا تراقب جسدك بحثاً عن النهاية، ولا تتوقف عن التخطيط والعمل، بل تذكر أنك لست خالداً؛ فعش بوعي.

وحين يستحضر الإنسان الرحيل، يعيد النظر في أشياء كان يظنها عظيمة: رأي الناس، خلاف عابر، مقارنة، مال لم يحصل عليه، أو شيء لم يشتريه، وقد يكتشف أن ما يريده حقاً هو صلاة بقلب حاضر، ولقاء من يحب، وبرّ والدين، وقلب خفيف من المظالم، ورجوع صادق إلى الله.

الموت لا يضيف قيمة للأشياء، لكنه يكشف لنا قيمتها الحقيقية، والصحة التي اعتدتها نعمة، والقدرة على الحركة والتنفس والرؤية والسمع نعمة، ووجود من يسأل عنك نعمة؛ فلا تنتظر المرض لتشكر الصحة، ولا الفقد لتعرف قيمة الحضور.

وحين يصبح الوقت أوضح في عينيك، تراجع كلمة «لاحقاً»، ليست المشكلة في التأجيل حين تدعو إليه الحكمة، وإنما في التسويف الذي يؤجل التوبة، والبر، وصلة الرحم، ورد الحقوق، والعمل الصالح، لا تجعل كل الخير مؤجلاً إلى غد لا تملكه.

وقد يذكر قرب الموت بحقوق أهملتها: مال لم ترده، أو أمانة لم تؤدها، أو كلمة جرحت بها إنساناً، وهنا لا يكفي الندم؛ بل ينبغي إصلاح ما تستطيع، ورد الحقوق، والاعتذار حيث يكون الاعتذار أصلاً، والاستغفار من الذنب.

وقد تتغير علاقتك بالخصومة، ليس المطلوب أن تنازل عن حقك أو تقبل الظلم، لكن هناك فرقاً بين حفظ الحق وحمل الكراهية، بعض العلاقات تحتاج إلى إصلاح، وبعضها تحتاج إلى حدود واضحة وابتعاد هادئ.

وتتذكر من تحب؛ فلا تؤجل الكلمة الطيبة، ولا تجعل الهاتف يسرق حضورك مع أهلك، قل لمن تحب إنك تحبه، واسأل عنه، واجلس معه؛ فقد تكون اللحظات العادية اليوم من أثمر الذكريات غداً.

إذا أثقلت أخطاء الماضي؛ فتعلم منها وتب وأصلح ما تستطيع، لكن لا تجعل الندم سجناً؛ الماضي للتعلم، لا للإقامة.

وقد يأتيك تذكير الموت من مرض من تحب أو رحيله، نحن لا نملك آجال أهلنا، وإنما نحبههم ونرعاهم وندعو لهم ونأخذ بالأسباب، ثم نفوض الأمر إلى الله، وإذا خفت أو حزنت أو بكيت؛ فلا يعني ذلك ضعف الإيمان؛ فالإيمان لا يلغي المشاعر، وإنما يهديها فلا تقود إلى اليأس أو الاعتراض على قضاء الله.

في المرض، خذ بالأسباب:

اطلب التقييم والعلاج عند الحاجة، واعتن بجسدك، واعلم أن الطبيب والدواء أسباب، وأن الشفاء بيد الله، خذ بالأسباب بقوة، وتوكل على الله وحده.

وحسن الخاتمة لا يُنال بالأمنيات وحدها؛ بل يُرجى مع حياة فيها توبة وصلاة وصدق وترك للمعصية وإصلاح للحقوق؛ فلا تقل: «سأتوب في النهاية»، بل عش تائباً ما استطعت، ولا تحكم على خواتيم الناس؛ فسرايرهم إلى الله، ونحن مسؤولون عن أعمالنا وأيامنا.

ثم قف مع نفسك واسأل:

ما أول شيء أصلحه لو علمت أن العمر محدود؟ من الذي ينبغي أن أصل إليه؟ ما الحق الذي يجب أن أردّه؟ ما الذنب الذي أحتاج أن أتوب منه؟ وما النعمة التي لم أشكر الله عليها؟ ثم ابدأ بما تستطيع اليوم.

لا تجعل قرب الموت سبباً لكره الحياة، بل سبباً لحسن عيشها: صلّ، واعمل، وأحب، وتعلم، وأعط، وأصلح، وخطط للمستقبل دون أن تتعلق به، وافرح بالحلال دون غفلة، واحزن دون يأس.

لا تسأل فقط: كم بقي لي؟ بل: ماذا سأفعل بما بقي؟ فأنت لا تملك موعد الرحيل، لكنك تملك ما تفعله قبل الرحيل.

إذا جاء ذلك اليوم، نرجو أن نلقى الله بتوبة صادقة، وقلب يرجوه، وحقوق أُديت، وأعمال صالحة قدمناها، لا لأننا كنا كاملين، بل لأننا كنا كلما أخطأنا عدنا إلى الله. فالاستعداد للموت ليس أن تنتظر النهاية، بل أن تجعل كل يوم من حياتك خطوة نحو الله.

ماذا أعددت للقاء الله؟

هناك أسئلة كثيرة نطرحها على أنفسنا ونحن نعيش: ماذا سأعمل؟ أين سأعيش؟ كم سأكسب؟ متى أتزوج؟ متى أستقر؟ ومتى أحقق ما أريد؟ وكلها أسئلة لها مكانها في الحياة، لكن ثمة سؤالاً نادراً ما نجلس معه طويلاً: ماذا أعددت للقاء الله؟

ليس السؤال: كم قرأت؟ ولا كم أنجزت؟ ولا كم جمعت؟ بل: ماذا قدمت من عمل صالح، وما الذي أصلحت من قلبك وعملك، قبل أن يأتي يوم الحساب؟ فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^١، يوم تظهر الحقائق، وتنكشف السرائر، ويُجازى الإنسان على ما قدم.

عندها لا تنفع الصورة التي صنعها أمام الناس، ولا الشهرة ولا المال، وإنما ينفع الإيمان والعمل الصالح؛ فاسأل نفسك بصدق: هل حافظت على الصلاة؟ هل جددت التوبة؟ هل أصلحت قلبك من الحسد والكبر والرياء؟ هل لك عمل خفي لا يعلمه الناس؟ هل حفظت حقوق العباد؟ هل جعلت للرحمة والصدق وحسن الخلق نصيباً من حياتك؟

ولا تنتظر أن تصبح صالحاً ثم تبدأ؛ فالاستقامة طريق يجاهد فيه الإنسان نفسه، يخطئ ثم يتوب، ويضعف ثم يستعين بالله، يقول سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^٢.

وإذا كانت لك ذنوب تخجل منها؛ فلا تجعلها سبباً لليأس، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^٣؛ فالتوبة ليست كلمة تُقال، بل ندم وإقلاع وعزم على عدم العودة، ومع حقوق الناس ردُّ للحقوق وإصلاح لما يمكن إصلاحه.

وأعدّ للقاء الله قلباً يرجوه ويخافه ويحسن الظن به، وعملاً صالحاً لا تنتظر عليه مدحاً، صلّ بقلب حاضر، وتصدق، وادعُ لمن لا يعلم بدعائك، واترك المعصية حين لا يراك أحد، وأحسن إلى والديك وأهلك؛ فإن حسن العبادة لا ينفصل عن حسن الخلق.

١ سورة الطارق: الآية: ٩.

٢ سورة هود: الآية ١١٢.

٣ سورة الزمر: الآية ٥٣.

اكسب الحلال، وأنفق فيما ينفع، وتعلم ما يقربك إلى الله وينفع الناس، واحفظ وقتك؛ فما مضى منه لا يعود، ولا تعتمد على عملك وحده، ولا تيأس من تقصيرك؛ أعمل، واستغفر، واسأل الله القبول والثبات وحسن الخاتمة، واجمع بين الخوف والرجاء.

ثم اجلس مع نفسك أحياناً واسأل:

ما الذنب الذي ينبغي أن أتركه؟ ما الحق الذي يجب أن أردّه؟ من الشخص الذي أحتاج إلى إصلاح علاقتي به؟ وما الطاعة التي أستطيع أن أبدأ بها اليوم؟

فالموت ليس دعوة إلى ترك الحياة، بل إلى أن نعيشها بوعي، نعمل ونتزوج ونبني ونستمتع بالمباح، لكن دون أن تصبح الدنيا غايتنا والله يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^١.

فاللقاء آتٍ، ولا نملك مواعده، لكننا نملك، بإذن الله، ما نفعله قبل مجيئه؛ فلا تكتفِ بأن تسأل: ماذا أعددت للقاء الله؟ اجعل يومك هو جوابك.

يوم لا تنفع الأقنعة

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يظهر بصورة لا تشبه حقيقته تمامًا، قد يبدو قويًا وهو خائف، وسعيدًا وهو يحمل حزنًا، وصالحًا أمام الناس بينما بينه وبين الله تقصير لا يعلمه أحد، وقد ينجح في إقناع الآخرين، وربما في إقناع نفسه، لكن يأتي يوم لا تنفع فيه الأقنعة، ولا تكون العبرة بالصورة التي صنعها الإنسان، بل بما قدمه حقيقة. سيأتي يوم تظهر خفايا الأعمال والقلوب، لا لأن الله تعالى يعلمها بعد جهل، حاشاه؛ فهو سبحانه العليم بما تخفي الصدور، ولكن ليظهر للخلق ما كان مستورًا، ويتبين صدق الإنسان وحقيقة عمله.

بين صورة الناس وحقيقة الإنسان

الناس يرون ابتسامتك ونجاحك وكلامك، ولا يرون كل ما في قلبك، قد يرون عبادتك، ولا يعلمون نيتك، وقد يسمعون كلماتك، ولا يعرفون ما تفعله حين تختلي بنفسك. ولهذا فالمشكلة ليست في الخصوصية، ولا في ستر العيوب، ولا في إخفاء العمل الصالح؛ فهذه قد تكون من الحكمة والإخلاص؛ أما الخطر أن يصنع الإنسان للناس صورة متعمدة تناقض حقيقته، طلبًا للمدح أو هروبًا من المسؤولية. قد يخاف أن يقول: «أخطأت»؛ فيكابر؛ أو: «لا أعلم»؛ فيتكلم بغير علم؛ أو: «أحتاج»؛ فيعيش أسير صورته، وأحيانًا يصبح الحفاظ على القناع أخطر من الخطأ نفسه؛ لأن الخطأ يمكن إصلاحه، أما الإصرار على تبريره فيغلق باب الإصلاح.

هل تعمل لله أم لنظر الناس؟ قد يبدأ الإنسان عملاً صالحًا مخلصًا، ثم يفرح بثناء الناس، وهذا لا يعني وحده فساد عمله، لكن الخطر أن يصبح مدحهم هو المحرك؛ فيعمل إذا رآه الناس، ويفتر إذا غابوا، ويحزن إذا لم يُذكر اسمه.

لذلك اجعل في حياتك أعمالاً خفية: صلاة لا يعلم بها أحد، وصدقة لا تنتظر عليها شكرًا، وترًا لمعصية حين تكون وحدك، وإحسانًا لا يبحث عن جمهور، لا تجعل ما يراه الناس من عملك أكبر مما بينك وبين الله من صدق وإخلاص.

واسأل نفسك: كيف أكون حين لا يراقبني أحد؟ هل أؤدي ما عليّ؟ هل أترك الظلم؟ هل أحفظ لساني؟ هل أراقب الله في خلواتي؟ فهنا تظهر ثمرة الإيمان؛ أن يكون علمك بأن الله مطلع عليك باعثاً على الطاعة، رادعاً عن المعصية، لا مجرد صورة أمام الآخرين.

لا تهرب من حقيقتك إذا اكتشفت في نفسك حباً زائداً للمدح، أو حسداً، أو كبراً، أو تقصيراً؛ فلا تجعل اكتشاف العيب سبباً لليأس، بل اجعله بداية للإصلاح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^١.

قل: أخطأت؛ فأتوب، قصرت؛ فأصلح. ظلمت؛ فأرد الحق، ضعفت؛ فاستعين بالله، ليس المطلوب أن تكون بلا نقص، وإنما ألا تجعل نقصك شيئاً ترضى به وتصر عليه. يوم لا تنفع الأقنعة سيأتي يوم يسقط فيه كل ما صنعناه من صور: المال، والألقاب، والمكانة، ومدح الناس، ولن ينفع الإنسان أن يقول: «هكذا كانوا يرونني»، وإنما ينفعه ما قدمه لله من إيمان وعمل صالح، وما أصلحه من حقوق العباد.

فلا تجعل أكبر مشروع في حياتك أن تصنع صورة جميلة عن نفسك، بل أن تصلح حقيقتك؛ أجعل شرك خيراً من علانيتك، وعملك لله قبل أن يكون للناس، وتب من ذنبك قبل أن يصبح عادة، وأدّ حقوق العباد قبل أن يأتي يوم لا تستطيع فيه الإصلاح. واليوم بين يديك: تستطيع أن تصدق، وتتوب، وتعتذر، وترد حقاً، وتصنع عملاً خفياً؛ فلا تسأل فقط: كيف سأبدو يوم يلقي الله عبده؟ بل اسأل: ماذا أفعل اليوم حتى أرجو أن ألقى الله على خير؟

فالعظمة ليست أن تخدع الناس بصورة جميلة، بل أن تصلح حقيقة ترجو أن يرضى الله عنها.

يوم يأتي كل إنسان بما قدم في الدنيا

يستطيع الإنسان أن يترك أشياء خلفه. ينسى موقفًا، ويمحو رسالة، ويغلق بابًا، ويبدأ من جديد، وقد تمضي السنوات حتى ينسى الناس ما حدث، لكن هناك يومًا لا يضيع فيه شيء، ولا يأتي الإنسان فيه بما تمنى أن يفعله، ولا بما ظنه الناس عنه، بل بما عمله فعلاً.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^١.

فحياتك ليست مجرد أيام مضت؛ كل صلاة، وكل صدقة، وكل كلمة طيبة، وكل حق أديته، وكل أذى منعته، وكل معصية تركتها لله، وكل ظلم اجتنبته، له شأن عند الله، وكذلك الكذب والغيبة والظلم وأكل الحقوق والمعاصي ليست أشياء يمحوها مرور الزمن.

ويقول سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^٢. لذلك لا تحتقر العمل الصغير؛ ابتسامة، ومساعدة، وصدقة، وركعتان في خلوة، وترك ذنب مع القدرة عليه، قد تكون من الخير الذي تلقاه يومًا، ولا تستهين بالذنب الصغير؛ فكلمة قد تجرح، وظلم قد يترك أثرًا طويلاً، وحق قد يؤجل، ثم يلقي الإنسان أثره. والسؤال ليس فقط: كم عملاً فعلت؟ بل: كيف عشت؟ هل تحرّيت الحلال؟ هل عدلت حين قدرت؟ هل راقبت الله حين خلوت؟ هل أحسنت إلى أهلك؟ هل كنت رحيماً بمن لا يستطيع مكافأتك؟ هل كان لك عمل خفي لا يعرفه أحد؟ فالعبودية ليست ساعات محدودة من اليوم؛ بل أن يكون إيمانك حاضراً في اختياراتك كلها.

وقد تمر في حياتك صفحات لا تحبها.

لكن الخطأ ليس نهاية الكتاب.

إن أذنبت فتب.

١ سورة آل عمران : الآية : ٣٠.

٢ سورة الزلزلة ٧-٨.

وإن ظلمت فرد الحق وأصلح، وإن قصرت فاستدرك، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾^١، لا تجعل الندم بابًا لليأس، بل اجعله بابًا للإصلاح. وإذا كان في ذمتك دين أو أمانة أو حق لأحد؛ فلا تؤجل ما تستطيع إصلاحه، وإذا عجزت عن رد حق أو إصلاح أمر؛ فاسأل أهل العلم عن الطريق الصحيح؛ فبعض ما يمكن إصلاحه اليوم قد لا تملك غدًا القدرة نفسها على إصلاحه. ولا تقارن صحيفتك بصحيفة غيرك، لكل إنسان قدرته وظروفه وأبوابه التي فتحتها الله له، ليس المطلوب أن تفعل كل شيء، بل أن تفعل ما تستطيع بإخلاص، وألا تقف أمام ما منحك الله إياه خالي اليدين. وأحيانًا يكون أعظم ما قدمت هو ما امتنعت عنه: استطعت أن تنتقم فعفوت، واستطعت أن تكذب فصدقت، واستطعت أن تظلم فعدلت، واستطعت أن تعصي فتركت المعصية لله. فتوقف اليوم واسأل نفسك: لو توقفت صحيفتي الآن، ماذا أتمنى أن أضيف إليها؟ ذنبًا أتوب منه؟ حقًا أردته؟ علاقة أصلحها؟ عبادة أبدأ بها؟ عملاً صالحًا أخفيه عن الناس؟ لا تنتظر مشروعة عظيمًا؛ أبدأ بما تستطيع؛ فما دام فيك نفس؛ فما زالت أمامك فرصة للصلاة، والتوبة، والبر، والإحسان، ورد الحقوق، وترك المعصية، والعمل الصالح. وسيأتي يوم ينتهي فيه وقت العمل؛ فلا تستطيع أن تضيف سجدة ولا صدقة ولا كلمة، عندها لن ينفعك ما تمنيت أن تقدمه، بل ما قدمت. فلا تنشغل فقط بما تريد أن تأخذ من الدنيا، واسأل نفسك: ماذا أريد أن أجد عند الله؟ ثم ابدأ من الآن، قدّم خيرًا، وأصلح، وتب، وأعط، واعمل، واجعل لك عملاً خفيًا بينك وبين الله. وليس أجمل ما تحمله يوم الرحيل أن تكون مشهورًا أو غنيًا أو ناجحًا في أعين الناس، بل أن تلقى الله بقلب راج، وصحيفة فيها توبة، وصلاة، وصدق، وإحسان، ومحاولات صادقة للعودة، ولن تأخذ معك كل ما جمعت، لكنك ستجد ما قدمت؛ فاجعل فيما بقي من عمرك ما يسرك أن تلقاه غدًا.

الأعمال التي تبقى حين يرحل أصحابها

يرحل الإنسان، وتنتهي أشياء كثيرة كانت مرتبطة بوجوده. يغلق بيته، ويتوقف هاتفه عن الرنين، وتُجمع متعلقاته، وتُطوى ملابسه، ثم يعود الناس إلى حياتهم، وتمضي السنوات، وقد تُنسى تفاصيل كثيرة عنه.

لكن ليس كل شيء يرحل برحيله؛ فقد يبقى علم علمه، أو خير أسسه، أو إنسان أصلحه، أو قلب جبر خاطره، أو صدقة جارية، أو أثر صالح تركه في حياة غيره، قد ينتهي عمر الإنسان، لكن لا ينتهي بالضرورة أثره.

لسنا نملك البقاء في الدنيا، لكننا نستطيع أن نترك فيها شيئاً من الخير، قد يرحل المعلم ويبقى علمه في تلميذه، ويرحل الأب أو الأم ويبقى في أبنائهما ما زرعه من إيمان وأخلاق ورحمة، وقد يرحل إنسان بسيط، لكن أحداً يظل يذكره لأنه مد له يده في يوم عسير.

وليس المهم أن يبقى اسمك؛ فكم من أسماء عُرفت ثم نُسيت، وكم من أناس لا يعرف أحد أسماءهم، لكن آثار إحسانهم لا تزال حاضرة؛ السؤال الأهم ليس: «هل سيتذكرونني؟» بل: هل بقي من الخير شيء بسبب مروري في هذه الحياة؟ ومن أعظم ما يدل على بقاء بعض ثمرات العمل بعد الموت قول النبي ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^١.

وهذه ثلاثة أبواب عظيمة، وليست كل صور الخير محصورة فيها من حيث بقاء النفع؛ غير أن الحديث دل دلالة صريحة على استمرار الثواب في هذه الثلاثة. فالصدقة الجارية لا يشترط أن تكون مشروعاً ضخماً؛ قد يشارك الإنسان في وقف أو منفعة مستمرة بقدر استطاعته، والعلم النافع قد يبدأ بأية صحيحة، أو معرفة نافعة، أو مهارة مباحة، ثم ينتقل من إنسان إلى آخر.

لكن العلم أمانة؛ فلا تنشر ما لا تعلم، ولا سيما في أمور الدين؛ أن لم تعلم؛ فقل: «لا أعلم»، وتثبت قبل النقل؛ فكما قد يبقى أثر الخير، قد يبقى أثر الخطأ والشر.

١ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والأبناء ليسوا مجرد استمرار للاسم، بل قد يكونون من أعظم ما يتركه الإنسان من أثر إذا أحسن تربيتهم؛ فالطفل قد ينسى كثيراً من النصائح، لكنه يتذكر ما رآه في البيت: صدقك، ورحمتك، وصلاتك، واعتذارك، وطريقة تعاملك مع الناس.

وقد يكون من أجمل ما يتركه الإنسان: إنساناً صالحاً كان سبباً في صلاحه، وقد يكون أثرك إنساناً واحداً: كلمة شجعت يائساً، أو رحمة حفظت مخطئاً من الانكسار، أو جلسة خففت وحشة وحيد.

وليس كل أثر صالح يقاس بعدد من رأوه؛ فقد يكون عظيمًا عند الله وإن لم يعرفه الناس، والأثر ليس فيما فعلناه فقط، بل أحياناً فيما منعناه: ظلمًا رفضناه، أو غيبة لم ننشرها، أو كلمة جارحة أمسكنا عنها، أو إنساناً نصحناه قبل أن يخطو خطوة يندم عليها.

فالخير قد يكون في فعل الصواب، وقد يكون في منع الأذى، ولا تجعل فكرة الأثر باباً إلى حب الظهور؛ إذا بقي الخير واختفى اسمك؛ فذلك أقرب إلى الإخلاص.

وقد تعمل عملاً صالحاً ولا ترى نتيجته، أو تربي وتعلم ثم لا تشهد الثمرة التي تمنيتها؛ أنت مسؤول عن السعي والنية، أما القلوب والهداية فييد الله. يقول سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^١.

فلا تنتظر ثروة أو شهرة لتترك أثراً؛ أبدأ بمن حولك: بوالديك، وأهلك، وأبنائك، وجيرانك، وزملائك، ومن تستطيع نفعه؛ أعط مما أعطاك الله: مالاً، أو وقتاً، أو علماً، أو مهارة، أو كلمة طيبة.

ثم تذكر أن الأثر قد يكون صالحاً أو سيئاً؛ فكما قد يبقى الخير، قد تبقى الفتنة والظلم والعادات السيئة، لذلك لا تسأل فقط: هل سيكون لي أثر؟ بل اسأل: أي أثر سيكون لي؟

سيأتي يوم ترحل فيه، وقد تُنسى أشياء كثيرة من حياتك؛ فلا تجعل غايتك أن تخلد اسمك، بل أن تعمل لما بعد الدنيا؛ أزرع خيراً، وأصلح بيتاً، وربّ ولداً، وانفع إنساناً،

وعلم علماً نافعاً، وأسهم في صدقة جارية، ولا تتعلق بأن يعرف الناس أنك فعلت،
يكفي أن يعلم الله.

وفي النهاية، ربما أجمل ما يتركه الإنسان ليس بناءً يحمل اسمه، ولا مشروعاً تتعلق
عليه صورته، بل إنساناً أصبح أفضل بسبب وجوده؛ فاجعل في حياتك شيئاً إذا
غبت بقي نافعاً، وإذا رحلت بقي من الخير ما أذن الله ببقائه؛ واعمل اليوم لما تحب
أن تلقى الله به غداً.

حين تنتهي أعمار الحياة

في الدنيا يجد الإنسان دائماً شيئاً يعلّق عليه ما لم يفعله: سأبدأ حين أستقر، سأتوب حين أهدأ، سأصلح علاقتي بأهلي عندما تتحسن ظروفني، سأقترب من الله حين تنتهي هذه المرحلة.

وهكذا تمضي الأيام، وتأتي مرحلة أخرى، ثم أخرى، حتى يصبح التأجيل أسلوب حياة، والإنسان لا يقول: «لن أفعل»، بل يقول: «ليس الآن»، وهذه الكلمة الصغيرة قد تتحول، دون أن نشعر؛ إلى: «لم يحدث أبداً.»

من رحمة الله أن باب التوبة مفتوح ما دام الإنسان حياً، وكل يوم يمر عليك فرصة للرجوع والإصلاح، لكن لا تجعل الفرصة المؤقتة كأنها حق مضمون؛ فالغد ليس ملكاً لأحد، يقول الله سبحانه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾!

نحن نخطط للغد، وهذا من طبيعة الحياة، لكن لا ينبغي أن نبني علاقتنا بالله على افتراض أن الغد مضمون، قد تكون ظروفك صعبة فعلاً، وقد تكون مسؤولياتك كثيرة، والإيمان لا يطلب منك تجاهل واقعك، لكن اسأل نفسك بصدق: هل أصبحت ظروفني عذراً دائماً لتأجيل كل ما يقربني من الله؟ فهناك فرق بين العجز الحقيقي، وبين عادة نختبئ خلفها.

لا تنتظر أن تنتهي الحياة حتى تبدأ عبادتك؛ تعلّم أن تعبد الله داخل حياتك كما هي؛ أعمل، وتزوج، وربّ، وتعلم، واكسب، واسترح، وعش الحلال، لكن لا تجعل الدنيا سبباً لنسيان الغاية التي خلقت لها.

ولا تنتظر أن تصبح حياتك مثالية، ربما لديك عمل متعب، وأبناء، ومسؤوليات، ومشكلات كثيرة؛ فبدل أن تقول: «حين تستقر حياتي سأقترب من الله»، قل: «كيف أقرب من الله في حياتي الحالية؟» بصلاة في وقتها، وذكر، وقراءة للقرآن، وبرّ والدين، وصلة رحم، وترك معصية، وإحسان إلى الناس.

ولا تجعل نقصك سببًا للابتعاد عن مصدر إصلاحك؛ أنت لا تصلي لأنك كامل، بل لأنك محتاج إلى الله، ولا تتوب لأنك بلا ذنب، بل لأنك أخطأت وتريد الرجوع. وإذا سقطت؛ فعد؛ فالتوبة ليست وعدًا بالأضعف، وإنما رجوع إلى الله كلما أذنبت وندمت، ومن أخطر صور التسويف انتظار المثالية: «إما أن ألتمز تمامًا، أو لا أبدأ»، لكن الطريق يُبنى خطوة خطوة؛ فلا تجعل عدم قدرتك على الكثير سببًا لترك القليل. وقد يقول الإنسان: «سأصلح هذا الأمر لاحقًا، سأعتذر، سأرد الحق، سأترك الذنب، سأزور والدي»؛ لكن بعض الفرص لا تتكرر، وبعض الأشخاص قد لا يكونون موجودين غدًا؛ فلا تؤجل المعروف الذي تستطيع فعله اليوم.

وسياتي يوم تنتهي فيه القدرة على قول: «سأفعل»، وتذكر قول الله سبحانه عن المحتضر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾^١.

حينها يصبح العمل أمنية، بعدما كان في الدنيا قدرة وفرصة، لكن ذكر الموت ليس دعوة إلى الخوف الذي يشل الحياة، بل إلى الوعي الذي يرتبها. خطط لمستقبلك، وابن حياتك، واستمتع بالحلال، لكن لا تجعل كل خططك للدنيا وحدها، عش في الدنيا، ولا تجعلها نهاية القصة.

اسأل نفسك اليوم: ما الشيء الذي أؤجله منذ زمن؟ أهو عذر حقيقي، أم خوف، أم كسل، أم انتظار لوقت مثالي لن يأتي؟ ثم اسأل السؤال الأهم:

ما الخطوة التي أستطيع أن أفعلها اليوم؟

اتصل؛ أعتذر، صل؛ أقرأ؛ أعط؛ أصلح؛ أترك ذنبًا؛ أبدأ.

لا تحتاج إلى أن تكون مستعدًا تمامًا؛ تحتاج إلى أن تبدأ بما تستطيع، ولا تجعل الندم على الماضي يسرق منك الحاضر؛ فإن فاتتك سنوات؛ فلا تُضف إليها سنوات أخرى من التسويف.

سيأتي يوم لا يبقى فيه «لاحقاً» ولا «غداً»؛ أما الآن؛ فما زالت لديك نعمة الاختيار؛ فلا تؤجل التوبة إلى وقت لا تملكه، ولا تؤجل الخير إلى غد لا تضمنه. ابدأ اليوم، بما تستطيع، وفي المكان الذي أنت فيه؛ فالعمر يمضي، والفرص تنقضي، ويبقى للإنسان ما قدم.

آخر ما يتركه الإنسان وراءه

في نهاية الطريق، لا يأخذ الإنسان معه شيئاً مما ظن طويلاً أنه ملكه، يترك بيته، وماله، ومكانه، وملابسه، وأشياء احتفظ بها سنوات ظاناً أنه سيحتاج إليها يوماً، يخرج من الدنيا كما دخلها، بلا متاع.

لكن قبل أن يغلق الناس بابه الأخير، يكون قد ترك وراءه شيئاً آخر: أثراً، قد يكون خيراً أو ألماً، علماً ينتفع به الناس، أو جرحاً بقي في قلب إنسان، أو أبناءً يحملون شيئاً من أخلاقه، أو بيتاً غرس فيه الإيمان والرحمة.

ولهذا فالسؤال في نهاية الحياة ليس فقط: ماذا أخذت؟ بل: ماذا تركت؟ أنت لا تنتظر الموت حتى تترك أثراً؛ فأنت تترك شيئاً كل يوم، بعد حديثك مع إنسان قد تترك طمأنينة أو خوفاً، وبعد دخولك بيتك قد تترك راحة أو توتراً، وبعد موقف غضب قد تترك جرحاً لا تشعر به.

نحن نكتب آثارنا في حياة الآخرين ونحن لا نشعر، ولذلك فالأثر ليس مشروعاً يبدأ في آخر العمر، بل نتيجة للطريقة التي نعيش بها كل يوم.

قد ينشغل الإنسان بجمع المال، ثم يأتي يوم يصبح فيه المال لغيره، وهذا ليس عيباً في المال؛ فالمال نعمة إذا كان حلالاً واستُعمل في الخير، لكن السؤال: هل عشت لتملك فقط، أم جعلت مما تملك شيئاً ينفع؟

قد تنتهي متعة ما أنفقتة على نفسك، بينما يستمر نفع ما جعلته في باب من أبواب الخير، وقد تترك أشياء لا تراها: طفلاً يتذكر كلمة قلتها له، وتلميذاً يعمل بعلم علمته إياه، وشخصاً تعلم منك معنى العطاء، وأبناءً يعاملون الناس بأخلاق رأوها فيك.

قد تغيب عن المشهد، لكن أثراً منك يظل حاضراً؛ فماذا سيقول الذين عاشوا معك إذا ذكروك؟ هل يقولون: كان أميناً؟ رحيماً؟ إذا غضب لم يظلم؟ إذا وعد وفى؟ إذا أخطأ اعتذر؟ كان يحفظ السر، ويبر والديه، ويعين المحتاج؟

قد لا تتحكم فيما سيقوله الناس بعد رحيلك، لكنك تستطيع اليوم أن تصنع ما يستحق أن يُذكر.

ولا تجعل آخر ما تتركه جرحًا؛ أن كان هناك حق تستطيع رده؛ فردة، وإن كان هناك اعتذار صادق تستطيع تقديمه؛ فلا تؤجله، وإن كانت خصومة تستطيع تخفيفها؛ فحاول.

ليس كل خلاف ينتهي بالمحبة، لكن كثيرًا من الخلافات لا تستحق أن تنتهي بالعداوة، ولا تجعل أبنائك يرثون خصوماتك. علّمهم الحذر من الخطأ، لكن لا تورثهم الكراهية؛ أترك لهم إيمانًا وأخلاقيًا ورحمة، لا قائمة طويلة من الأحقاد.

ومن أجمل ما يبقى: العلم النافع، قد تعلم إنسانًا مهارة، أو تساعد طالبًا، أو تنقل علمًا موثوقًا، لكن العلم أمانة؛ فلا تنشر ما لا تعلم، ولا تنسب إلى الدين ما لم يثبت؛ إذا لم تعرف؛ فقل: لا أعلم.

وقد يكون أجمل ما تتركه عملًا لا يعرفه أحد: صدقة سر، أو مساعدة خفية، أو إعانة محتاج، أو دعاء في غياب الناس؛ أجعل لك شيئًا بينك وبين الله لا يعرفه الناس؛ فالإخلاص أعظم من أن يحتاج الخير إلى توقيع صاحبه.

ولا تستهن بالكلمة؛ فقد تنتهي من فمك ولا تنتهي من قلب من سمعها، كلمة من أب، أو أم، أو معلم، أو صديق، قد تبقى سنوات، وكذلك الكلمة القاسية؛ قد تنساها أنت ولا ينساها غيرك.

فحين تغضب، لا تجعل غضبك يختار كلماتك، وحين تنصح، لا تجعل النصيحة إذلالًا.

وليس الأثر الصالح أن يحبك الجميع؛ فهذا لا يمكن، قد تختلف مع إنسان، أو ترفض ظلمًا؛ فيغضب منك؛ ألمهم ألا تظلم، وألا تؤذي لمجرد الانتقام، وألا تجعل رضا الناس معيار الحق.

اترك أثرًا صالحًا، لا صورة مثالية، وقد لا ترى ثمرة ما زرعت، تعلم، وتربي، وتعين، ثم تمضي قبل أن تشاهد النتيجة، وهذا لا يعني أن الخير ضاع؛ فقد يكون نصيبك أن تزرع، لا أن ترى الحصاد.

افعل ما تستطيع، واترك النتائج لله، وفي النهاية، ستبقى علاقتك بالله هي الأصل، قد يبقى اسمك، وقد ينتفع الناس بك، لكن لا تجعل الأثر الدنيوي غايتك الأخيرة؛ أنفع الناس، وابتغ بذلك وجه الله.

سيأتي يوم تنتهي فيه خطواتك في الدنيا، ويعود الناس إلى حياتهم، وتمضي الأيام، لكن قد يبقى من خيرك علم، أو صدقة، أو خلق، أو ولد صالح، أو قلب لم تكسره، أو إنسان أعتته على الوقوف.

فلا تنتظر النهاية حتى تسأل:

ماذا تركت؟ اكتب الإجابة الآن؛ في كل يوم، وكل كلمة، وكل موقف.

فالإنسان يرحل، لكن ما يتركه من خير قد يبقى، وإذا كان لا بد أن تترك شيئاً خلفك؛ فاترك ما تحب أن تجده أمامك.

آخر سجدة

قد يمر الإنسان على السجود آلاف المرات. يسجد وهو نشيط، ويسجد وهو متعب؛ في المسجد أو في بيته؛ في أيام الفرح والانكسار، ثم يرفع رأسه ويمضي في يومه، وكأن السجدة لحظة عابرة.

لكن ماذا لو علمت أن سجدة من هذه السجود ستكون آخر سجدة لك في الدنيا؟ أي سجدة ستكون؟

وماذا سيقول قلبك فيها؟

وماذا كنت ستتمنى لو علمت أنها الأخيرة؟

ليس المقصود أن نعيش في خوف من النهاية، بل أن ننتبه إلى نعمة السجود قبل أن ينتهي وقت السجود، من أعظم النعم أن يضع الإنسان جبهته لله؛ الجسد الذي يقف أمام الناس، والرأس الذي قد تأخذه العزة والكبرياء، ينحني بين يدي ربه إعلاناً للعبودية والافتقار.

إن قول رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء»^١؛ فهذا قرب خاص بالعبد من ربه، وهو قرب يليق بالله تعالى وبما شرعه لعباده، وليس معناه قرب المكان أو المسافة؛ فالله سبحانه ليس كمثله شيء.

ولو قيل لك: «هذه آخر سجدة لك»؛ ففعل أول ما ستفكر فيه ليس طول السجود ولا مكان الصلاة، بل قلبك: هل أنت حاضر؟

هل في قلبك ذنب تريد أن تستغفر منه؟

نعمة تريد أن تحمد الله عليها؟

خوف تريد أن تسأله أن يفرّج عنك؟ حاجة تريد أن ترفعها إليه؟

قد تكتشف حينها أن السجدة التي كنت تؤديها على عجل كانت أوسع مما ظننت، وليس المقصود أن يكون السجود طويلاً بالضرورة، وإنما أن يجتمع فيه ما استطاع العبد من الخضوع وتعظيم الله والافتقار إليه.

١ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قد يطول سجود الإنسان وقلبه غافل، وقد يقصر وقلبه ممتلئًا خشوعًا؛ فالمطلوب أن نجاهد أنفسنا على حضور القلب، وأن نعود إليه كلما شرد.

كل إنسان يدخل صلاته بشيء:

هم، أو ذنب، أو خوف، أو فرح، أو سؤال لا يجد له جوابًا، ولا يشترط أن تأتي إلى الصلاة وقد حُلَّت مشكلاتك. يكفي أن تعرف إلى من ترفع حاجتك. ولا تجعل الذنب سببًا لترك الصلاة؛ أنت لا تصلي لأنك كامل، بل لأنك عبد محتاج إلى ربه، وإذا أخطأت؛ فتُب، وإذا ضعفت؛ فارجع، وإذا قصرت؛ فلا تجعل تقصيرك بابًا لليأس.

والسجود ليس هروبًا من الحياة.

تسجد ثم تقوم إلى عملك، وأهلك، ومسؤولياتك؛ لكنك تحمل معك معنى العبودية، قد لا تختفي المشكلة بعد الصلاة، لكن قلبك يتعلم أن يستعين بالله، وأن يطلب منه العون والثبات.

ولا تعرف أين ستكون سجدة الوداع؛

في بيتك، أو في مسجد، أو في سفر؛ فلا تنتظر مكانًا استثنائيًا لتكون صادقًا مع الله؛ العبادة لا تحتاج إلى مشهد مهيب، وإنما إلى قلب يتوجه إلى ربه. ولا تنشغل بتخمين شكل خاتمتك، بل أحسن السير واسأل الله الثبات؛ أن أردت حسن الخاتمة؛ فاجعل الطاعة رفيقة أيامك، ولا تبني رجاءك على أمنية مجردة. واجعل لك عبادات خفية لا يراك فيها أحد: دعاء، وصدقة، وركعتين في الليل، واستغفارًا لا يعلم به الناس؛ فالإخلاص أن تعمل لله دون حاجة إلى جمهور. وفي سجودك، اسأل الله المغفرة والهداية والثبات وصلاح القلب والرحمة وحسن الخاتمة، واسأله حاجات دنياك وآخرتك.

وإذا كان بينك وبين إنسان خصومة؛ فاطلب من الله أن يصلح قلبك، دون أن يعني ذلك التنازل عن حق أو قبول ظلم، وإذا ظلمت أحداً؛ فلا تجعل الدعاء بديلاً عن رد الحقوق؛ أصلح ما استطعت؛ فصدق

التوبة يظهر أثره في العمل.

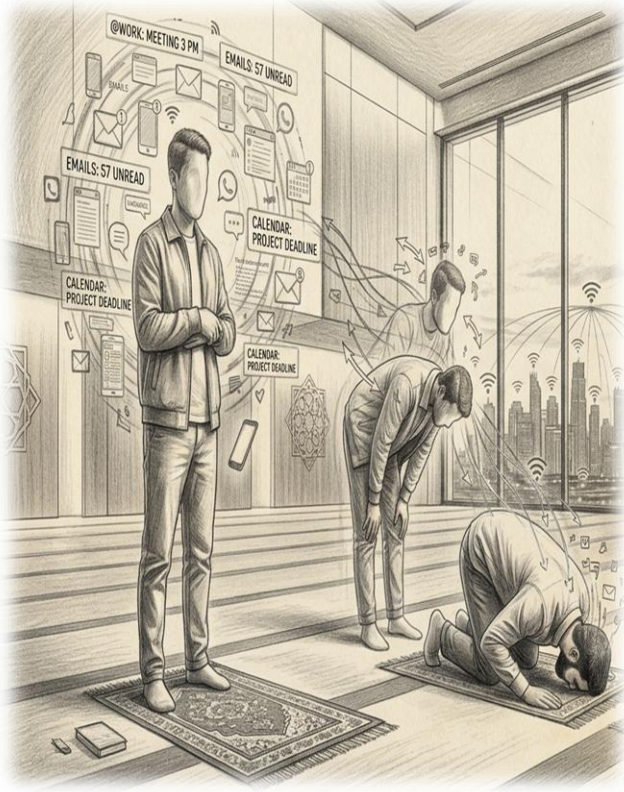
وربما تكون أجمل طريقة لاستحضار «السجدة الأخيرة» ألا تبحث عنها، بل أن تحسن السجدة التي بين يديك الآن.

لا تحتاج إلى كلمات كثيرة.

قل: يا رب، اغفر لي وارحمني، وأصلح قلبي، وثبتني على طاعتك؛ ثم اسجد بصدق، وادع بما تستطيع، وارفع رأسك وامض إلى حياتك.

لا تنتظر أن تشعر بشيء خارق. يكفي أنك عبد وقفت بين يدي الله، وقد تكون

آخر سجدة بعد سنوات طويلة، وقد تكون أقرب مما تظن، لن تعرف حين تأتي أنها الأخيرة، ولهذا لا تؤجل الصدق إلى سجدة لا تعرف موعدها.



حين تنتهي الرحلة وتبدأ الحقيقة

في زحام اليوم، تتصارع الإشعارات على نظرك، وتتزاحم الأخبار في عقلك قبل أن يبدأ صباحك، وتنتقل من صورة إلى أخرى حتى تنهي يومك مرهقًا، ولا تدري: أرهقك العمل، أم المقارنات، أم ذلك الشعور بأنك تركض ولا تصل؟

قد ترى إنجازًا لصديق فتبتسم له، ثم تقارن نفسك به، وترى حياة تبدو أجمل من حياتك؛ فتشعر بالنقص، ثم تفتح هاتفك لتستريح؛ فإذا بك أكثر تشتتًا.

المشكلة ليست في الهاتف وحده، ولا في وسائل التواصل بذاتها؛ وإنما في قلب قد يسمح لكل ما حوله أن يستولي على اهتمامه، حتى ينسى الغاية التي خلق لها.

إن العبودية روحها العملي هو الذكر، وذكر الله لا يعني أن الحياة ستخلو من القلق والتعب، ولكنه يمنح القلب سكينة وثباتًا يعينانه على مواجهة ما فيها.

ولهذا علم النبي ﷺ أمته أن تسأل الله الهداية والتقوى والعفاف والغنى؛ فقال: «اللهم إني أسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى»^١.

فالهداية تبصر الطريق، والتقوى تحفظ من الزلل، والعفاف يصون النفس، والغنى غنى القلب عما في أيدي الناس.

ومن هنا تبدأ المعالجة: لا أن تهرب من العالم، بل أن تعيد ترتيب علاقتك به، يمكنك أن تستخدم هاتفك، لكن لا تجعله أول ما يستولي على قلبك صباحًا، ويمكنك أن ترى نجاح الآخرين دون أن تجعل نجاحهم مقياسًا لقيمتك، ويمكنك أن تطمح وتعمل، دون أن تجعل الإنجاز مصدر قيمتك الوحيد.

تذكر أن ما تراه من حياة الآخرين غالبًا صورة منتقاة؛ فلا تقارن واقعك الكامل بلحظة من واقع غيرك، وحين تشعر بالمقارنة، اسأل نفسك: ماذا شغل قلبي الآن؟ وما الذي أريده حقًا؟

ثم أعد قلبك إلى الله: بذكر، أو صلاة، أو دعاء، أو عمل صالح، ولا تنتظر أن تصبح مثاليًا؛ القلب يتقلب، والإنسان يضعف ويغفل، لكن المهم أن ينتبه إذا شرد، وأن يعود إذا ابتعد.

١ رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

اجعل لك كل يوم وقت لله؛ تراجع فيها نفسك:

ما الذي أفرحني؟

ما الذي أقلقني؟

ما الذي تعلقته به أكثر مما ينبغي؟

ثم اسأل الله أن يصلح قلبك ويعينك على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وتذكر أن الراحة ليست في أن تتوقف الحياة، وإنما في أن تعرف كيف تعيشها بقلب يعرف غايته، وقد قال رسول الله ﷺ عن المؤمن: «عجباً لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له»^١.

فإذا ازدحم العالم حولك، لا تحاول أن تملك كل شيء. يكفي أن تحسن إدارة قلبك، ستمر الصور، وتنتهي الأخبار، وتتغير المقارنات، ويذهب كثير مما شغل.

ويبقى السؤال الأهم: هل كنت ترد قلبك إلى الله كلما شرد؟

فلا تجعل الدنيا أكبر من حجمها، ولا تجعل ما في أيدي الناس معياراً لنعم الله عليك؛ أغلق الشاشة أحياناً، وافتح قلبك لذكر الله، خفف الضجيج من حولك، لتسمع ما يحتاجه قلبك.

وعش في هذا العالم، دون أن تجعل العالم يسكن في قلبك.

١ رواه مسلم عن صهيب رضي الله عنه.

إلى الله المصير

يمضي الإنسان في الدنيا نحو أشياء كثيرة: بيت يريد بناءه، وعمل يرجو النجاح فيه، ومال يسعى إلى جمعه، وأسرة يريد حمايتها، وأحلام يأمل تحقيقها، وقد يظن في الطريق أن الغاية هي الوصول إلى شيء من ذلك كله.

ثم تأتي الحقيقة التي تختصر الطريق: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^١؛ إلى الله نرجع، وإليه يكون الحساب والجزاء.

تتغير الطرق والقصص والظروف، ويطول العمر أو يقصر، لكن النهاية واحدة، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾^٢.

فإذا كان المصير إلى الله؛ فكيف ينبغي أن يكون الطريق؟

ليس الطريق إليه طريقًا بلا أخطاء؛ فالإنسان يضعف ويغفل ويقصر، لكنه لا ينبغي أن يجعل خطاه سببًا لليأس؛ إنما الشأن أن يرجع كلما أخطأ، ويتوب كلما زل، ويستعين بالله كلما ضعفت نفسه.

لا تحتاج أن تصل إلى الكمال حتى تبدأ؛ ابدأ من حيث أنت، وخذ اليوم خطوة صادقة بدل أمنيات مؤجلة.

وإذا علمت أن المصير إلى الله، تغيرت قيمة الأشياء في قلبك.

تعمل وتكسب، وتتزوج وتحب، وتبني وتنجح، لكنك لا تجعل المال غايتك، ولا الناس نهاية تعلقك، ولا النجاح سببًا للكبر؛ الدنيا وسيلة، وليست الغاية الأخيرة. وحين تضيق بك الحياة، أو يظلمك أحد، أو تفوتك أمنية، تذكر أن الدنيا ليست المحكمة الأخيرة.

قد لا ترى الحكمة كاملة، وقد لا تستوفي حقك هنا، لكن الله لا يضيع عملاً ولا يخفى عليه ظلم.

يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^٣.

١ سورة النور : الآية : ٤٢ .

٢ سورة النجم : الآية : ٤٢ .

٣ سورة الزلزلة ٧-٨ .

فأثبت على الحق، ولا تجعل ظلم الناس سبباً لظلمك، ولا عدم تقديرهم سبباً لترك الخير، يكفيك أن الله يعلم.

وفي النعمة كما في البلاء، لا تنس ربك؛ إذا فتح لك فاشكر، وإذا منع عنك فاصبر، وإذا أذنبت فتب، وإذا نجحت فتواضع، ولا تجعل نعمة قرّبتك من الله في يوم سبباً لبعدك عنه في يوم آخر.

وتذكر أن المصير يعلمك التواضع: مهما بلغت من مال أو منصب أو شهرة، ستقف بين يدي الله عبداً، ولن تحمل معك إلا ما قدمت.

لذلك أصلح قلبك، وراقب نيتك، واسأل نفسك: لو لم يرني أحد، هل كنت سأفعل هذا؟

ومع الخوف من الحساب، لا تنس الرجاء في رحمة الله؛ فالمؤمن يسير إلى ربه بالخوف والرجاء والمحبة: يخاف تقصيره، ويرجو رحمة ربه، ويحب طاعته ورضوانه. ولا تجعل تذكر النهاية يعطلك عن الحياة؛ أعمل، وتعلم، وتزوج، وربّ، واكسب، واستمتع بالحلال، وتحمل مسؤولياتك؛ لكن اجعل كل ذلك داخل معنى العبودية. اذكر النهاية لتحسن الطريق، لا لتهرب من الطريق.

كل صباح يمر ليس مجرد يوم آخر؛ إنه جزء من عمرك؛ فاجعل فيه صلاة، أو ذكراً، أو علماً، أو صلة، أو صدقة، أو إحساناً.

ولا تنتظر أن تشعر دائماً بلذة العبادة؛ فقد تكون الطاعة أحياناً مجاهدة، لكن العبد يستمر ويستعين بالله.

في النهاية، لا يستطيع الإنسان أن يغير كل ما مضى، لكنه يستطيع أن يغير اتجاهه، كلما أخطأت فارجع، وكلما ضعفت فاستعن، وكلما غفلت فتذكر.

فليس المطلوب أن تبلغ الكمال قبل الرحيل، بل أن تكون سائراً إلى الله.

وإذا جاء اليوم الذي تنتهي فيه رحلة الدنيا؛ فلن يبقى لك مالك ولا منصبك ولا صورتك عند الناس، وإنما يبقى عملك، وما أخلصت فيه لله، وما أحسنت به إلى خلقه.

فاجعل غايتك أن تلقى الله بقلب يرجوه، وتوبته صادقة، وحقوق أديتها، وظلم تركته، وخير سعت إليه.

نحن لله، وإليه نرجع، وإليه المصير؛ فاجعل هذه الحقيقة حاضرة في قلبك، لا لتخاف من الغد، وإنما لتحسن اليوم؛ فكلما عرفت إلى أين المصير، عرفت كيف ينبغي أن تعيش الطريق.

حين تعيش لله... حتى تلاقاه

قد يبدأ الإنسان حياته وهو يظن أن عليه أن يجد لنفسه مكانًا في هذا العالم: أن ينجح، ويثبت نفسه، ويجمع ما يستطيع، ويحمي من يحب، ويترك أثرًا يذكره الناس به.

ثم يمضي العمر؛ فيكتشف حقيقة أعمق: أنه لم يُخلق ليكون عبدًا للدنيا أو للنجاح أو لنظرة الناس، وإنما خُلق لعبادة الله.

يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^١.

لكن أن تعيش لله لا يعني أن تهرب من الحياة؛ بل أن تعيشها في طاعته، تعمل؛ فلا تغش، تتاجر؛ فلا تظلم، تتزوج؛ فتحفظ الحقوق، تربي أبناءك، وترعاهم دون ظلم، تطلب الرزق، ولا تجعل المال غايتك، تنجح؛ فلا تتكبر، وتملك؛ فلا يستعبدك ما تملك.

فالعبودية ليست ترك الدنيا، وإنما ألا تجعلها أكبر همك ولا غايتك الأخيرة. وقد تكون الأعمال العادية عبادة إذا صلحت النية وكان العمل مشروعًا: عملك لطلب الحلال، وبرك بوالديك، ورعايتك لأهلك، وإتقانك لعملك، وكفك لسانك عن الأذى. وهنا يصبح السؤال المهم: لماذا أفعل هذا؟ فالعمل الواحد قد يختلف قدره باختلاف القصد.

تريد المال؛ فاسأل: هل أطلبه من حلال؟ وتريد المكانة؛ فاسأل: هل أريد بها نفعًا مشروعًا أم مدح الناس؟ وتغضب؛ فاسأل: كيف أرضي الله وأنا أطلب حقي؟ وهكذا يتحول الإيمان من فكرة إلى بوصلة.

أن تعيش لله يعني كذلك ألا تجعل رضا الناس هو المحكمة الأخيرة على حياتك؛ أحسن إليهم، واحفظ حقوقهم، وارحمهم، لكن لا تجعل مدحهم هو الذي يحركك. قد لا يشكرك أحد، وقد يُساء فهمك، وقد تُظلم؛ فاطلب حقك بالعدل، ولا تدع أذى الناس يحملك على ظلمهم.

١ سورة الذاريات: الآية: ٥٦.

وإذا أغلقت الأبواب؛ فاسع واستشر واستخر، ثم ارض بأن النتيجة ليست ملكك، وإذا جاءت النعمة؛ فقل: هذا فضل من ربي؛ واشكره ولا تجعل العطاء سبباً للغفلة. فالبلاء يكشف القلب، والنعمة تكشفه أيضاً. وإذا أخطأت؛ فلا تجعل الذنب سبباً لليأس.

تب

استغفر

أصلح

راجع شؤونك وأحوالك مع الله

فليس الثبات ألا تسقط، وإنما ألا تجعل السقوط مقاماً تقيم فيه.

وقد تمر عليك أيام لا تجد فيها لذة العبادة؛ فلا تجعل الفتور حجة للانقطاع؛ أستمروا بما تستطيع، واسأل الله الثبات.

واجعل لك أعمالاً خفية لا يعلمها الناس؛ صدقة، أو دعاء، أو استغفاراً، أو تركاً لمعصية لا يراك فيها أحد، هناك يتربى الإخلاص.

والعيش لله يظهر أيضاً في أخلاقك: في بيتك، وعملك، وغضبك، ومالك، وخلافاتك؛ فلا معنى لكثرة العبادة مع ظلم الناس وأكل حقوقهم.

ومن أعظم ما يعين على ذلك تذكر النهاية يقول الله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^١.

فهذا الرجاء ليس أمنية بلا عمل؛ بل رجاء يدفع إلى الصلاح والإخلاص.

لا تنتظر أن تستقيم حياتك كلها حتى تعيش لله، ستبقى مسؤوليات وتعب وأيام ثقيلة؛ المهم أن تحفظ وجهتك:

إذا فرحت فاشكر، وإذا أخطأت فتب، وإذا خفت فاستعن بالله، وإذا ضاقت فاصبر، وإذا اتسعت فاحمده.

قد لا تستطيع ترتيب العالم، لكنك تستطيع أن تحفظ قلبك ووجهتك. وسيأتي يوم لا تستطيع فيه أن تقول: «غداً»

عندها ينتهي زمن العمل، ويبقى ما قدمت، لذلك لا تؤجل اعتذارًا، ولا رد حق، ولا صدقة، ولا صلة رحم، ولا توبة، ولا كلمة طيبة.

ولست مطالبًا أن تكون كاملاً؛ بل أن تكون صادقاً في السير: تقوم إذا سقطت، وتعود إذا ابتعدت، وتستغفر إذا أذنبت، وتصلح ما استطعت، وتحسن الظن برحمة الله مع الخوف من التقصير.

ما زال أمامك يوم، وما زالت أمامك سجدة، وما زالت أمامك توبة. فلا تنتظر أن تصبح حياتك مثالية حتى تعيش لله؛ عش لله وأنت تتعلم، وتجاهد، وتضعف، وتعود. عش لله... حتى تلقاه.

الخاتمة: ويبقى الطريق إلى الله

وصلنا إلى آخر الصفحات، لكن الحقيقة أن الطريق لم ينته.

فهذا الكتاب لم يكن حديثاً عن حياة مثالية لا تتعثر، ولا عن إنسان لا يضعف، ولا عن طريق يخلو من الألم، كان محاولة لتعلم كيف نمضي إلى الله وسط الحياة كما هي؛ حين تفتح لنا أبوابها، وحين تغلقها، حين نربح، وحين نفقد، حين نشعر بالقرب، وحين تثقل علينا العبادة.

تعلمنا أن العبودية ليست لحظة عابرة، بل طريقة حياة.

أن نعبد الله في صلاتنا، وفي أخلاقنا، وفي بيوتنا، وفي أعمالنا، وفي علاقتنا بالناس، وفي وحدتنا، وفي أفراحنا، وفي انكساراتنا.

وأن مشقة البلاء لا تحتاج دائماً إلى تفسير حتى نستطيع الصبر عليها. يكفي أحياناً أن نعرف إلى من نلجأ حين تضيق بنا الدنيا.

وأن الأيام العادية ليست أياماً هامشية؛ ففيها تُبنى الاستقامة بصمت.

وأن الرحيل ليس بعيداً كما نتخيل، وأن أجمل ما يمكن أن نتركه وراءنا ليس ما امتلكناه، بل ما قدمناه.

وفي النهاية، ربما لا نستطيع أن نختار كل الطرق التي نمشيها، لكننا نستطيع أن نختار لمن نمضي.

فإذا تغيّرت خططك؛ فالله باقٍ؛ وإذا تأخر ما ترجوه؛ فالله يسمعك.

وإذا أوجعك الفقد؛ فالله أقرب إليك من كل ما فقدت؛ وإذا أخطأت؛ فباب التوبة مفتوح.

وإذا أثقلتك الحياة؛ فإليه المفر؛ وإذا انتهت الرحلة؛ فإليه المصير.

لذلك لا تبحث عن طريق لا تتعب فيه، بل ابحث عن طريق لا تضل فيه.

واجعل الله غايتك في كل خطوة، حتى إذا انتهت خطواتك، كان أجمل ما في حياتك أنك كنت تمضي إليه.

فالحياة تمضي... والأيام تنقضي... ويبقى الله.

فكن لله، حتى تلقاه.

العنوان	ص
حين ترى نفسك في مرآة الإيمان	٥
من أنا حين لا يراني أحد	٧
بين الصورة التي يراها الناس والحقيقة التي يعرفها الله	١٠
حين تكتشف أنك أضعف مما تظن	١٣
العبد الذي لا يستغني	١٦
كيف تنجو من نفسك؟	١٩
حين تصبح النفس هي المعركة	٢٢
أهواء القلب التي لا يراها أحد	٢٥
العبادة خارج دائرة الضوء	٢٨
العبادة خارج دائرة الضوء	٣٠
حين تصير الطاعة عادةً بلا روح	٣٢
القرآن الذي نقرأه ولا يغيرنا	٣٤
أن تكون صادقاً مع الله	٣٦
الله أعلم بك منك	٣٨
من المعرفة إلى التغيير	٤٠
معارك القلب الخفية	٤٢
حين يتسلل الغرور إلى القلب	٤٤
كيف يولد الحسد؟	٤٦
حين يسرقك رضا الناس	٤٩
الخوف الذي لا ينبغي أن يسكن قلبك	٥٢
حين يصبح الماضي سجناً	٥٤
أسرى الندم	٥٧
حين يعجز القلب عن المسامحة	٥٩
القلوب التي أنهكها الانتظار	٦١

العنوان	ص
حين يطول الطريق	٦٣
ماذا يفعل اليأس بالقلب؟	٦٥
حين تتعب من نفسك	٦٧
النجاة من وهم الكمال	٧٠
حين تتعلم أن تبدأ من جديد	٧٣
حين تعيش لله في تفاصيل الحياة	٧٥
في زحام الدنيا لا تنسَ الله	٧٧
حين يصبح العمل عبادة	٧٩
كيف تعيش لله وسط مشاغلِكَ؟	٨١
حين يصبح الوقت أمانة	٨٣
بركة الأشياء الصغيرة	٨٤
الرزق الذي لا تراه	٨٦
ما بين السعي والتسليم	٨٨
حين تتأخر النتائج	٨٩
ليس كل تأخير حرماناً	٩١
الأبواب التي أغلقت رحمةً	٩٣
في الطريق الذي لم تختره	٩٥
حين يغيّر الله خطتك	٩٧
الخير الذي جاء في ثوب لم تحبه	٩٩
حين لا تأتي الحياة كما أردت	١٠١
كيف تحب الناس لله؟	١٠٣
حين تؤذيك كلمة	١٠٧
حين تختلف ولا تظلم	١٠٩
أدب الاختلاف حين تتسع المسافة	١١١
حين يسيء إليك من تحب	١١٣

العنوان	ص
ردّ الإساءة دون أن تخسر قلبك	١١٥
فنّ العفو حين لا يعتذر أحد	١١٧
حين تخفي معروفك	١٢٠
الكلمة التي ترفع انسانا	١٢٢
الإحسان إلى من لا يستطيع ردّ الجميل	١٢٢
القلوب التي لا نعرف أوجاعها	١٢٥
رحمة الإنسان بالإنسان	١٢٧
أن تكون مأمناً لمن حولك	١٣٠
عبادة الله في الأيام العادية	١٣٣
حين تصبح الصلاة حياة	١٣٥
كيف تحضر بقلبك؟	١٣٧
حين لا تجد لذة العبادة	١٤٠
الطاعة في زمن الفتور	١٤٢
كيف تعود بعد انقطاع؟	١٤٤
القليل الذي لا ينقطع	١٤٧
حين تثقل عليك الطاعات	١٤٩
عبادات السر	١٥١
حين لا يكون بينك وبين الله أحد	١٥٣
من العادة إلى العبادة	١٥٦
حين تعمل ولا تشعر بالأثر	١٥٩
كيف تحافظ على قلبك بعد رمضان؟	١٦١
عبادة الانتظار	١٦٤
أن تعبد الله في كل أحوالك	١٦٧
حين يأتي البلاء	١٧٠
حين ينكسر ما كنت تعتمد عليه	١٧٢

العنوان	ص
ماذا تفعل حين لا تفهم البلاء؟	١٧٤
الألم الذي لا يراه أحد	١٧٦
حين يتأخر الفرج	١٧٨
كيف تحمل قلبك في أيام الانكسار؟	١٨٢
حين يأخذ الله منك شيئاً تحبه	١٨٥
الفقد الذي يغيّر الإنسان	١٨٧
البلاء الذي يكشف القلب	١٨٩
بين الخوف وحسن الظن بالله	١٩٢
حين لا يبقى لك إلا الله	١٩٤
ما الذي تكشفه مشقة البلاء فينا	١٩٦
حين يتحول الجرح إلى باب	١٩٨
من رحم الألم يولد الإنسان من جديد	٢٠٠
الرحيل وما بعده	٢٠٢
الرحيل وما بعده	٢٠٣
الدنيا التي لن تأخذها معك	٢٠٧
ما يبقى حقاً ليس ما جمعته، بل ما قدمته	٢٠٩
ما الذي سيبقى منك؟	٢١٠
حين يصبح الموت قريباً	٢١٣
ماذا أعددت للقاء الله؟	٢١٦
يوم لا تنفع الأقنعة	٢١٨
يوم يأتي كل إنسان بما قدم	٢٢٠
الأعمال التي تبقى حين يرحل أصحابها	٢٢٢
حين تنتهي أعذار الحياة	٢٢٥
آخر ما يتركه الإنسان وراءه	٢٢٨
آخر سجدة	٢٣١

العنوان	ص
حين تنتهي الرحلة وتبدأ الحقيقة	٢٣٤
إلى الله المصير	٢٣٦
حين تعيش لله... حتى تلاقاه	٢٣٨

«في هذا الكتاب»

حين نحيا لله



«ليس المطلوب أن تأتي الحياة كما
أردت، وإنما أن تعيشها لله.»

«وهذا هو معنى أن نحيا لله.»